

نظريتي شعر

٤- مرحلة مجلة أبولو

القسم الأول
مقدمات

تحرير وتقديم:
محمد كامل الخطيب

قضايا وحوارات النهضة العربية «٢٣»



Bibliotheca Alexandrina



0070839

السيف البني : زهير الحمو

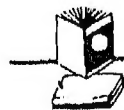
الرسائل السياسية
في العصر العباسي الاول

وزارة الثقافة
أحياء التراث العربي
(١٠٠)

الرسائل السياسية

في العصر العباسي الأول

تأليف
الدكتور حسين بوض



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

-
- الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول / تأليف حسني بيوض . -
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . - ٢٦٣ ص ؛ ٢٤ سم . -
(أحياء التراث العربي ؛ ١٠٠) .

١- ٨١٦٠/١٠٠٩ بي و ر ٢- ٨١٦٠/٥١ بي و ر
٣- العتسوان ٤- بيوض ٥- السلسلة

مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع - ٧٣٩ / ١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إذا كان العصر الجاهلي هو العصر الذهبي للشعر العربي ، وإذا كان العصر الأموي هو العصر الذهبي للخطابة العربية ، فإن العصر العباسي هو - بحق - العصر الذهبي للكتابة العربية ، بما فيها فن الرسالة . والرسائل فن قديم وأصل من فنون النثر ، لا يقل أهمية وشهرة عن غيره من الفنون الأخرى . وهو ينقسم الى أقسام عديدة بحسب الموضوعات التي يتناولها ويعالجها . فهناك الرسائل الأدبية ، والرسائل العلمية ، والرسائل الدينية ، والرسائل التاريخية ، والرسائل الفلسفية ، والرسائل السياسية . والقسم الأخير هو مجال بحثنا في هذه الدراسة .

ويُراد بالرسائل السياسية الكتب التي تكون بين المملوك والحكام والأمراء والولاة والقواد ، وبمعنى آخر الرسائل ذات الطابع الرسمي ، التي دُعيت في العصور المتأخرة بالسلطانيات ، ويندرج ضمنها في بعض الأحيان ما يوجهه بعض العامة أو الخاصة الى تلك الطبقة . وموضوعات تلك الكتب تتصل بسياسة هؤلاء وأنظمة حكمهم ، وتصريف شؤون الدولة وحكامها ، وتنظيم العلاقات مع الدول المجاورة (١) . ولأهمية هذه الرسائل السياسية فقد أصبح لها ديوان خاص بها في وقت مبكر ، فلذلك نسبت إليه ، فسميت بالرسائل الديوانية .

(١) وبهذا يخرج من بحثنا ما يعرف بالفصول والتحميدات ، والتعازي والتنهائي ، ورسائل الاستعطف والاعتذار ، واستنجاز الوعد والوصايا ، لأنها جميعها تدخل في باب الرسائل الأخوية والأدبية .

ولقد أقبلت على هذه الرسائل ، لأنها لم تحظ الى الآن بما هي جديرة به من الدراسة والاهتمام ، لانصراف معظم الباحثين الى دراسة الرسائل الادبية او الفلسفية ، مغفلين هذا القسم من الرسائل ، ومن ثم لم نجد دراسة واحدة اختصت بالرسائل السياسية لهذا العصر ، او عنيت بها . وانما كل الذي كتب عنها ، او قيل فيها ، لا يعدو أن يكون وقفات سريعة ، وملاحظات عابرة ، لا تروي الفلحة ، ولا تفي بالفرض ، على الرغم من كون الرسائل السياسية جزءا لا يتجزأ من فن الرسائل ، هذا الفن الاصيل من فنون الكتابة العربية .

وكان لا بد قبل الشروع بالبحث من تحديد عصره وزمنه ، فقصرته على العصر العباسي الاول ، الذي ينتهي بمقتل الخليفة المتوكل على الله ، سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة ، على حد تقسيم بعضهم . ولقد اخترت هذه الفترة دون غيرها لأنها تعد - كما ذكرت آنفا - بداية العصر الذهبي للكتابة الفنية ، الذي امتد الى أواخر القرن الرابع ، وأوائل القرن الخامس الهجريين ، وهو عصر ازدهار الرسائل ورقيا من حيث الكيف والكم ، إذ أصبحت فنا راقيا ، يجاري غيره من الفنون الأخرى ، ولم تكن قبل ذلك قد اكتملت معالمها وبلغت ما بلغته من النضج والازدهار . كذلك فإنها بدءا من القرن الخامس ، أخذت تفقد روحها ورونقها ، لتغدو أشبه بقوالب ، يصوغ الكتاب رسائلهم على مثالها ، فيغلب عليها التقليد والتكرار ، وتنحدر الى الركاسة والاسفاف .

من الذين كتبوا في الرسائل السياسية « الديوانية » في العصر العباسي الاول الدكتور شوقي ضيف ، فتحدث عنها في البند الرابع تحت عنوان « الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات » وذلك في الفصل الثامن ، الذي خصه بتطور النشر وفنونه (٢) .

(٢) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول (دار المعارف بمصر) ، ص ٤٦٥ .

كذلك خصص أنيس المقدسي في كتابه (تطور الأساليب النثرية) فصلا للرسائل الديوانية قديما وحديثا(٣) ، بيد أنه لم يطل الوقوف عند هذه الفترة من العصر ، إذ سرعان ما تجاوزها الى الحديث عن من أمراء الانشاء الديواني المتأخرين ، كابن العميد ، وأبي إسحق الصابي ، والقاضي الفاضل ، وإسان الدين بن الخطيب ، بعد أن ساق مجموعة من الرسائل الديوانية التي تعود الى العصر العثماني .

وتحدث الدكتور حسين نصار في كتابه (نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي) (٤) عن الرسائل السياسية في العصر الجاهلي ، وصدر الاسلام ، وعهد الأمويين ، وساق نماذج من تلك الرسائل ، معلقا عليها ، ومشيرا الى بعض كتابها الذين اشتهروا في عصرهم ، وكان طبيعيا أن تنتهي دراسته بانتهاء العصر الأموي ، دون أن يتعرض الى ذكر شيء عن الرسائل في العصر العباسي ، لأن بحثه اقتصر على النشأة .

ولابد من الإشارة الى ما كان للأستاذ أحمد زكي صفوة - أستاذ اللغة العربية بدار العلوم - من فضل في هذا المجال ، بجمعه وتحقيقه مشهور الرسائل عامة ، والرسائل السياسية خاصة ، منذ العصر الجاهلي الى مستهل العصر البويهي ، وذلك في كتابه المسمى « جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة » (٥) . وقد جعله في أربعة أجزاء :

٣ أنيس المقدسي : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، الطبعة الثالثة (بيروت ١٩٦٥) . ص ٢١٨ .

(٤) حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، الطبعة الأولى (القاهرة ١٩٥٤) .

(٥) أحمد زكي صفوة : جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ، الطبعة الأولى (القاهرة ١٩٣٧) .

الجزء الأول : ويحوي الرسائل في العصر الجاهلي ، وعصر صدر الاسلام .

الجزء الثاني : ويحوي الرسائل في العصر الأموي .

الجزء الثالث : ويشتمل على الشطر الأول من رسائل العصر العباسي الأول ، وهو يحوي رسائل العباسيين من أول خلافة السفاح الى آخر خلافة المأمون .

الجزء الرابع : ويشتمل على الشطر الثاني من رسائل العصر الأول ، وهو يحوي رسائل العباسيين من أول خلافة المعتصم الى استيلاء بني بويه على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة .

وبذلك يكون قد قدّم للدارسين فوائد جمة ، ومهد السبيل لمن اراد البحث والدراسة لهذا اللون من الأدب ، مضيفا بعمله ذلك لبنات جديدة الى صرح المكتبة العربية .

وآخر دراسة ظهرت في فن الرسائل ما كتبه غانم جواد رضا من العراق ، تحت عنوان (الرسائل الفنية في العصر الاسلامي حتى نهاية العصر الأموي) . وهي دراسة عامة للرسائل الشخصية والديوانية في هذين العصرين ، على اختلاف ألوانها ، السياسية ، والحربية ، والادارية ، والدينية ، والوصفية ، والاخوية .

وقد توخيت في بحثي هذا أن أعرض لأهم ما بقي لنا من رسائل سياسية من ذلك العصر ، تلك النصوص التي تعد نماذج فريدة للبلاغة والفصاحة في النثر العربي ، وأمثلة رائعة للكلام الرصين ، والسبك المتين ، والأسلوب المشرق ، حظيت بمكانة عالية ، لدى المتقدمين والمتأخرين .

عمدت بادىء ذي بدء الى ذكر نبذة عن الرسائل السياسية قبل العصر العباسي ، فتحدثت من خلال ذلك عن ديوان الرسائل ونشأته ، ثم تكلمت على ازدهار الرسائل وتطورها في هذا العصر ، وبينت المستوى الرفيع ، والشكل اللائق الذي وصلت اليه . ثم توقفت قليلا عند المصادر التي حفظت لنا هذه الرسائل ، ونقلتها عبر تلك القرون الطويلة ، ثم مضيت لأحدث عن توثيقها وتحققها ، مولياً هذه الناحية أهمية كبيرة ، لما لها من اثر بارز في قيمة الرسائل والدراسة . ثم أشرت الى كتابتها منوها بأشهر كتاب الرسائل الديوانية في هذا العصر ، ابتداء بابن المقفع ، وانتهاء بمحمد بن عبد الملك الزيات .

بعد ذلك عرضت للموضوعات التي عالجتها الرسائل ، وذلك في الباب الأول الذي جعلته في أربعة فصول ، تناولت في الأول رسائل في تنازع بني العباس حول الخلافة . وفي الثاني رسائل في الأمان . وفي الثالث رسائل في السياسة الخارجية . وفي الرابع رسائل في السياسة الداخلية .

وحين فرغت من الحديث عن موضوعاتها انتقلت الى الباب الثاني ، وجعلته في خصائص الرسائل ، وقسمته الى أربعة فصول ، تحدثت في الفصل الأول عن الخصائص الفكرية ، متناولا ظاهرتين بارزتين هما : ظاهرة الدعاوة والغدر ، وفي الفصل الثاني عن الخصائص الفنية ، وفيه تكلمت على مطالع الرسائل وخواتيمها وتأريخها ، وعلى الإيجاز والاطناب ، وعلى اقتباسها من القرآن والشعر . وفي الثالث تناولت الأسلوب الذي كانت تكتب به ، مشيراً الى مظاهر الصنعة والبديع التي كانت تبدو في كثير من الرسائل . وأما الفصل الرابع فكان محاولة لتقويم الرسائل ، وبيان ما تمتعت به من قيمة أدبية .

ولقد رجعت في هذه الدراسة الى أمهات المصادر العربية ، من كتب الادب والتاريخ والتراجم واللغة ، ومجموعة غير قليلة من المراجع والكتب الحديثة ، التي يجدها القارئ في فهرست المصادر والمراجع .

ولابد من الاشارة الى أنني قسمت البحث بحسب الموضوعات ، لا بحسب الأزمان ، ولكنني في الوقت نفسه راعيت الترتيب الزمني داخل الفصول حتى يجتمع المنهجان ، فكنت حين أورد الشواهد من الرسائل أقدم السابقة على اللاحقة ، والمتقدمة على المتأخرة .

وقد حاولت جهدي أن أثّر الحياد المطلق ، والنظرة الموضوعية ، فلا انحاز الى رأي من الآراء ، أو لطرف دون آخر ، كما لا ادعي أنني أحطت بجميع جوانب الموضوع وجزئياته . إذ لايزال هناك متسع ومجال لكل باحث ودارس يريد أن يلقي بدلوه بين الدلاء . ولكنني اعتقد أنني لم آل جهداً في المطالعة والبحث والاستنتاج لاكون صورة واضحة المعالم عن فن الرسائل السياسية في هذا العصر . وكل الذي أتمناه أن يكون هذا البحث الجديد من نوعه قد حقق الغاية المرجوة ، فاستطاع أن يملأ فراغاً في المكتبة العربية . وأسأل الله أن يلهمني السداد والاخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

حلب في ١٥/٥/١٤٠٩

١٩٨٨/١٢/٢٥

د. حسين بيوض

مدخل إلى الرسائل السياسية

- * الرسائل السياسية قبل العصر العباسي
- * نشأة ديوان الرسائل
- * ازدهار الرسائل في العصر العباسي
- * مصادر الرسائل
- * تحقيق الرسائل وتوثيقها
- * كتابة الرسائل
- * أشهر كتاب الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول *

الرسائل السياسية قبل العصر العباسي

(١)

ليست الرسائل السياسية حديثة النشأة والظهور عند العرب وغيرهم ، ولكنها قديمة قدم الأمم والحضارات ، إذ كان الملوك والحكام يتخذونها وسيلة من وسائل الاتصال والتفاهم ، ويستعينون بها في سلمهم وحربهم . وكانت تنقل شفهاها قبل أن تعرف الكتابة ، فينقلها الرسل كما يلقتهم إياها أسيادهم بالحرف الواحد ، ودون زيادة أو نقصان ، ويقومون بإيصالها إلى أصحابها . ومع ظهور الكتابة انتشرت هذه الرسائل ، وكثر استخدامها ، فكانت تكتب على الوسائل البدائية ، كالحجارة ، والجلود ، والعظام . ولعل رسائل تل العمارنة - التي يستغيث فيها أقيال بابل وسورية بمصر ، التي كانوا يؤدون إليها خراجاً متواضعاً ، بعد انتصارات تحتمس الثالث ، ويتوسلون إليها أن تمد إليهم يدها ، لتعينهم على الثوار والغزاة - هي من أقدم الرسائل السياسية التي عرفت حتى الآن (١) . وفي القرآن الكريم إشارة إلى رسالة بعثها النبي سليمان - عليه السلام - إلى ملكة سبأ ، يدعوها إلى الدخول في دعوته والمثول بين يديه ، متخيلة عما كانت عليه ، هي وقومها . فقد جاء على لسانها : « قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم * إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعولوا عليّ واتوني مسلمين » (٢) . ويذكر أن دارا الثالث بعد أن

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، الجزء الثاني (الشرق الأدنى) ، ص ١٩٥ . وانظر

محمد كرد علي : خطط الشام ، ٣٧/١ و ٥٠ .

(٢) سورة النمل ، الآية ٢٨ .

انهزم امام الاسكندر في موقعة اسّوس ، كتب إليه يعرض عليه الصلح ، معترفا له بالسيادة على جميع بلاد آسيا ، الواقعة في غرب الفرات (٣) .

وإذا عرفنا قدم الرسائل فأننا نرجح أنها وجدت في العصر الجاهلي ، وأن العرب كانت لهم مراسلات فيما بينهم من جهة ، ومع جيرانهم من الفرس والروم من جهة أخرى . ولما لم تكن الكتابة فاشية فيهم كغيرهم من الأمم المعاصرة لهم ، فقد كان أكثر اعتمادهم في مراسلاتهم على المشافهة ، يرسلون كتبهم ورسائلهم على لسان الخُلص منهم ، الذين يأمنون لهم ، ويشقون بهم ، ممن تتوفر فيهم الحكمة والفظنة والنباهة ، ومن ثم كانت تلك الرسائل تحفظ عن ظهر قلب ، وتناقشها الألسن . ولعل نقلها بهذه الطريقة ، وعدم كتابتها ، هو الذي أدى الى نسيانها وضياعتها . وفي بعض الحواضر التي كانت الكتابة تمارس فيها ممارسة ملحوظة عرفت الرسائل المكتوبة . فقد ذكر الجاحظ (٤) أنهم كانوا يكتبون عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة « مهارق » وهذه مهارق ذكرت في شعرهم . يقول الحارث بن حلزة في معلقته ، مشيراً الى ما كتب من عهود بين بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّم فيه ، اليهود والكفلاء

حذر الجور والتعدي ، وهل ربه قرض ما في مهارق الأهواء

ويذهب بعضهم الى أن الجاهليين استخدموا الكتابة في الأغراض السياسية والتجارية ، يقول الدكتور شوقي ضيف : « وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة ، تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض

(٣) قصة الحضارة ٢/٤٥٨ .

(٤) الحيوان ١/٦٩ .

الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية «(٥) . على أنه لم يصلنا من ذلك إلا النزر القليل ، الذي لا يتجاوز أصابع اليدين .

من ذلك كتاب المندر الأكبر الى أنو شروان(٦) ، وكتاب النعمان بن المندر الى كسرى في الرد على اتهاماته للعرب ، وتفنيده أباطيله فيهم(٧) ، ورسالة عمرو بن هند الى عامله بالبحرين ، المعروفة بصحيفة التلمس ، عمه نوفل بن عبد مناف(٨) ، وكتاب عدي بن زيد العبادي الى أخيه أبي(٩) . ويعتبر كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة من أهم الرسائل والكتب السياسية التي حفظت عن العصر الجاهلي(١٠) . وفي نوادر القالي أن هاشم بن عبد مناف قدم الى قيصر ، وأخذ منه كتاب أمان يؤمن تجارة من يأتيه من العرب ، ثم فعل المطلب بن عبد مناف مع ملوك اليمن مثل ذلك ، ومضى عبد شمس بن عبد مناف الى الحبشة ، ونوفل بن عبد مناف الى كسرى الأمر نفسه(١١) . يضاف الى ذلك رسائل رمزية بعثها بعض الأسرى الى أقوامهم ، يستنجدونهم ، أو يحذرونهم خطط الأعداء(١٢) يقول الألوسي : « وربما ألفوا عنها إخفاء لها ، اذا كانت مما يجب إخفاؤها وإسرارها »(١٣) .

(٥) العصر الجاهلي ، ص ٣٩٨ .

(٦) الأغاني ، ٢٨/٣ .

(٧) العقد الفريد ، ١٠٣/١ .

(٨) مجمع الأمثال ، ٢٧١/١ ، والأغاني ١٢٧/٢١ .

(٩) تاريخ الرسل والملوك للطبري ، ١٥/٢ .

(١٠) مفتاح الأفكار ص ٣١ .

(١١) نوادر القالي ص ١٩٩ .

(١٢) أمالي القالي ، ٨/١ .

على أن الشك يحوم حول أكثر ما نسب إلى العصر الجاهلي من الرسائل ، بل إن فريقاً من الباحثين اعتقد أنه لم يكن شيء منها في تلك الفترة . يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب : « لم تتناول الرواية من المنشور غير الخطب ، لأن الرسائل لم تكن في الجاهلية ، ولا كان ما يصنعه الاسلاميون منها مما نه متعلق في غرض من أغراض الرواية ، إلا عند الاخباريين (المؤرخين) ولهذا لم يكن الوضع (الانتحال) في المنشور إلا على الخطباء » (١٤) . ولئن صح بعض ما أشرنا إليه من النصوص ، فإنه لم يسلم من التشريف والتغيير ، لأنها رويت شفاهاً ، ثم نقلت بالمعنى (١٥) ، إلى أن دونت فيما بعد .

- ٢ -

ومع قيام الدولة الاسلامية أصبحت الحاجة إلى الرسائل ضرورة ملحة لا يمكن استبدالها أو الاستغناء عنها ، فهي الطريقة الوحيدة للاتصال ، ويمكن تضمينها شتى الموضوعات دون حرج أو صعوبة . ولما كان نشوء أية دولة يستلزم قيام علاقات وروابط داخلية وخارجية ، لا يمكن التعبير عنها ، والاتفاق عليها إلا بالمراسلات ، فقد رافق انشاء الدولة الاسلامية انشاء نظام من المراسلات والمكاتبات ، كان النواة الأولى لديوان الرسائل ، الذي أنشئ فيما بعد ، في عهد معاوية بن أبي سفيان .

وأول ما يصادفنا في العصر الاسلامي من رسائل هو رسائل النبي - صلى الله عليه وسلم - وكتبه التي بعث بها ، بدءاً من هجرته إلى المدينة . ولعل أول كتبه كتابه بالمدينة (١٦) ، الذي نظم به التعاون بين

(١٤) تاريخ آداب العرب ، ٣٨٦/١ .

(١٥) يقول محمد كرد علي : « والغالب أن إما غزي لعهد الجاهلية من المنشور كان مما أخذ بالمعنى » . أمراء البيان ، ص ١ .

(١٦) عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير ، ١٩٨/١ .

المألوف ، فذلك لأن نزعتة الفنية قد تعشق الجمال الفطري المعربد
أحياناً ، وصدقني - أيها القارئ العزيز - إنَّ للجمال المعربد فتنة
وسحراً لن يبلغها التثنيق والتزويق في كثير من الاحوال ! ! (١)

(١) أخذ علي بعض الأدياء تشجيعي لصديقي الأستاذ صاحب الديوان في نزعاته
التجديدية الجريئة كالشعر المرسل (سواء أكان مطلق القافية اطلاقاً تاماً أم متوعها)
وتنوع البحور وغير ذلك . ويكفي أن أحيل هؤلاء الافاضل الى كتاب (الخصائص)
للعلامة ابن جني ، وإلى أمهات كتب العروض والبيان ليروا بأعينهم وعقولهم كيف أن الشعر
واللغة أصلاً على سعة عظيمة من الحرية ، وكيف أن محور الشعر العربي المشهورة كثيرة
الزخاف والعلّة مما يجعلها متقاربة الوزن لا مماثلة تماماً ، وكيف يسوغ لنا بعد ذلك
الاستنتاج بأن العرب قديماً كانت تنشد الشعر في القصيدة الواحدة من أوزان متقاربة ،
وكيف أنه توجد بحور كثيرة غير مدونة ، وكيف أن واضع علم العروض الخليل بن أحمد
الفراهيدي من علماء القرن الثاني للهجرة يحتم على الناس اتباع آرائه واستنتاجاته عن أساليب
العرب الجاهليين بل اعترف بحواز المخالفة له حتى أن بعض المقلدين قال لأبي العتاهية (وكان
معاصراً للخليل) نقداً لبعض شعره : « خرجت فيه عن العروض » ، فقال : « سبقت أنا
العروض » . . . ! ! وبدهي أنه يستحيل على شاعر مطبوع أن يحيط شعره خالياً من
الوزن أي مكسور النظم ، ولكن من الجائز أن ينشد من بحور متقاربة بحكم القطرة والسليقة ،
دون أن يفسد الموسيقى العامة للقصيدة ، بل قد يكون التنوع مستحباً ، وقد يساعد أحسن
مساعدة على تمام الاداء للمعنى ، فمن العبث نقد هذا الفن والاعتداد والالهام الفطري ،
ومن التحامل وعبادة التقاليد تسمية هذه المواهب باضدادها . أن الشعر العربي بنشأته متجاوز
الوزن في البحر الواحد لا متمائله ، فلماذا لا نستعمل بحوراً متجاوزة في القصيدة الواحدة !
لقد كان المتنبي في مجهوده الأدبي يعمل لا رضاء صديقه ابن جني كما قال المتنبي ذاته ، وإني
لا أجهل اثر صحبتي ومعاشرتي في نفسية ونزعات صديقي الأستاذ أبي شادي ، وإني في
طلبة من شئوه على الاستمرار في ميوله الحرة ، وحملي أن أقول لا خواري الادباء المحافظين
الناقدين ما قاله الأستاذ الدكتور طه حسين للأستاذ الشيخ علام سلامة « . . . ما رأي الأستاذ
إذا قلت له ان النحو لم تكمل مباحثه بعد رغم ما كتبه سيويه وابن خروف وابن عصفور
وابن هشام وابن مالك ومن اليهم من اعلام الشرق والعرب الاسلاميين ! بل ما رأي
الأستاذ إذا قلت له ان كل علوم اللغة العربية لم تنته عند غايتها ولم تكمل مباحثها بل هي في
حاجة إلى التجريد واستئناف الدرس ، ولا سيما النحو والصرف وعلوم البلاغة وما رأي
الأستاذ ان قلت له ان الادب العربي كله محتاج إلى التجديد واستئناف الدرس »

هذه هي تماماً نفسية أبي شادي التي شجعتها من صميم نفسي ، ولي الحظ والشرف
باشترائي في ذنبه ان كان لهذه النزعة الهادمة البانية جريرة وذنب . . .

ويجب أن لا تنفوتني الإشارة إلى خصبه وقوته الانتاجية المدهشة بالرغم من شواغله العلمية والفنية المتنوعة التي تكاد لا تجد ، فهذه القوة الانتاجية وليدة لدته الفنية وحدها ، وليست وليدة الحاجة أو الرهبة أو المجاملة أو الزم هو الكاذب ، وإلا فانه ما كان يعارض التيار والأهواء التي لا توافق مشربه ، بينما غيره يجارها وينقلب معها بلا حساب لئلا التصفيق من رجال كل حكم وعهد . وهذه صفة طيبة فذكرها بالشكر والفخر ، ونقرن ذكرها بأطيب الدعوات لعافيته وراحته النفسية .

كذلك يسرني تكرار الاشادة بعطفه على اخوانه الادباء (١) وقوله : فكل أديب للأديب قريب » ، يمثل عاطفة حيّة في نفسه ومذهبا يدين ، به لا يقتش عن عيوب الناس وإنما يعني بحسناتهم ليضطرب لها ويذيعها . يكفيه أن يعلم أنك من أسرة الادباء اقبل على مودتك فيجاذبك الحديث بشغف واختلاص وبساطة بعيداً كل البعد عن التكلف . وهو يشتر من المفاضلة بين الادباء التي لحيته وسداها التحاسد والفخر الكاذب ، بتشجيع ويغبط كل أديب شريف عامل وناقلة العائر من عثاره ، معتبراً غيره من الادباء كنفسه خداماً لدولة الأدب ، فمن أوجب الواجبات عليهم جميعاً التضامن والتعاون القلبي والعمل على رفعة هذه الدولة ونشر نفوذها ودوام اصلاحها وتجديدها ، لا أن يحاول كل منهم أن يخلق لنفسه إمارة ، فيسود

(١) نشرت في الديوان أمثلة من هذا الود الأدبي ، ونقلت بالزركوغراف بعض النماذج من رسائل مشاهير الادباء (كما سبق لي مثل ذلك في ديوان « ألين ورنين ») تقديرًا لمنزلة كاتبها الأفاضل .

التنازع بدل التعاضد ، وتضيق مجهودات قيمة في سبيل التدمير وخدمة
المجد الشخصي الزائل . لا يحدد فضل إنسان إذا اطلع على شيء
من أدبه وإن كان غير معروف في حلبة الأدباء ، ويكون أسبق من
نفس ذلك الاديب لا ذاعة فضله ، ولا يبخل بفائدة إذا استطاع أن
يسديها ، ولا يتعالى في مقام الاستفادة . وهذه أصلاً أخلاق العالم
الفاضل ، فالأدب هو الرابح باكتساب بثها ونشرها ، لأن في
نشر ذلك المبدأ نشر نهضة أدبية جديدة يعتز بها الادب الكريم ،
وتذكرنا معشر الادباء بحاجتنا لاجتذاب عدد أوفر إلى صفوفنا من
بين العلماء المتأدبين ، فإن روح العلم المقترنة بالاخلاق الفاضلة رأس
مال بل ذخيرة حياة لأية نهضة .

من النقد من يوازن بين كابر من شعرائنا وكبير من شعراء
العباسيين أو الأمويين مثلاً فيسرع إلى المجازفة في حكمه ، متناسياً
عوامل البيئة والوسط عند تقديره . ومن رأيي أنه يحسن بنا أن
لا نغفل ذلك ، وأن نعتبر من مقاييس تقديرنا وفاء الشاعر
لحياة جيله وعصره . ذلك مقياس صالح من مقاييس التقدير
كما أنه مبدأ صالح أرى شاعرنا متعلقاً به ، وأكبره فيه مسروراً .
ومن النقد من ينطق الساعة بل الساعتين في جدل حول لفظة أو كلمات
إن تقدم ولن تؤخر شاعرية أي شاعر ، فيرفعونه إلى عنان
السماء أو يمرغونه في التراب حسب أهوائهم وأذواقهم ... ! ! ولو
عقلوا لرأوا أن هذا اللهو هديان في هديان ، وسبب للشعر الصميم .
ونصيحتي إلى هؤلاء الافاضل أن يثقروا بأن شاعرنا يعتمد استعمال
كل لفظ منتقى في هذا الديوان وفي سابق دواوينه ، سواء كان هذا
اللفظ عربياً صميمياً أو مصري النشأة صقله الاستعمال ، فالأولى بهم

التمعن في مراميه المجارية وخواطره الفلسفية وفي تصويره الدقيق
وغاياته البعيدة وفي علة اباحته القليلة قبل المجازفة بنقد مواضع الالفاظ
أو معانيها واستعمالها . ولو كان عندي الكافي من وقت
وفراغ للشرح لما اكتفيت بما سردت من أمثلة قليلة لطابة الادب ،
ولذكرت ظروف كل قصيدة وشرحتها شرحاً وافياً بعد التشاور
مع الناظم ، فاللذة كل اللذة في ذلك ، ولكن مثل هذا المطمح بعيد
عن مقدوري في ظروف الحاضرة . ومن رأيي أيضاً أن الخطأ في
تشجيع الشباب من الشعراء (كما لحظت في مقالات نقدية حديثة)
على العناية الشاغلة بسهولة اللفظ أو فخامته دون احتياج لتفسير ،
فإن مثل هذه العناية وإن كانت مستحبة إلا أنها ليست قصداً مستغلاً
بذاته ، ولن يعيب الشعر — طالما لم يكن معقداً — تفسيره من ناحية
شعرية وبيان ظروف الشاعر وقت نظمه . فعقول القراء مهما سميت
تفاوت في الفهم والتفسير . وجميل أن ندرك المعاني الأصلية التي
يرمي اليها الشاعر على أتم وجوها لو استطعنا ذلك ، وأن نتخذ من
كل قصيدة بيانها وشروحها مجلس أنس أو ندوة حكمة ، فالأولى
بنا إذا أن نحث على نظم الشعر للشعر أولاً وآخرأ .

* * *

إلى هنا انتهت مادة مقدماتي الموجزة ، ولا أعد ما يلي — وإن
راعت فيه الإيجاز أيضاً — جزءاً منها ، وإنما هو بعض التطبيق ،
والشرح المستند من نظرات مكررة عجولة في صفحات هذا الديوان
شوقاً مني إلى اشراك القراء في طريقي الدراسية ، ومن عادة محب
الأدب أن يكون كالمبشر الديني شغفاً باجتذاب الناس إلى عقيدته
ومذهبه !

وسأراعي الاقتضاب ما أمكن ، مكثفياً بما يشحذ عقول الناشئة
من الادباء على الاختصاص لمتابعة نظرائي في الشرح والنقد وقراءة هذه
المجموعة الشعرية البليغة كما يجب في عرفي أن تقرأ . انتأمل أولاً
في مبادئ الشاعر نجد أنها مشبعة بالبرّ الانساني واعزاز الديمقراطية
والمساواة والحرية ، واعتبار خدمة الجنس البشري ديناً إلزامياً على كل
إنسان . ألم يقل لنا عن « أسمى العبادة » :

أسمى العبادة أن تفكر خاشعاً
في جنسك الساعي لنصر غداة
وتفان الماضي بحاضرك السادي
هو خطوة لغد قرين حياة
فكتر به واجعل له قربانه
ما طاب من علم وصدق صفات
أنت المدين لألف جيل سالف
بالرأي والتهذيب والחסنات !
وسواء افترض الخلود أم الفناء
فعلبك برّ مقدر ومؤثرات
فكتر بجنسك ، إنّ ذاك عبادة
أولى بقدرك يا حليف ممات !

ألم يقل أيضاً عن « إلهة الحرية » :
الشمس أنت بعمرها وبهرها
فاذا احتجبت فقد أضلّ بنوك !

والدين دينك لايجزأ جوهرأ
فاذا تجزأ ضاع بين شكوك !

ألم يقل قديماً عن « قوة الحق » :
من داس جيقّ ضعيف داس قوته
ومن يقله شجاعاً فهو خير بطل

ألم يقل عن « عماد الأمم - الحرية والاخلاق » :
ولم أر كالأخلاق مظهر أمّة
وجوهرها المحيي عزيز رجائها

ولا مبدع الأخلاق كالحرية التي
تغذي وتنمي من طهور غلائها
وما العقل والعرفان في الاسر قوة
إذا كانت الاخلاق صرعى بدائها

مقدس - إذا كرمتم مجداً لامة
ومضيتها - حرية لبنائها !

ومن أحسن شعره في التضامن القومي وقرار الحقوق الوطنية
قوله من قصيدته « يوم النشور » :

والحق أضيع ما يكون اذا نأى
عن نصره المتهاك المقدام
والشعب إن جهل الحياة وقدرها
هيهات ينصف حظّه الحكام

واذا تفكك في مقام تعاون
فعلى الكرامة والحقوق سلام !

وعزّز المساواة بقوله مخاطباً الأنسة منيرة ثابت :
وثرث فيها نعمت الثائرة على الخطط الرثّة الجائرة
فعيشي بجنسك يا آصرة مخلصّة ، وارفعي قداره
لواء المساواة أبهى منار !

وقال في قصيدته « عيد العمال » :
اليوم قدر الناس قدر كفاية
واليوم ان يطاء الزّمان عبيدا
أنتم بنو الشرف العظيم بنفعكم
للناس تبنون الوجود جديدا

وقال أيضاً :
والحكم شورى إن رأيت رسوخه
فهى الضميمة دائماً اقرار
والفرد والجبروت ليس كلاهما
الأ سلاله مظالم الأعصار
كالبوم يختار الظلام لعشه
فاقضوا على إشاره المختار
وطن (كوادي النيل) تضحك شمسه

ونجومه أولى بكلّ فخار
من أدلة العجز في التقدير والجهل بالموازنة الحقّة أن لايسع
ميدان الأدب في قطر من الاقطار أكثر من نابغة ، وهكذا

كان الحال عندنا في أواخر القرن الماضي ، حتى اذا ما سمت الثقافة وانتشر العلم صرنا ندرك انّ الشعراء تختلف اختلافاً كبيراً في مكوناتها واتجاهاتها ، وانّ صفات المشاركة بينها أقلّ من صفات الثباين والمخالفة . لهذا كان من حق البحث العلمي والنهضة الأدبية أن لانجاري المتقدمين في الموازنات الضّالة ، بل علينا أن نتأمل في مبلغ اندماج الشاعر في بيئته ، ومبلغ انعكاس صورتها في مرآة شعره . وأحسب أنّ هذا جلي محسوس في شعر أبي شادي . وفي هذا الموضوع يتفق رأيي ورأي الأديب الكبير الاستاذ اسماعيل بك مظهر ، كما يتفق في اعتبار الشعر الوجداني نافذة إلى نفس الشاعر نفصح دخالها مهما حاول سترها . قال الأديب الفاضل : « ان نفسية الشعراء نفسية مفضوحة في شعرهم ، بيئة في خطرات نفوسهم جليلة واضحة ، بل تكاد تكون ملموسة ، دون غيرها من نفسيات الناس . كنت أسير يوماً مع صديق أديب على شاطئ النيل ذات أصيل ، وقد فاض النهر في آخر شهر آب ، وانعكست على صفحته النحاسية أشعة الشمس الذهبية ، فوقف صديقي أمام النهر المتدفق المنساب في جوف الطبيعة انسياب الأمل العريض من نفس أمضتها الفراق ، وقد بهت من عظمة ما رأى ، فما لبث أن أخذ كتاباً كان معي وكتب على صفحته الاولى :

الله أنت وأنت الله يا (فيل)

منّي لشخصك تعظيم وتبجيل
يبدو جمالك ملء النفس قاطبة

فياخذ النفس تكبير وتهليل
ولم يك صاحبي من المشتغلين بصناعة النظم ، ولم أعرف عنه

اذنه شاعر ، بل هو ناثر من كبار النثرين ، وإن كان في نفسه نزعة إلى الشعر فانما هي نزعة تلوح ضئيلة بجانب ما فيه من حب البحث والاختبار وبعد ، فهل رأيت في خطاب ذلك الصديق إلى (النيل) كيف كشف عن نفسه وكيف جعل النيل في منزلة واحدة مع الله ، وكيف بدا جمال الطبيعة ملء نفسه ممثلاً في النيل وفي ذلك الظرف الذي فاصت فيه أشعة الشمس عند الأصيل على صفحة النهر النحاسية الجميلة بحق ، فأخذ ذلك الجمال على نفس الصديق أطرافها وملأ جوانبها ، فلم يترك في نفسه منه مكان خال ليسع أية فكرة أو معتد أو مذهب آخر ، سوى أن النيل إله القادر على كل شيء ، وأن وحدة الوجود الصوفية لم تترك في العالم من شيء عند شاعرنا الأديب إلا الله والنيل ، ولا شيء غيرهما ! وما من ربة في أن هذه الخطرة التي فاصت بها نفس الصديق في تلك الاونة قد فضحت سرائر نفسه وأظهرتها على حقيقة الكامنة دون مظهرها الخارجي ، فنمت عن أن تلك النفس لو حوطتها عقائد الوثنية لكانت أثبت فيها من كل ما خلق الله من صور الدين فوق هذه الأرض ! ولو أنك نظرت معي في ملامح صديقي وما ارتسم على وجهه من مظاهر الحب الشديد والعطف مشوباً بشيء من الانقباض والحيرة ، لاعتقدت بأن تلك الحيرة وذلك الانقباض لا يدلان على شيء ثابت دلالتهما على تنازع بين التقاليد الوراثة في النفس إذ تتناحر جادة في سبيل أن تملك كل منها أطراف النفس تحت تأثير ظرف من الظروف . وكأن الله ما خط على وجه ذلك الصديق مسحة من الحزن تراها نامة عن حقيقة نفسه بلا شعر حتى وبلا

حديث - على الرغم مما يلوح في كلامه وحركاته من مظاهر المزح والهزل - الا لينفضح سرّ نفسه وان أجهد نفسه في إخفائه . وما ان لاح على وجهه في تلك اللحظة التي أخذ يخاطب فيها النيل من شيء ، وما ان زاد على صفاته من صفة "الا" انفعال ممسوس "بكآبة شديدة" ازدادت معها مسحة ذلك الحزن العميق الذي خطته يد القدرة على حياّه على هذا النسق يدلّ الشعر ، دلالة صحيحة على حقيقة نفسية الشاعر ؛ فانّ الشعر هو الصوت الصارخ الخارج من أعماق النفس ، بل من أعماق أغوارها ليسبك في اللغة عنواناً حياً على النفسية التي بعثته من قرارة الوجدان إلى عالم الخطاب . ومهما يكن من تأثير روح العصر على الشعر والشعراء ، ومهما يكن من أمر حاجات الحياة وتأثيرها في الشعرية ، إذ تقبلها في بعض الأحيان إلى صناعة للنظم تبدو جليلة في المديح وغيره قضاءً لحاجات ما تحرّكت لها الشعرية ولا فتنت بها النفس ، فانّ الشاعر لن يفلت من يد القدر مطلقاً ، فلا بدّ من أن تعثر في شعره على خطرة أو مقطوعة قصيرة أو مناجاة يبعثها إلى الله أو إلى الطبيعة أو إلى شيء أو معنى مبهم قد يشعر به ولا يستطيع التعبير عنه ، ما تنم في الدنيا عن شيء الاّ عن دخيلة نفسه ، وعن نواتمها التي التّمت من حولها كلّ عناصر نفسه . إنّ أدلّ صور الشعر على نفسية الشاعر انما هو شعر الانفعال : الشعر الذي يبعثه انفعال خالص من النفس غير مشوب بشيء من حزم الارادة ولا روادع العقل ، ولا متكلف من ناحية الصناعة . فاذا أردت أن تبحث في مجموعة ما أخرج شاعرٌ من قصد لشتدلّ بشيء منها على نفسيته ، فاتما يجب عليك أن لاتعتمد التغلغل وراء

معانيه الخفية ، ولا أن تغوص وراء تشبيهاه ، بل يتعين عليك أن تبحث في أيّ المواضع من شعره بعث انفعاله وتجرد عن ارادته في ضبط معانيه ، وعري عن عقال عقله ليسير وراء ما يريد أن يخرج من معنى "معقود على غرض يريد الوصول اليه . واني لا تخيل ان هذه القاعدة لا تخطيء اذا أمكن تطبيقها بما يقتضي لذلك من الحيلة والحدس وطول الاناة والصبر على البحث وقوة الملاحظة » .

ولا أظن الناقد الأديب الدارس لشعر أبي شادي في حاجة إلى طول الاناة والصبر على البحث في فهم شاعريته ، فان من أسمى صفات شعره وجدانيته الكاشفة ، وان استدعى خياله الشروذ التأمل العميق أحيانا . فهو لا يخاف التمرير الصريح لعقيدته في شئ مظاهرها ، وليس للصناعة أو الرهبة أدنى لمحكّام في شعره . تقرأ ذلك في شعره التصوّفي ، كما تقرأه في شعره القومي ، وفي ميوله الوصفية ، وفي اجتماعياته ، وفي غزلياته ، وفي افتنائه بالجمال الطبيعي والانساني على السواء ، فتحكم أن هذه آثار نفس حرة وفيّة حساسة معتّدة بشعورها وصفائها ، تبغض الملق ولا تبالي بمجاراة الناس اذا لم يقرّها على ذلك حكم الضمير . فتسمع صاحبها ينشدك دون تردد عن « ضمير الخالق » :

قل لي هو الانسان في تفكيره
ولعلمه هذا الوجود وجودا
لم لأحسّ بأنّ روحي صورة
لضمير من شغفت به معبودا ؟ !
وأنا المقرّ بأنّ كلّ قطعة
مما أراه مجدداً ومعيدا

أفنى به حياً أحسّ بحكمه
ومتى قضيت فلن أموت شريداً !
إنني ضمير الخالق الموحى بما
أبقى أتابع نوره الممدودا
ويظلّ نوعي (١) حافظاً لوفائه
ومعبراً عنه هوى وخلودا !
ومن كان هذا رأيه الفلسفي في حكم الوجود لا تنكر عليه نسبة
قصيدته « المصلح الاثم » ، وفيها يقول : (٢)

(١) أي النوع الانساني .

(٢) من الأدباء من يغالون فينكرون أشد الإنكار حرية التفكير في مسألة كمسألة
الخلافة ، أو كمسألة اللباس الاسلامي وما شابه ذلك بينما يفوتهم الالتفات الى المسائل
الجوهرية الخطيرة كانشاء عصبة ديمقراطية حية للامم الاسلامية ، تتفق وروح العصر ،
ومنهم كذلك من لا يفهم الشعر التصوفي الفلسفي ، فيسيء تفسيره ، ويحسبه من الشعر
الاحادي ، ولكن الواقع ان الشاعر المتصوف فيلسوف باحث بينما الشاعر الملحد يجزم
عادة بمعتقداته ، وليس الجزم غالبا من الفلسفة في شيء ، لان العقل الانساني اصغر من أن
يحكم حكماً تقريرياً مأموناً في اسرار الكون العالية . ومن أمثلة الشعر الاحادي قول
الأستاذ معروف الرصافي في قصيدته « حقيقتي السلبية » (وقد نشرتها صحيفة « الحسام »
البيروتية) :

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| ولست من الذين يرون خيراً | بابقاء الحقيقة في الخفاء |
| ولا ممن يرى الأديان قامت | بوحى منزل للانبيا |
| ولكن هن وضع وابتدع | من العقلاء أرباب الدهاء ! |
| ولست من الالى وهموا وقالوا | بأن الروح تخرج للسماء |
| لأن الأرض تسبح في فضاء | وما تلك السماء سوى الفضاء |

والفرق ظاهر بين هذا الشعر وبين الشعر التصوفي المشرح بالفلسفة الروحية ، الذي يمتدح
صاحبه نفسه تلميذاً لم يحز من العلم إلا ذرات قليلة ، وان طلق العقائد البالية والتقاليد الوهمية ،

أنقذ جموع الغارقين بوجههم
 وابعث من العقل الحكيم سايلا
 وادفن خرافات توالى عصرها
 وانشر (الكوثر) للصالح زميلا
 فلقد سئمتنا طول عهد عبادة
 (ايزيس) خصتها (بمصر) طويلا
 حتى مضت دنيا الظنون ولم نزل
 للجهل أسرى لانروم بديلا
 وهذا مثال آخر من شعره التصوفي في تعريف « الله » جل
 شأنه :

هو ما تراه بكل حكم مدهش
 للكائنات وكل ما تلقاه
 هو جملة من قوة وعوامل
 بنت الوجود ولم تزل تخشاه
 وتظلل تبحث عن حقيقة كنهه
 وتظلل تجهل أصله ومناه
 والمرء أصغر من إحاطة عقله
 بأجل سرّ جلّ من أخفاه !
 وقد اشتهر شعره الفلسفي في الحياة والموت وكان مستمداً من الإلهام
 ومنبع الوحي لمن نظر نظراته من الشعراء .
 للصديق الأديب الشهير الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب
 مجلة (الزهراء) الغراء مبدأ جامع عظيم تمثل في قوله : « إن الناطقين

بالضاد لا تثبت لهم نهضة ما لم تكن قائمة على دعائتين : أحدهما المرونة في اقتباس ما في حضارات الأمم الأجنبية من وسائل القوة ونظم الإدارة ، وانصراف الفرد إلى التخصص بعمل يجد لتجويده والثانية الاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية ، وأوضاعنا الوطنية ، وسجاياتنا القومية ، ولساننا الغنيّ الأصيل . فعلى هاتين الدعائتين نستطيع أن نشيد الباب الذي ندخل منه إلى دور آخر من أدوار تاريخنا القومي ، حيث نجد الأفق واسعاً للكيان العربي الجديد ، وحيث يتاح لابنائنا القيام بنصيبهم من خدمة الحضارة العامة » . وشاعرنا من معززي هذا المبدأ في جملته كما تشهد بذلك آثار أدبه في (الزهراء) وفي غيرها من كبريات مجلاتنا وصحفنا ، ولا عبرة بمخالفته التفصيلية في بعض المسائل كمسألة الخلافة وغيرها من المسائل الثانوية في اعتباره ، أو بمحاربته لتقاليد الجُمُود ، وإنما أصل شعوره الصادق ما يندم عليه مثلاً قوله عن « ذكرى الحضارة العربية » مخاطباً الأمير شكيب أرسلان :

فالمراء بضعة ماضيه ، وحاضره

مرآة آتية من حظّ وإعناص

فلا تخف بأس الحاد فما برحت

جلالة الأمس أصل الفضل والبأس

جلالة خشع التاريخ حارسها

في معرض الوصف وضاء بنبراس

حضارة هي جمع من فنون على

للناهيين ، ومقباس لمقباس

كفت جميع بني الأعراب جامعةً
 على تباين أديانٍ واحساسٍ
 وما تجرد من دينٍ لنا نفرٌ
 إلاّ وللمجد دينٌ فوق مقياس !
 وصراحتة هذه المحبوبة ممثلةً أيضاً في شعره الغزلي ، بل في
 كلّ نوعٍ من أنواع شعره . ألم يقل لنا عن « أمتع الأنس » :
 تسألني عن أمتع الأنس لذةً
 وما الأنس حقاً غير ايناس غانيه !
 تنازلت طوعاً عن وعودٍ بجنةٍ
 لساعة صفوٍ منك بالصفو غاليه !
 وما الحور والوالدان في معرض الهوى
 وأنت منال اللذة المتناهيه ؟ !
 وحقّك كم جدّدت بالوصل مهجتي
 نعيماً ، وكم أضحت ببعذك فانيه !
 فكم بين شرائنا من عندهم الشجاعة الكافية لتقرير مثل هذا
 الشعور وإن أحسّوا به ؟ !
 وهو لم يستر هيامه بجمال المرأة ، وفيها أنشد قصيدته البديعة
 « الأنثى والمرأة » ، ومنها قوله :
 انظر لعينيها كما نظر السّما
 متبّـلٌ سأل المعزّ سؤالاً !
 وقوله أيضاً :

يا زينة الدنيا ومبعث نورها
عيشي لمن عشقوا سناك حلالا
غني لنا معنى الحياة فأنما
لولاك أصبحت الحياة خيالا !

وقد قال أحد الظرفاء إنه لو اتيح لمثل الدكتور أبي شادي أن
يستعرض حرّاً نوادر الجمال النسوي كلما أراد ازاد الشعر الغزلي
العربي سعةً وتأثماً لانعرفهما الآن ونلخص بكلّ انموذج ديواناً .. ! !
ووجه الجدلّ في هذه الملاحظة الفكاهية أنّ الشاعر الوجداني يجب
ان يكون خاطره وقلمه كلّهن المصوّر الناقد وريشته ، لا يفوته
استيعاب ما يراه من حسن ، ثم ترجمة أثره في نفسه بما يرتضيه
قننه .

واذا انتقلنا إلى الشعر الوصفي التحليلي فمن منا الذي لم يتأثر
ببيانه عن « جزع عاشقة في مرض حبيبها » حيث يصوّر آلامها
وآمالها أدقّ تصوير ، أو بقصيدته عن « أوراق الخريف » ، أو
« القلب الدامي » أو بقصيدته « عرس الأصيل » ، وغيرها ، وغيرها ؟
وما ظنّك بقوة التخيل التي تشدك هذه الانغام العذبة من
شرفة منزله المطلّ على البحر والترعة الاسماعيلية بثغر السويس :

غنى الأصيل فقامت أرقب عرسه
قبل التفرّق في المساء الذاتيّ
فاذا الاشعة راقصاتٌ مثلما
رقصت لتلعب بالقلوب غوان !

يتموَّج الماء الطُّروب وتزدهي
وثباتها عجباً على الأغصان
طوراً مدهشةً وآناً فضةً
وأعزها سحرٌ بسحر بيان
والتمر محمرٌّ ومصفرٌّ على
عالي النخيل كجمعهما الفتان
جمعت به الأضواء بعد تفرقٍ
وبدت به الجمرات حلو جمان !

أرأيت كيف تلاعب خياله بوصف هذه الأشعة في تنقلها
وشيوها واجتماعها ، وكيف صور لك التمر الأحمر والأصفر
كمجمع لأنواع من هذه الأشعة المنبثة في الطيف الشمسي ؟ ! -
كل ذلك بلفظ سهل جميل يعشقه الأديب وان تضمن الخيال
العلمي البعيد ...

وهناك مثال الجمع بين الخيال والوصف الفلسفي « لأوراق
الخريف » :

هل كان نثر غير ايمان بعير قد تقضى ؟
هل كنت الا رمز أحلامٍ نفضن اليوم نفضاً ؟
مصفرة - شأن الممات ، بحمرة تحكي النجيع
فكأنما قتلتك أحكام (الخريف) بلا شفيع !
يرثيك عقل الفيلسوف يراك لغزاً مدهلاً
العيش والموت المعجل والرجاء المقبل !

ومن خير نظرات الشعراء نظرتة الخلقية وشعوره بواجب
الشعر الكريم في بثّ الفضيلة لا عن ارهابٍ ولكن باعتبار انّ
الفضيلة والخلق المتين رأس مال الرقيّ الانساني خلقاً بالتعميم ،
فحين يحتقر الفضيلة يؤذي كرامته ومصالحه قبل أذى غيره ، فجاءت
خطراته الصادقة في هذا البحث من خير ما يزدان به الشعر العربي ،
وتراثاً أدبياً ثميناً للجيل الحاضر وللأبناء والاحفاد . خذ مثلاً أبياته
عن « التقدير الباقي » في إجلاله للنزاهة حيث يقول :

واذا الوداد دعا أصحاب الحفلة

أبست من الأنس الجميل نصيرا

واذا الخوى الموني فقد يوفي معاً

شرفٌ يزيد لربّه التقديرا

ما كان تقدير الرجال بمظهرٍ

حتى ولو كان الزمان ظهيرا

كلاً... ولا كان الكمال بشروة

لكنّه ملك النزيه كبيراً

إلى آخر هذه الأبيات القيمة . ومن هنا القبول وعلى سبيل
المقارنة أبياته في « عظمة انجلترا » وقصيدته « المدة الصعاب » وغيرها ،
دع عنك ما يتخلل متنوع شعره من أبيات خلقية تأتي لمناسبات
جميلة . وأجمل من كل ذلك أنّ ناظمها مؤمن بما يقول ويدعو اليه
وأول من يطبقه على نفسه ، فليس من زمرة من يقال لهم :

يا أيّها الرجال المعلن غير

هلاً لنفسك كان ذا التعايم ؟ !

وهذه القدوة الحسنة لما اعتبار " كبير " عند الادباء الناقدين في تقدير شعره الصادق .

وفي هذا الديوان الممتع من القصائد والمقاطع ما لا يدخل في هذه الأبواب ، ولكنه يمثل صوراً شتى من حياة العصر بين جد وفكاهة ، مثل قصائده « الطريد » و « رشفة ككثيل » و « راكبة الدراجة » و « أشعة الظلام » وغيرها . فإذا تدبرها القارئ بعناية الباحث الدارس كانت له منها لذة وفائدة غير قليلة .

ولا بد لي في نهاية هذا البيان من كلمة عن الأسلوب ومن ملاحظة عامة على أن عنايتي الأدبية بنشر هذا الديوان ليس معنا موافقتي على جميع آراء الشاعر فيما طرقة من موضوعات ، فقد اختلفت في بعضها مخالفة صريحة ، ولكن معناها تقرير شاعريته فحسب . إن أسلوب الأستاذ الدكتور أبي شادي يستعمل ما بين الرقة والجزالة والرفعة حسب مناسبات الموضوع الذي يطرقه ، وإن أسلوبه طوع شاعريته ، وليست شاعريته طوع أسلوبه ، وأنه من أقدر شعرائنا على المعارضة الشعرية وإن لم يعتمد موضوعاً ، وقد تأتي عفواً في ألفاظه . وله في ذلك آيات من الاعجاز تراها بالمقابلة ، فكأنما يلتذ أحياناً بأن يعطي مثلاً في تحلي الشاعرية السامية بلباس معين ، بينما قرين هذا اللباس على غيرها قد يكون عديم القيمة أو قليلها . ومن الغريب أن إبداعه هذا بدل أن يكون موضع التأمل والتقدير كان موضع الحسد والنقد من بعض المحافظين الذين يجهلون أو يتجاهلون أصول النقد الشعري في أعز أيام العربية وبين الغربيين في عصرنا الحاضر ، ويتناسون أن الأنماط النظمية والأوزان و

القوافي في العربية على الأخص .ملك قديم شائع" ، وانما العبرة بالمعاني ونور الشاعرية ، ولا يصير الشاعر الفحل اشتراكه مع غيره - عظمت ام صغرت مرتبته - في بعض الالفاظ بينهما المعاني مختلفة جدا الاختلاف ، وهذه براعة واقتدار على التفتن في الاستخدام لا ينكرها غير حسود . ويعجبني رد الشاعر على هذا النوع من النقد التافه بهذه الأبيات الشائقة الأبيّة الروح :

يا من توهّم لي شبيهه سراجـه

لم لاتضيء إذن بقوة نوري ؟ !

هوّن عليك فما المظاهر وحدها

تكفي ، وما المنان غير مهمير !

واعلم أخي أن المشاعر دفعها

للشعر كالتيار دفع قدير

فإذا تعلق سابح بملاذها

- وهي العظيمة - لم تقف لحقير !

إبدأ بالفاظ القريض مفنداً

قبل الغلو مفنداً تعبير

أو فاتخذ من جرأتي وتفنني

رغم اشتراك اللفظ علم خبير

خير لفكري أن تداس يراعتي

إن فات شعري الحرّ وحي ضميري !

هذا هو الشعر الفني : شعر الوجدان وشعر النهضة بأشرف مظاهره وأسمى مراميه .

حسن صالح الجداوي

الجيزة ١٩ يوليو سنة ١٩٢٦ .

الشعر والشاعر

بحث فلسفي

بقلم صاحب الديوان

تمهيد

قبل تناولي القلم لأخط هذه السطور ساءلت نفسي : « هل من جدوى ؟ » ونظرتُ من شرفة حجرتي الى الأمواج الضاحكة في هذا اليوم الجميل وسمعتُ عتابها الدائم وحديثها المسهم والناس عن نجواها وعن حديثها وعن إلهامها وبثها غافلون . . . فقلتُ في نفسي : « كلنا أبناء هذه (الطبيعة) الكريمة التي نحنُ بأبوتها وأمومتها المشتركة اليها كما نحنُ غالباً اليها ، وتحاول أن تتفاهم معنا فيُصغي اليها بعضنا وينجح بعض النجاح أو كله في مواقف ، بينما يبقى سرُّها بل وجهها لغزاً مكتوماً عنا كما كان عن الأجيال السالفة وكما سيبقى لأجيال طويلة . . . فمن برّ البنوة أن أحاول التخاطب معها والترجمة لبعض حديثها إقراراً بتقديري لها وعرفاناً لجمالها عليّ وإرشاداً لاختوتي في الجنسية والانسانية . أجل ، هذا فرضٌ على كل من يشعر بالقدرة على أدائه ، ولكنني لا أشعرُ بهذه القدرة وإنما أشعر بحنانٍ لا يردُّ نحو هذه الطبيعة الجميلة الرائعة ، وبحاجةٍ الى التعبير

عن هذا الحنان ، وعن بيان أسبابه ومبعث إلهامه . وقد انخفقُ في محاولة التعبير ، واكن عليَّ بأيِّ حال واجب أدائه . وقبلًا حاول بعض المجتهدين ترجمة (القرآن) الكريم حبًّا في نشر فضيلته وتعاليمه السامية فأخفقوا اجمالاً ومع ذلك أفادوا ، فليكن لي في أمثلة شجاعتهم وجهدهم عزاء ومشجعٌ . . . »

يمثل هذه المخاطر شجعتُ نفسي على تناول القلم الذي يجري مدادُه بهذه الكلمات . . . اني أوقن أن الكون في تحول مستمر ، وأن الفكر الاساسي في تبدُّل وتطور ، وان ما نراه حسناً الآن قد لا يَرْضَى عنه جيلٌ مقبلٌ كما أننا لم نرضَ عن كثير مما استحسنه أسلافنا ، ولكنَّ كلَّ هذا لا يعني أنَّ جهدنا عديمُ الجدوى ، ولن يُطالبنا العقل بأكثر من الوفاء لعصرنا الحاضر خاصةً ولجوهر الفكر الانساني عامةً . فلأقل اذنْ كلمتي هذه تلبيةً لدعوة صديقي الناشر حتى أتحمِل وحدي عيوب العجز الذي لم يتجرَّد عنه نظيمي .

ماهو الشعر

الشعرُ في رأيي هو تعبيرُ الحنان بين الحواس والطبيعة . هو لغةُ الجاذبية وان تنوعَ بيانيُّها . هو أوحديُّ الأصلِ في المنشأ والغاية وصبغاً وغزلاً ومداعبةً وثناءً ووعظاً وقصصاً وتمثيلاً وفلسفةً وتصويراً ، فان مبعثه التفاعلُ بين الحواس ومؤثرات الطبيعة ، وغايته العزاء والاحتماء بهذه الطبيعة ، وان تضمَّن أحياناً الغضب والسخط ، وما هو الا غضب الأطفال الصغار . . .

وقبـل يـجـوز أن نـعرّفـه مـادياً بأنه الجـرافيكُ لنـبض الحـياة وسـكونها
كنـظيره المسـجّل لدقـات القلب ، أو كـدليل البـيانو الاوتـوماتيكي تتـحول
سـطوره المثـقوبة الى فـغـمات ، وكـذلك الشـعـرُ يتـحوّل في النـفس الى
صـورة منـشئة من عـواطف وفـلسفة .

الحياةُ بأسرها مجموعة تفاعيل كـيماوية حـيرتـه متشـبّعة بالمـوجات
الكـهربائية المنتظمة ، والشـعر منظوماً كان أو مـثـوراً يـحوي جـرثومة
هذه الحـياة لانّ فيه ذُخـرَ الكـثير من أسـرارها ، وأكـثر طـربنا للشـعر
المنظوم لأنّه جامعٌ بين فلسفة الحـياة وطُرفٍ من تـمـوجاتها بأوزانه ،
فنحنُ بالغريزة اليه كما نـحنُ الى الموسـيقى الفـنية ، وكأن كليهما
صـورةٌ من حـياةٍ تـجـذبنا بـرونقها والهامـيها ، ونـحنُ الى غناء الطيور
المغرّدة حـنين الشـعرِ الى الشـعرِ !

الغرض من الشعر وتدوينه

الأصلُ في الشـعر كما قـدمتُ أن يـكون تعـبيراً غريزيا للتفاعل
ما بين حواس الانـسان والطـبيعة ولا يـزال لهذا الشـعر أمـثلةٌ جـميلة
تأتي عـفواً في أحاديثنا وكتابتنا ، وفي الشـعر المـرتـجـل
ينطقُ به اللسانُ على الفور أمام مشهدٍ مؤثّرٍ أو بدافع وجداني قويّ
ويسمى هذا الشـعر نـحـطاً بشـعر الالهـام ، وما هو الاّ شـعر الفـطرة الصـادقة ،
فما الالهـامُ سوى أثر الخـبرة والعرفان والمواهب في اللـذهـن ، ولا
شأن له بأعـجوبة ملكية أو شـيطانية ، ولا بالوحي المـزعوم .

ولمّا أحـلّ الانـسان بأسباب الحضارة أدرك تـدرجياً قـيـمة الشـعر
كعـاملٍ من عـوامل القـوة لما تـبينه من أثره الفـعال في النـفوس ،

فاستخدمه في مآرب شتى لخدمة الحياة اختلفت سمواً وانحطاطاً حسب الأجيال والأوساط والبيئات .

فأسمى ما بلغه الشعرُ أخيراً من غرض انما هو درسُ الحياة وتحليلها وبحشُها واذاعةُ خيرها ومكافحة شرها ، وهو غرضُ نبيلٌ جامع وإنْ تكيف بصور شتى ، فقد يظهر في لباس الانسانية العامة ، أو في لباس الجامعة القومية ، أو الجامعة الدينية أو غير ذلك . ومن المعقول ان يجمع بين لباسين فأكثر ، وأن يوفق ما بين تناقضهما الموهوم ، وأن يكون رسولَ السلام ونصيرَ الاصلاح والنهوض . هذا هو الغرضُ الأسمى الذي بلغه الشعرُ عامةً في جيلنا الحاضر في أرقى مواطنه ، ولن تجده قرينَ اللهو المحض فان وجدته فحاسبُ ظنك تَرَ أنه مبعثُ الفن الذي تحسبهُ لهوا ، أو معبرٌ عن إحدى العواطف الانسانية الدقيقة المحيرة أو فيلسوف باحث يلمس الحكمة ويفتش عنها في جميع مخابثها .

ولقد أصبح الشعر يعد أهم أركان الأدب اللباب ، ومنزلته من التمجيل مقترنة بغرضه الجليل ، فمن الأمانة أن لا نغفل هذا التعريف حينما نبث روح الشعر في نفوس المتأدبين ، حتى نحفظ للشعر مرتبته الممتازة ، وحتى نوجهه دائماً الى أشرف الغايات .

وقد عني الانسان بتدوين الشعر منذ استطاع التدوين وبحفظة وروايته قبل ذلك كما يحدثنا التاريخ ، ولو تأملنا لما أدهشنا هذه العناية اذا سلمنا بأن الشعر مثلٌ من الحياة وأنواعٌ من مقاييسها فهو قطع جذابةٌ من الانسانية الفكرية تغارُ عليها وتود لها البقاء بحكم الغريزة المقرونة بحبّ البقاء . ولذلك أعتقدُ أنه ما من شعرٍ يخاو منُ حسنٍ ،

وان جحود حسنات الشعر بحكم التحاسد والمناظرة عاطفة غير شريفة
وغير طبيعية ، وذلك اذا اعتبرنا ان من خير أحكام الطبيعة تشجيع
الصالح ونصرته والاعتراف برتبته .

صفات الشاعر

غيرُ مسعكثٍ في نظري اذا عُدَّ كلُّ شاعرٍ (بالمعنى الاكمل)
رسولاً في قومه . فالشاعر بفطرته — ولا مجالَ لفخرٍ بما هو من صنْعِ
الطبيعة — يجب أن يكون حساساً ، سريع التلبية ، يقدرُ مسؤوليته العامة
ويقومُ بأعبائها . وبدهي أن الطبعَ كثيراً ما يأتي من التطبيع كما يأتي
من الفطرة ، فخليقُ بالشاعر أن يكون أول ناقدٍ لنفسه وأن يزنَ بنفسه
حسناته وعيوبه ، وأن يكون المهذب الأول لمواهبه ووجدانه ، ثم يقوم
بأداء رسالته . وفي الحياة من شتى المقاصد المجدية ومن الأساليب
للدعوة والأداء ما يسعُ جهودَ الكثيرين ، وإنه لفقيرٌ ومسكينٌ ذلك
المجتمع الذي يُغنى بشعراء معدودين وتكسد فيه سوق الأدب عامة !

معقولٌ ان ينشدَ الشاعرَ العاملُ البصيرُ بمسؤولياته منزلة الشهرةِ
حتى يصغي الجمهور اليه ، فلا تذهب صيحته وجهده سدى ولكنه
غيرُ مشرفٍ وغير معقولٍ أن يتصدى لغيره ويحرمه من نظيرة هذه
الشهرة ، وليس من الأمانة في شيء أن يستغل هذه الشهرة — متى
بلغها — في سبيل مجده الشخصي الزائل ، بدل المجد الفني الخالد ،
كأنما يتوهم أن الموت سيخطئه ، أو أنه اسمى من ترجمان اذا ضاعت
أماته وزالت الثقة به تزعزعت منزلته ثم تهدمت . . . فتتبعُ ذلك —

للأسف الوافر - الاساءة للأدب نفسه ، باصغار الناس لمن كانوا
يتصدرون مجالسه من طلاب المجد الشخصي .

بيان الشاعر

إذا كان الشاعرُ رسولَ قومه حقاً فيجب عليه حتماً أن يكون
بمائه من بيانهم ، ومهما تأنق في تعبيره فيجب أن لا يرتفع صوته
عنه لا خاصتهم ولا عامتهم فتضيع مكانته ويخسر الأدب والمجتمع
فوق مستوى آذانهم ومداركهم ، ولا كان غريباً عنهم ، ولم يرض
بخسارته . على أن هذا لا يعني تحبيد العامية - وإن كانت لها حسنات
كثيرة لا تُنكر - وإنما يعني اجتناب التقعرِ وغريب التعابير التي لا
توافق ثقافتنا العصرية ، ولا تناسب أزمجتنا المصرية واستعمال
الفصحى السلسلة وتطعيمها بالمختار المصقول من مفرداتنا وتعابيرنا
القومية . ولست أشك في أنه كلما نُشر العلم كانت العربية السليمة
أقرب الى متناول الجمهور ، فنحافظ بذلك على ذخيرتنا الأدبية العظيمة
العربية الأصل ، دون أن نغفل مطالب قوميتنا الحاضرة ، ودون أن
نغالب جاذبية الأدب الأوربي . وهذه نظرة تشبه نظرة الأمريكيين
الى الأدب الانجليزي ، فلكل من الأمتين الانجليزية والأمريكية أدبها
الخاص ، بل طابع لغوي خاص ، ولكن الرابطة اللغوية العامة تحفظ
بها ، وميزتها موضع الاعتراف بها والحرص عليها . ولكل أمة من
الأمم الأوروبية لغتها الفصحى ولغتها العامية ، ومع ذلك فلم تعتبر
احداها من وسائل الثقافة هجر الفصحى الى العامية ، وإنما يرجع
الى العامية أحياناً لمؤازرة الفصحى اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وشتان
بين الحاليتين ، فالاولى تكاد تكون قطعاً لكل صلة بميراث الماضي

بينما الحالة الثانية لإحكام لروابط الماضي ، وضمانة للمستقبل الغني بميراثه المزدد . وتوجد حالة ثالثة هي في حكم العدم وهي محاولة الاكتفاء بذلك الميراث الفخم ، وان صغر في جانب علوم العصر الحاضر وآدابه ، وهي حالة لا تستحق الالتفات إليها لأن الفشل التام مقدر لها ، والذي يريد أن يقبر فكره ولغته في قرون الماضي انما يحكم على نفسه بالفناء ، ويعارض أقوى قانون في العالم وهو قانون التطور . أضف الى ذلك أن هذه النزعة تعارض كل المعارضة الفكرة القومية التي هي أجالى وأبهى مظاهر النهوض السياسي في القرن العشرين ، واذاً فهؤلاء السادة الرجعيون هم والمتجردون سواء ومسح احترامهم لحرية الرأي اصرح بأنني لا أرى الخير المأمول من أحد الفريقين ، ولن تطاوعني مبادئي في مشايعة أحدهما في تطرفه .

فالشاعر القومي — كيفما كانت عقيدته وملتته — محتم عليه أن لا يغفل الماضي وان لا يكون من المتجردين ، فان التجرد في نظري ليس من مستلزمات التطور أو التجديد ، بل قد يكون من أضداده .

ومن الحقائق التي لا يجوز انكارها ان الأدب العربي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين الاسلامي ، فالأمم العربية الاسلامية لا تستطيع أن تهدم الأدب العربي الصميم دون أن تسيء الى ذلك الدين الذي يعد (القرآن) الشريف في رأي تابعيه أكبر معجزاته . . . بيد ان الشاعر ليس إماماً دينياً ، وان كان من وجهة أخرى مطالباً في الشرق بأن يعتبر الدين من الشخصيات القومية لأمته ، فليس له أن يتعمد التعرض لهذا الدين باساءة لن يجني الأدب من ورائها خيراً . على أن هذا لا

يعني أن صبغ اللغة العربية بصبغة وطنية سواء في التعبير أو التصوير مما يسيء الى هذه اللغة أو يضعفها أو يجني عفواً أو عمداً على رابطتها الدينية طالما حافظنا على الأساس . وهذا هو اعتقادي في « تمصير » اللغة شعراً ونثراً بمختار المفردات ، مع المحافظة جهد الاستطاعة على شرف الديباجة العربية السليمة . وفي مثل هذا الاجتهاد خدمة قومية كما أنه لا يفقر اللغة ، بل على النقيض يغني مفرداتها وتراكيبها ، ويساعد على تمييز صنوف الشعر والنثر في أقطار شتى ، ومهما كانت ثروة اللغة فهيئات أن تستغني عن النساء المطرد من كل جيل تمر به .

ومثل هذا النشاط يستدعي تكوين أكاديميات أو مجامع لغوية في الأقطار العربية ، لها وحدة في مقاييس الترجمة والاشتقاق والابتداع والتنقيح والتهذيب حسب مقتضيات العصر ، ولها منزلة الأرشاد والجمع والنشر ، فيستفيد منها الشعراء والكتاب على السواء ، وتكون حكماً حكيماً بين التطرف الهادم وبين الجمود الميت . فتنع العبث بتراث الماضي المجيد ، وتشجع الحركة الرشيدة الانتاج المستمر ، وللاقتطاف من ثمار وأزهار المدنية العصرية ، ولا تعارض النهضات القومية .

والعادة أن يكون بيان الشاعر صورة لمزاجه وفكره ، وأن يكون أكثر الأدباء رغبة في الحرية ، فمن الحكمة إطلاق العنان له في حدود واسعة ولو خالف السماع والقياس أحياناً ، فان الشاعر الأمين الكبير النفس لن يسيء استعمال هذه الحرية في مرماء ، وكثيراً ما يكافيء ناصريه بكنز ثمين من تعبيره وتفكيره وخياله أكبر من أن يعد جزاء وفاقاً ، ومن لا يعرف من الأدباء حسن التصرف فانما يجني على أدبه الخاص قبل أن يجني على الأدب العام .

وقد يلام الشاعر المبدع على خياله الشرود ، وما الخيال الا دليل
من أدلة التهافت من النفس الشاعرة على الطبيعة الموجدة فلا تزال تتلمس
الصلة بها في كل شيء وتحاول التقريب بين عواملها ونتائجها المتباينة
في ظواهرها . بل قد يعد الخيال رابطة الوحدة بين عواطف الشاعر
والطبيعة ، ولذلك يصح أن يعرف الخيال بأنه من روح الشعر .

بهذا اليقين والشعور جرى قلبي أو تحرك لساني أو غمغت نفسي
ثم باحت بما في هذا الديوان من منظوم السطور ، وما هي بالاولى من
بنات وجداني الذي عرف النظم منذ الطفولة ، ولا هي بالبالغة بعض
ما أصبو اليه من خدمة فنية ، ولكني أرجو كذلك أن أكون موفقاً لاتباعها
بغيرها وبأصلح منها ، فلا تكون الأخيرة في بابها .

وقبل أن أختتم هذه الكلمة الوجيزة اود أن أصرح في غير تحفظ
ان الزمن الذي كان يفصل فيه ما بين العلم والحكمة والأدب قد مضى
وانقضى ، وأصبح الشعر في أجل مظاهره الديوان الرحيب الجامع لها ،
والعقيدة التي تتوحد فيها . هذا هو مذهب الذي أتم به ، وفي سبيله احاول
بين شواغلي الكثيرة - أن أنخطو الى الامام خطوات الايمان .

بور سعيد في ١٤ يوليو سنة ١٩٢٦

أحمد زكي أبو شادي

المصدر : ديوان الشفق الباكي المطبعة السلفية - القاهرة -
١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .

هدم الأدب وبنائوه

بقلم ناشر الديوان

تمهيد

لا أذكر أني كتبت فصلاً نقدياً نال استحساناً شبه جامع بين جمهرة
الادباء مثل فصل « الشعر مرآة عصره » الذي ذيلت به قصة (عبده بك) ،
وأحسب ان ذلك راجع إلى اهمية الموضوع ثم الى روح المقال ، فقد
كان مشبعاً بحب الأنصاف ، والى النهج العلمي المنطقي الذي لم أتحوّل
عنه قيد أنملة فيما كتبت والذي هو رائدي دائماً ورائد صديقي الشاعر .
ولكنني قدرت - كما قدر غيري من الأدباء المستقلين - ان المغرضين
ان يرضوا عنه ، وأنه لابد أن يتقدم أحدهم مسوقاً الى المغالطة ان
عاجلاً أو آجلاً . وهكذا كان القضاء الذي لا مرد له ،
فتقدم متبرقحاً أحد أذئاب شوقي بك بمقال مرذول كاله سماجة ومغالطة ،
ودفع به الى جريدة (الكشكول) التي يتردد على ادارتها يومياً شوقي
بك وأصحاب شوقي بك . . . ولا لوم على (الكشكول) الأغر في ذلك ،
فحرية النشر أمر محمود ، وتشجيع النقد الأدبي واجب صحفي شريف ،

طالما وجدت المساواة الصحفية في معاملة المتناظرين . أما اذا أتيح
النقد وان كان سخيلاً ، وحرّم الرد وان كان حكماً وأدباً فهذا هو
الغرض بعينه ، وهذا هو التعاون على التضييل ، وهذا هو حب الاساءة
والتشهير لغاية في النفس ، ونعوذ بالحق أن يكون هذا من النقد الأدبي
أو من الشهامة والفضل في شيء .

للعبرة والتاريخ

أما المقال الشوقي السالف الذكر فهذا هو بنصه وفصه ، وان كان
لا يستحق التشريف بنشره ، ولكن لا يخاف النقد كيفما كان إلا
العاجز العائر ، فحسبنا اذاً أن ننشره وأن نعلق عليه من عندياتنا ومن
ملاحظات شاعرنا الذي أعد من اكبر عيوبه مغالاته في حسن الظن
بالناس (١) ، ومن ملاحظات غيره من الأدباء الذين أسفوا لظهور
ذلك المقال ، وحسبنا أيضاً أن نسجله لفائدة المؤرخ الأدبي غداً ، حتى
يقدر كيف ان شاعراً كبيراً ذا منزلة معدودة مثل شوقي بك كان
مصاباً بمرض مزمن هو الحسد والغيرة حتى من أخلص محبيه ومعضديه
ومريديه ، وأنه ما كان يحتمل مودتهم متى ظهوروا ظهوراً في ميدان
الأدب بجانبه . . . ! قال كاتب المقال المتخفي ولعله « مولانا قدامة »
ذاته أو ابن عمه :

(١) راجع رده في مجلة (النهضة النسائية) - عدد صفر سنة
١٣٤٥ هـ . وفي جريدة (الكشكول) عدد ١٣ اغسطس سنة ١٩٢٦ م .

كتبنا الجديدة عبدك لصاحب التوقيع

قصة مصرية اجتماعية منظومة بقلم الدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور زكي أبو شادي هو نجل المرحوم أبو شادي بك . عرفناه لعشرين سنة شاباً يكتب مقالات في جريدة « الظاهر » في شؤون اجتماعية ووطنية جمعت في كتاب . ولنا ندرى أهو لا يزال معجباً بها كما كان يوم طبعها وأذاعها أم زالت عنه جدتها وصارت « روباكيا » يألف من الإشارة إليها إلى جانب مؤلفاته من نثر ونظم

ثم سافر إلى أكلترا فتعلم الطب . وعاد فقال لنا انه درس إلى جانب وظائف الأعضاء وخصائصها وأدواتها فن الذل . فهو اذن دكتور في الطب ، وأستاذ في اختيار الشهد المصفي . ورحم الله ابن حجة الحموي . . .

وبعد أن سكت سنوات طهر لنا شاعراً مكثراً . ينظم في كل موضوع ، ولكل مناسبة ، مفيضاً سهباً . فان لم يجد المناسبة خلقها ، وان لم يتمكن من خلقها أوجدها له جماعة من الأنصار والمحبين لا يقتنعون بأن يكون الدكتور شاعر الشباب والمجددين فحسب ، بل يريدونه شاعر مصر والدنيا والآخرة معاً .

وآخر ما جادت به قريحة الشاعر الدكتور النحال منظومة « عبدك بك » وهي كما وصفها أحد أنصاره :

« ... مبحث طلي في علل الزواج عقد له (عبدك بك) ثلاث زيجات : اثنتان مصريتان وواحدة أجنبية ، فشل في الأولى لسوء الاختيار ولنقص في تربية (منيرة) ولا سرافها

ونشوزها فطلقها بعدما استولدها غلاما . ثم وقع في شرك (ماري) بواسطة سماسرة السوء .
كلتا الواقعتين دلت على ضعف ارادة الزوج التعس .

« وحصل نفار وشقاق » فانهار بيت وجية كالاول ، لانه غير مدعم بمقومات
الاتلاف ، فهدمه الاختلاف .

« ثم أتاح له حسن حفظه زيجة ثالثة فكانت الأخيرة . وفي الحق انها كانت بلسمًا
لجروحه ، ومستقرًا لروحه ، فجم حيث نعم ما شاء الله أن ينعم » .

و « توته » توته فرغت الحدوته » ، ولكنها والله أعلم بعيدة عن صنف « الخواديت »
والروايات والأقاصيص والأقاصيص ، إذا أردنا مقارنتها بشيء من عالي القصص وسافلهما
وطيبتها وخبيثتها مما يتجلى فيه الفن أو لا يتجلى ، وما يكتبه القصاصون الأفرنج وكتابنا
الشباب .

أما كونها شعراً فليس فيها منه إلا القافية والروي ، وبضع أبيات مثورة هنا وهناك ،
يشفع في المحطاتها وابتدائها انها تصف الحقيقة ويدخلها شيء من حلاوة العبارة المصرية
كقوله :

| | |
|---------------------|-----------------------|
| حبي وحسبك مسعدا | سعي من (الحاجة حليلة) |
| فلها بكل ييوت (مصر) | علاقة الود القديمة |
| ويقال (مصر) كحلة | ومشاهها كالمعرفة |
| فلهما اطلاع واسع | ولها اختبار المعرفة |

ولكن إلى جانب هذا الوصف الطيب أبيات لا نعرف ان كانت عربية أو كردية نثرًا
أو نظماً مثل قوله :

| | |
|------------------------|-----------------------|
| لفدا (فريد) عبده | وكذا غدا هذا (فريد) |
| نسي الحس والاعلاص والـ | تفكير والنجح الأكيد |

وقوله :

لولا حبيب غائب لكن أعيد لوالد

والقصة كلها بصورها ونقوشها وحلاها مكتوبة مبرقشة في مالا يزيد على ٢٥ صفحة صغيرة . هذه لا تكفي أن تكون كتاباً . ولكن حسن أفندي صالح الجداوي « مطيب أبي شادي » أضاف أن تكون للقصة كتاباً فأصدرها كتاباً في ١٣٠ صفحة محيطاً القصة بمقدمات وتعليقات وشروحات دونها شرح « البيع » للأستاذ حلمي عيسى .

تبع مقدمة الجداوي المنشورة في ست صفحات أبان فيها كرامات الدكتور أبي شادي جاءنا « الكتاب العبثي المجدد الأستاذ عبد القادر عاشور » يفصل عنوانه « القصص في الأدب العربي » كانت « قفلة » : « للشاعر النابغ الأستاذ أحمد زكي أبي شادي فصل السبق في الشعر القصصي الاجتماعي الذي تهارب منه شعراؤنا مع انه من أروع الأمثلة لتمثيل المجتمع وانماشه » .

وبعد القصة فصل عنوانه « تحليل القصة » بقلم « الأديب المثقف والناقد المعروف الأستاذ عبد الله بكري » ففصل آخر عنوانه « نقد قدامة لشاعرية أبي شادي ، وآخر في « شاعرية أبي شادي وأمثلة القول الجامع بقلم الأستاذ عاشور » ملأه بنماذج من شعر الدكتور النحال . ومنها قوله :

ان الفواكه للمذاق شهية مثل الغناء إذا اشتهاه شعور

وكذلك الفردوس في أحلامنا وهم وغاية ما احتواه غرور

وقوله :

ومن وثبة الانسان حرية الحجا وما هان قوم في مدى البحث اخفقوا

وقوله :

المراة الحسن الأعز بحسنها من دام عاشقها أميت شهيدا

وقوله :

فكم يبصر الضدان في العيش مثلما تألف طير الغاب : شاد وأبكم

وربما كان أحسن ما في الكتاب فصله الختامي وهو « الشعر مرآة عصره » وقد تعرض فيه الكاتب لشعر شوقي بك فقال في نقده :

١ - ان شوقي بك ارستقراطي النزعة ، وقد تربى على الإخلاص للحكم المطلق .

٢ - انه لم يشارك جمهور الشعب مشاركة جدية في عواطفه ولم يشجع قوميته .

٣ - انه هادم للتعاون الأدبي ، ذو أنانية عظيمة

٤ - انه حبا في ليل تصفيق الاغلبية المحافظة كثير التعلق بالماضي ولو ناقض تربته وخالف ضميره .

٥ - انه غالباً لا ينصف عصره ، لا في تعبيره ولا في تفكيره .

ومع أن الكاتب قد رد إلى تأييد أية بشواهد من شعر شوقي فان أقواله لا تزال في حاجة إلى التمهيص .

هذه هي قصة « عبده بك » وحواشيها . وللغارئ بعد أن يقرأ هذه الخلاصة أن يحكم على المقصود من المجموعة وتحالف كتابها على اعلاء أنفسهم واشهار شاعرهم بالخط من مقام غيره .

« الفرا »

سياسة الهدم

فمن هذا المقال يستنتج القارئ ان كاتبه المنتكر :

(١) يحاول الحط من منزلة وشهرة الدكتور ابي شادي بتعريفه عن طريق نسبه الى قارئيه الذين هم في غنى عن ذلك التعريف ، بينما يناقض الناقد نفسه فيما بعد باقراره ان شاعرنا بلغ منزلة مذكورة من الشهرة لدى الجمهور .

(٢) يسخر من اولى آثار شاعرنا أو من منتجات طفولته . الأدبية (١٩٠٥ - ١٩٠٧ م .) في الوقت الذي كان أمثال الناقد بين البكم والصم الذين لا يفقهون ولا يستطيعون أن يخطوا حرفاً مما كتب . وقد صدق شاعرنا في قوله إن الأديب لا يسأل عن آثار طفولته الأدبية ولا يحاسب عليها ومع ذلك فانه لا يخجل منها ، وانما الذي يخجله أن يغدو يوماً لا قدر الله رجلاً حائراً متقلباً لا مبدأ له ، يدور مع الهوى وينصر الظلم ويبيع ذمته . . فنعمت الاجابة المفحمة في هذا الجواب لمن يسأله عن آثار قلمه وهو في منتصف العقد الثاني من عمره ويكاد متبجحاً يسأله أيضاً عن انشائه المدرسي . . . ! !

(٣) يهزأ بدراسة شاعرنا للأبطلطوريا (علم تربية النحل) ويصفه « بالدكتور النحال » ، ولكن جاهلاً أمياً مثل استاذنا الناقد معذور

إذا لم يعلم ان كبلنج شاعر الامبراطورية الانجليزية شاعر نحال ، وان ماترلنك شاعر بلجيكا العظيم نحال أيضاً ، وان بوانكاريه رئيس وزراء فرنسا حالياً ورئيس جمهوريتها سابقاً نحال كذلك ، وان عما نوئيل ملك البرتغال السابق مثلهم ، وان غيرهم وغيرهم — من كبار رجال الغرب ونبائه — من محبي الطبيعة ودارسي حشرات ونباتها ولهم ولع شديد بذلك ، وان علم الابلطوريا من أشق العلوم ومن أعظمها ثمرة اقتصادياً وتهديبياً ، وان المتضلعين منه موضع الاحترام في الدوائر العلمية الغربية ، وان شاعرنا ذو منزلة ممتازة في هذا العلم يحق لنا أن نفاخر بها من وجهة قومية ، — فقد كان المؤسس لنادي النحل الدولي المعروف باسم The Apis Club ، وانشأ مجلة عالم النحل The Bee World التي لبث يتولى رئاسة تحريرها سبع سنوات بالانجليزية ، وكان أحد أعضاء اللجنة الاستشارية لوزارة الزراعة الانجليزية .

(٤) يهزأ به مغالطاً وعامداً الى النكتة العامة القبيحة فيشير الى دراسة « وظائف الأعضاء وخصائصها » ، ومثل هذه الاشارة لا يجوز توجيهها لرجل نقي الاخلاق كريم النفس مثل الدكتور أبي شادي ، وان جاز لحضرة الناقد أن يوجهها الى المصدر الذي يستوحيه عندما يكتب ذلك الهلر . . . فهو يعلم علمي ان الدكتور أبا شادي اختص بعلم الميكروبات أو البكتريولوجيا ، وله نبوغ حق فيه ، فهو يحمل جائزتين وشهادتي شرف في هذا العلم من جامعة لندن ، ومضى عليه

في اختصاصه به أحد عشر عاماً. بل أكثر ، تقلب اثناءها في وظائف ذوات مسؤولية خطيرة ، وكان أحد البكتريولوجيين بمعهد مستشفى سانت جورج بلندن وأحد المعيدين لطلبته ، وكان معمله الخاص بايلنج في لندرة ، وكان بمعهد الهيجين بمصر ، ثم مديراً لمعمل الحكومة بالسويس متحماً مسؤولية كبرى في مراقبة ومنع الكوليرا ، وهو الآن مدير لمعمل الحكومة ببور سعيد شاغلاً مركزاً فنياً لا يستهان به علمياً وقومياً .

(٥) ادعى لائماً ان شاعرنا سكت سنوات كثيرة ، وهذه مغالطة ، فالدكتور أبو شادي معروف منذ نشأته بنشاطه الجهم ، ولو شئنا أن نغفل المفقود من آثاره الأدبية أثناء وبسبب اغترابه عن وطنه لما جاز لنا أن ننسى مراسلته « للمؤيد » « فالشعب » « فالأمالي » وغيرها من كبريات صحفنا ، دع عنك آثاره في مجلات شتى في مصر وفي صحف انجلترا ، ومجوده القلمي السياسي — ظاهراً ومستتراً — مما لا يجهله رجال القلم وأئمة السياسة في مصر ، حتى كاد ينفي من انجلترا ، وقيد اسمه في قلم المراقبين السياسيين ببوليس لندرة (اسكتلند يارد) ، وكان سكرتيراً (للنادي المصري) بلندرة ، وسكرتيراً (لجمعية ترقية آداب اللغة العربية) بها . فهذا النشاط الدائم لا يمكن أن يوصم عدلاً بالتقصير ، اذا لم يتخذ مضرب الأمثال في الغيرة الأدبية والقومية والنزاهة الخلقية المثينة . ولكن ألم يقل قديماً الشاعر الحكيم :

واذا أراد الله نشر فضيلة

طويت أتاح لها لسان حنود ؟!

(٦) زعم أن أنصار الشاعر ومحبيه « لا يثقون بأن يكون شاعر الشباب والمجددين فحسب ، بل يريدونه شاعر مصر والدنيا والآخرة معاً » . وهذا مدح في قالب ذم لو أدرك حضرة الناقد القادح . فليس هؤلاء الأنصار والمحبون على درجة من الباه لا تسمح لهم بأن يفقهوا مواهب الشاعر ووجوب استغلالها لنصرة الأذنب . وهذا سعي حميد لا يستحقون لوماً عليه الا من الاناني الحسود .

(٧) ذكر في معرض النقد ان الدكتور ابا شادي « ينظم في كل موضوع ، ولكل مناسبة ، مفيضاً مسهباً ، فان لم يجد المناسبة خلقتها ، وان لم يتمكن من خلقتها أو جدها له جماعة من الأنصار والمحبين الخ » . ولا أدري متى كان الانتاج معيباً ، ولا وجه اللوم في ذلك ، لا سيما وللشاعر من ظروفه الخاصة ما يبرر هذا الأكثار . . . ؟ ! وهل نضمن دوام انتاجه أو طول حياته (مدحا الله) حتى نحاول اخماد شاعريته في شبابه ؟ ! وهل جهل حضرة الناقد ان الشعر المنظوم أقرب الى جنان وبنان هذا الشاعر المطبوع من منشور القول ، وان مجموع ما نشر له — ولا أستثني هذا الديوان — لا يتعدى جزءاً من نظيمه ؟ فذهنبه اذاً مفطور على الشعر ، وشاعريته في المقام الأول بين مشاهير شعراء العصر في العالم العربي . وهو في غني تام عن انتهاز المناسبات ، ولا اغالي اذا قلت عن علم وخبرة انه أطيع شعرائنا ، وأن الشعر بروحه وريحانه ، ولولا حياته لارتجله ارتجالاً في المجالس ، كما يفعل أحياناً بين خاصة أصدقائه .

(٨) حاول أن يصغر من قدر قصة (عبده بك) :

أولاً — من وجهة موضوعها كأنما لا يرضيه الا الموضوع المعقد وكأنما نسي ان السيرة الطويلة — كسيرة نابليون مثلاً — يمكن تلخيصها في سطرين أو ثلاثة ، فليس التلخيص الوجيز اذن دليلاً على الحقارة حتماً وكان الواجب عليه أن ينقد الموضوع ذاته ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك ، فحاول الأصغار من شأنه بالمغالطة ، بدل الدليل الفني والنقد التحليلي المقبول ، لو كان ذلك في طاقته . . .

ثانياً — من وجهة الأسلوب فقال : « . . . ولكنها والله أعلم بعيدة عن صنف الحوادث والروايات والاقاصيص والاقصصيات اذا أردنا مقارنتها بشيء من عالي القصص وسافلهما وطبيها وخبيثها مما يتجلى فيه الفن أو لا يتجلى ، وما يكتبه القصاصون الا فرنج وكتابنا الشباب » . . . وهذا نقد مبهم ، أقل ما يقال فيه إنه هذيان في هذيان ولو أن فيه مدحاً للشاعر من حيث لا يشعر حضرة الناقد فهو يعترف بان شاعرنا مبتدع لاسلوب جديد ، ولكنه لم يقل لنا في صراحة ومنطق ما عيوب هذا الأسلوب بالتحليل والمقارنة ، حتى كنا نستفيد حقاً من نقده . وهذا عجز منه نسجله عليه .

ثالثاً — من وجهة شاعرية الشاعر حيث ادعى أنه « ليس فيها الا القافية والروي وبضعة أبيات منثورة هنا وهناك يشفع في انحطاطها وابتذالها أنها تصف الحقيقة ويدخلها شيء من حلاوة العبارة المصرية » . . . ثم خانه القلم بالحق بعد استشهاده ، فقال عما نقله أنه « وصف طيب » . . . ! ! وقصيدة الدكتور كما لا يخفى على القاريء مصبوبة صباً ومتجردة من القافية الواحدة ، وكلها تحليل لأخلاق وشخصيات ،

ووصف لحوادث وعادات وأمراض اجتماعية ، وملؤها المواعظ والاستنتاجات الفلسفية الجميلة ، والتشاييه والنكات المستملحة ، فلن تجد فيها بيتاً يمكن الاستغناء عنه ، لأنها وحدة تامة متماسكة أشد التماسك . وقد أجهد حضرة الناقد نفسه اجتهاداً فأخرج أربعة أبيات لم يرض عنها ، فكان هذا مغالطة عجيبة منه لأنها أبيات صلة لا يمكن القدح فيها الا كما يتدح المغرض في مظهر أحجار قليلة في بستان شائق . وهذه الأبيات سليمة النظم ، وفي مواضعها من أنسب وألطف ما ينظم ، ومثال الايجاز البديع . ولو أنصف الناقد لتحديث عن قوة التحليل الذي امتاز بها نظم شاعرنا المبدع ، وعن محافظته التامة على العلاقة بين أسباب ونتائج قصته ، وعن اقتداره في الجمع بين الايجاز والاسهاب حيث يشاء .

رابعاً — من وجهة الديباجة ، كأنما لا يدرك حضرته أن المقصود بهذه التصة البليغة الذبوع فالاصلاح ، وأنها لو كانت في ديباجة (عمرية) حافظ بك ابراهيم مثلاً لجاءت مثلاً للسخف ومثلاً مستهجننا لوضع الشيء في غير موضعه ومخالفة تواعد البلاغة . وقد صدق شاعرنا في قوله أنه لو طأوعه قلمه على كتابتها بالعامية لما توانى عن ذلك . وفي رأيي أن اسلوبها هو من السهل الممتنع ، تحسبه ثباتاً وما هو الا شعر منظوم ، كما قال الأستاذ عبد الله بكري . وما أنسب قول شاعرنا في هذا المقام :

ما الشعر ألفاظ ترص وإنما

الشعر عواطف الشعراء

وأنا المطالب بالوفاء لبيثي
أما الجنيب فان ينال وفائي

دياجتي من نور عصر سره
ففي الكهرياء أراه لا البطحاء

خامساً - من وجهة المحجم ، فادعى - أرشده الله - أنها ضئيلة الحجم ،
متناسياً أنها رغم ايجازها المدهش واقعة في اثنين وسبعين ومائتين من
الآيات ، واني تعمدت الاقتصاد فيما شغلته من فراغ فأثرت باستعمال
حروف دقيقة ولم أجزي الآيات ، ولولا ذلك أوقعت القصيدة في
أكثر من ضعف حجمها في الكتاب . وما كان هذا الاقتصاد الكلي الا
لأجد فراغاً كافياً لمباحث الكتاب الأخرى ، مما دلّني تجربتي الماضية
على رضا جمهوره الأدباء عنها . ولكن حضرة الناقد المفضل تعمّد
أن يعكس الحقائق عكساً تاماً ، كأنما يتصور - سبحانه الله - انه ليس
بين قارئيه من لهم عقول تقيس وتفهم ثم تحكم ! !

(٩) سخر من الاستاذين الأديبين الفاضلين عبد الله بكري وعبد
القادر عاشور ، ولكن انكرة مثاه معذور في ذلك ، كما أنه يعذر اذا
لم يفهم أن النقد اذا تشبع بالتهكم والسخر والمغالطة فقد صفة النقد
الأدبي ، وأصبح كتابه ذاته موضع السخر ، فليس السخر والتهكم
نوفاً من المداعبة المقبولة ، ولا أدري كيف يسخر حضرته ممن كان
ناقداً أدبياً لصحيفة مشهورة ، ومن أحد علماء الأدب
ومدرسيه ، بينما هما في منزلة الاجلال بين الاساتذة ، ان كان لثله
أساتذة ! !

(١٠) عرض من غير تعليق أبياتاً قليلة من شعر الشاعر ولم يجرؤ على تحايلها أو نقدها ، وإن أشار لسان حاله إلى هذه الرغبة من قبله . . . فمرحى به من ناقد همام لا رأي له ولا شجاعة ! !

(١١) أشار في عجز تام إلى نقدي المستقل لشاعرية شوقي بك دون أن يظهر خطئي في موضع ما ، فاكتمى بادعائه أن أقوالي « لا تزال في حاجة إلى التمهيد » . . . ووصفني بأنني « مطيب أبي شادي » اصغاراً لمهنة الأدب وللتعاون الأدبي ، وبعد ذلك يتظاهر أنه من أنصار الأدب وحماته . . . ! !

(١٢) ختم رسالته بعد مغالطاته الكثيرة بهذا الاتهام العجيب . . . » وللقاريء بعد أن يقرأ هذه الخلاصة أن يحكم على المقصود من المجموعة وتحالف كتابها على اعلاء أنفسهم واشهار شاعرهم بالخطأ من مقام غيره . . . ومعروف أنه لا بد لكل حكم معقول من حشيات ، ولكن صاحبنا لم يأت بحشيتة واحدة ، فكتاب (عبده بك) كله تقدير لادبائنا ، وتشجيع على خدمة الأدب ، حتى نقدي لشوقي بك فإنه ممتلي بالتقدير الكبير لمواهبه الأدبية التي لا ينكرها منصف ، وبمحاولة توجيهه شطر التعاون الأدبي وقيادة المجددين من الأدباء ان استطاع بعد أن ظل معدوداً أمير المحافظين من الشعراء زمناً طويلاً . فحكم حضرة الناقد اذن حكم مغرض لا يراد به الا التشويش والمخاط والتضليل ونكران الحقيقة الناصبة التي يعلمها جميع الأدباء ، وهي أن الدكتور أبا شادي يمثل الغيرة الأدبية أشرف تمثيل ، وهو عنوان البر بالأدب والادباء ، ومثال التعاون الجميل . فلماذا قلب حضرة الناقد هذه الحقيقة الناصبة المشهورة قلباً تاماً ؟ لقد سبق الأجواب وسيأتي الشرح . .

* * *

لولا علمي بما وراء هذه الحملة الموجهة الى الدكتور أبي شادي
والى الأدب الجديد في نأخص الناصر الممثل لأنصاره ومريديه لما
حُفَّت بها ، لانها في ذاتها حقيرة لا تستحق غير الازدراء بها .
ولكنها أقوى حجة وجهت الى هذه بل الى هدم الأدب الحديث
استبقاء لتفوذ شوقي بلا الذي لا يؤازر إلا من يتملقون اليه من الذكرات ،
فان عرف أحدهم فيما بعد أسرع شوقي بلا للثكر له . . . ! ! وهكذا
شاعت الأقدار لسوء حظ الأدب المصري أن يكون أحد الأكابر من
شعرائنا - وهو شوقي بلا - في مقدمة هادمي الأدب استبقاء لمجده
الشخصي ، فهو يبني من جهة ويهدم من جهات ! !

أولئك شوقي بلا أن يتم العقد السادس من عمره (حيث ولد
سنة ١٨٦٦ م) بينما الدكتور أبو شادي في منتصف العقد الرابع
(فقد ولد سنة ١٨٩٢ م) فالفارق بينها ربع قرن من الزمان . فهل
يريد الحزب الشوقي رغم هذا الفرق بينهما في السن (دع عنك
نعمة شوقي وراحته) شيئاً من المقارنة تخفيفاً من غلوائهم ومكابرتهم ؟
إذن فليقرؤا . . . وليتشجعوا قليلاً فيتعجبوا الولوات والادعاء بأننا
نتحامل عليهم حينما نكتفي ببرد سهامهم الطائفة في شرف وكرامة . . .

أثر البيئة

نشأ الدكتور أبو شادي في بيئة أدب وعلم وترعرع فيها ، فهي
بيئة الصحافة وبيئة الكتاب والشعراء ، فضلاً عن الوسط العائلي الأدبي ،
ثم انتقل الى خير الأوساط العلمية الإنجليزية . وهذه البيئات المهيبة
المثقفة قلما اتاحت لأديب مصري من قبل ، لاسيما وقد كانت متشعبة
بروح الحرية والاباء ، مما طبعه بطابع الديمقراطية وعزة النفس .

وهذا من الأسباب القوية التي تجعلنا معشر الشباب الأحرار نعلق آمالا
كبارة على مستقبله وعلى تأثيره الأدبي في المجتمع المصري .

وأما شوقي بك فقد نشأ في وسط ارسقراطي متقلب ، فانطبع
بطابعه ولم ينفعه التعليم الاوروبي ، وخذع الأدباء بوعوده الجميلة
التي نسقها في مقدمة الطبعة الاولى من ديوانه الجامع لشعره من سنة
١٨٨٨ م الى ١٩٠٨ م ، فلم يبالوا بمتابعة احدى الصحف في وصفه
« بشاعر الأمير وأمير الشعر » - من قبيل المغالاة في المجاملة الشرقية
المألوفة في ذلك الوقت - نعم لم يبالوا بذلك في الوقت الذي انتظروا
المخير على يديه للأدب والادباء ، ولكن فطرة شوقي بك المادية وأنايته
أخذت تتغلب عليه ونسي وعوده الطيبة (١) وحارب كل أديب نابه
من محافظ الى محرم الى الكاشف الى نسيم الى غيرهم ، وكان اخوانه
الشعراء يغفرون له هذه الخطيئات ، ويضعف لديهم صنائعه بماله من
حسنات أدبية ، واستمر الحال على هذا المنوال الى أن بلغ السيل الزبى
في السنوات الأخيرة بتقلباته الدميعة ، حتى جعل أدبنا أضحوكة
مبهكية لمجرد زهوه وحبه للظهور وغروره الكبير (٢) ! !

(١) راجع ما كتبه الاستاذ السندوبي في جريدته (الثمرات) - يوليو سنة ١٩٢٦ م
وقارنه بما كتبه شوقي بك في مقدمة الطبعة الاولى (للشوقيات) .

(٢) اعترف شوقي بك بتشجيع فخر الأدب العربي خليل بك مطران له وفضله
عليه ذلك الفضل الذي نعلم جميعاً أنه لم يبدله حتى ابعاد شوقي بك عن مصر ، فقال في
مقدمة الطبعة الاولى من (الشوقيات) : « وهنا لا يسعني الا الثناء ، على صديقي
خليل مطران صاحب المنن على الأدب ، والمؤلف بين أسلوب الافرنج في نظم الشعر
وبين نهج العرب » . واعترف بفضل حافظ بك ابراهيم فقال :

قالوا حبيب أنت تطري شعره
من ذا الذي لم يطر شعر (حبيب) ؟

المبادئ والأخلاق

قلنا إن الدكتور أبا شادي رجل ديمقراطي بتربيته وهو كذلك
بفطرته ، ويعزز شهادتي هذه كل من عاشره من الادباء وكل من
جالسه ، دع عنك لسان شعره الحر ، وهو وفي لمبادئه أتم الوفاء ، فلم
يبدل منها الاغتراب ولا تقلب الظروف السياسية .

وأما شوقي بك فلا أعلم أن له مبادئ أو شبه مبادئ ثابتة ، ولا
وفاء لبيئته الاولى ، ولا التقدير الباقي لولي نعمته التي ما يزال يرتع
في بحبوحتها .

والدكتور أبو شادي رجل كريم قولاً وفعلاً ، وشوقي بك
رجل بخيل ، ولا أحب أن أتوسع في المقارنة بهذه النقطة

= من كان في ريب فذا ديوانه
راح العقول وكأس كل اديب
أوعى (لأحمد) و (الوليد) كليهما
شم المديح ورقة التشبيب
كم فيه من مثل يسير وحكمه
تبقى على الدنيا بقاء (عسيب)
يا (حافظ) الآداب والبطل الذي
يرجى ليوم في البلاد عصيب
قل لئلا خصوا السلاية بالهوى
مقنونة أو غير ذات ثقبوب
لا تسألوا الاصناف ماذا اودعت
في هذه الاوراق كل عجب

ثم غلبت عليه الغيرة منها ، وأعمته الماديات ، فاذا به لا يهتأ له عيش الآن بغير
انقاص أصغر الكتاب والصحف المجاملة له من قدريهما وأدبهما العظيم ، ولم تكفه دسائسه
الاولى في حياة صديقه سفير فصارت مناه الآن ان لا تسع مصر بل الشرق العربي بأجمعه
شاعرا غيره !

والنما حسبي أن أقول إن جلال المبادئ ومكارم الأخلاق تترك
في الشعر حياة لا تفنى ، وهذا عامل آخر يدفعنا معشر الشباب
الى التأمل الكثير من عبقرية شاعرنا الناهض الأمين الكبير النفس .

قوة الشاعرية

إذا قارنا بين شعر شوقي بك في العشرين من عمره (أي سنة
١٨٨٨ م) رغم تنقيحه له فيما بعد ، وبين شعر الدكتور أبي شادي في
مقابل ذلك العمر - بل فيما دون ذلك العمر بسنوات خمس - فأنا
نجد لشاعرنا قوة نفسية وأدبية فوق منال شوقي بك الفتى . وأما عن
شوقي بك في طفولته الأدبية فقد كان شعره هذراً في هذر وسخفاً
عجيباً لا يزال حديث المسامرة في المجالس الأدبية إذا ما ذكرت طفولة
الادباء ، وقد اعترف شوقي بك ذاته بذلك مضطراً حتى يحبس السنة
نقاده في أيام شبابه فقال : « على أن ما جمع في (الشوقيات) ثم طبع
ليس هو كل ما قيل فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن في
الزمن الأخير ، فأما ما اسقط عمداً فأكثره من قولي في زمن الصبا الذي
لا يؤمن فيه على المرء الغرور ، ولا يسلك الفتى فيه سبيلاً إلا وهو مضلل
عثور . وقد خشيت أن يقع مثل ذلك في أيدي الناشئة فأسأل عن سوء
وقعه ويكون إثمه أكبر من نفعه . . . » الخ ، بينما السبب الحقيقي
هو قبح ما اضطر الى اغفاله ، لأن من يسمح في هذه الأيام للشركة
المصرية البريطانية بائعة الوسكي بأن تتخذ شعره وسيلة للإعلان عن

بضاعتها (١) ولا فهم الناشئ أن نبوغ شوقي بك الأدبي ينتسب إلى
الويسكي - من يسمح بهذه الجناية الخلقية لاهياً عابثاً لا يصدق عنه هذا
التعطف الذي يتحدث عنه في شبابه الأول . . . ! !

قال شوقي بك في العشرين من عمره متغزلاً .

وبدا يمس فلاح لي قمر على
غصن رطيب بالمحاسن مثمر
رشاً اذا هز النسيم قوامه
أزرى بغصن البانة المتخضر
متمايل الأعطاف ، ورد خدوده
يغني المحب عن الشقيق الأحمر

فوضع لك « البدر » على « الغصن » وتحدث عن « البانة » و
« الشقيق الأحمر » ونحو ذلك من السخف الذي يقال لنا الآن انه كان
تجديداً عظيماً في الشعر العربي ! أما الدكتور أبو شادي فقال لنا في
الرابعة عشر ، وهو من شعر طفولته الأدبية الذي يحاول الشوقيون
تعتاً أن يعرضوه على محك النقد بل في معرض التحامل الذميم :

لولا المحبة ما تحرك شاعر
ولما غدا حول السماك يطير
ولما رأينا للكمكارم دولة
ولما نظرنا لكون وهو خطير

(١) راجع الصفحة الثانية من جريدة (السياسة) الصادرة بتاريخ ١٦ أغسطس سنة
١٩٢٦ تجد فيها أحدث اعلان من هذا النوع اطلعنا عليه بعد كتابة هذا المقال ووقت
تصحيحه قبل الطبع .

فاعجب لضعف قوة في ذاته
 يسدح الحياة نني له وتمــــــــور
 وقال في العشرين باكياً هواه وشبابه الدابل :
 أسفني على عهد الشباب المنقضي
 بجلال نعمته وحق زفيري
 ودعته وحسرت آمال الهدى
 فشقيت الا من لقاء ضميري
 وأنا الشفيق على الجمال وان قست
 وجنت محبته إزاء مصيري
 وقال شوقي بك في الثلاثين من عمره يصف منظر طلوع البدر
 في البحر من أعلى السفينة وهي تجري - وهذه القصيدة من أحسن
 شعره الوصفي في شبابه :
 ملئت السماء بهرت في الأنوار
 ففــــــــداك كل متوج من سار
 لما طلعت على المياه تنيها
 سكنت وقد كانت بغير قرار
 وزهت لناظرها السماء وقرها
 في البحر من عيب ومن تيار
 وأهل لله السراة وأزلفوا
 لك في الكمال تحية الأكرار
 وتأمـلوك فكل جارحة لهم
 عين تسامر نورها وتساري
 والبدر منك على العوالم يجتلي
 بشر الوجه وزحمة الأبصار
 نظرية الشعر ج ٤ م ٥

متقاسم في النور محبوب به
موقوف على الآفاق بالأسفار

الى آخر هذا الوصف المستملح . ومع هذه الاجادة فقارنه بشعر
الدكتور أبي شادي في الخامسة والعشرين يصف سقوط الجليد في
انجلترا من قصيدة طويلة فريدة بأخيلتها وجمالها :

انظر مفاخر أنجم وبدور
جعلت مطالعها بأبهج دور
سلبت عقول أولي النهي وأولي الهدى
من لم تتيمهم ذوات خدور
هذا الجمال لعابد متبتل
جذبت روائعه أرق شعور
هذا التعيم لكل من يعنى به
ولكل ذي لب وكل شكور
هذا الكتاب لباحث أو واهف
أو ناقش أو عازف مسرور
آيات إعجاز تجلت للورى
والليل حائطها بأمتن سور
في كل تافهة وكل جليلة
آثار وجدان أجل كبير
هذي مظاهر كل فن شائق
منها استعار الفن كل خبير

فاز الثرى منها بكنز لآليء
 وحلبي أقمار ونفـيح عبير
 وزهت بزخرفها السماء فأمرت
 من عندها المنفوش والمنثور
 نشرت لواء السلم أبيض ناصعاً
 فالجـب تحت لوائها المنثور
 كست الطبيعة حلة من فضة
 هي في طهارتها لباس الحـور
 نثر النجوم قشورها مجلوة
 بالنور أو نثر من البلور
 قـرت عـيون الكائنات بمشهد
 عجل الفناء اليه غير صبور

وأما المقارنة بين شعر شوقي في الثامنة والخمسين وبين شعر أبي
 شادي في الخامسة والثلاثين (وأمثلة منه في صفحات هذا الديوان)
 فميسور للقارئ (١) . وبجانب هذه المقارنة يجب على الناقد أن يذكر
 أن شاعرنا غير راضٍ عن نفسه وعامل دائماً على تهذيبها ، ومقدر

(١) المقابلة الحقيقية في عرف المنطق بين قوة الشاعرية في نظم شوقي بك سنة
 ١٩٢٦ م . وبينها في نظم الدكتور أبي شادي إنما يجب أن تكون في سنة ١٩٤٨ م .
 حيث يبلغ شاعرنا (إذا مد الله عمره) عمر شوقي بك الحالي فتكون المقابلة بين آثارهما
 متكافئة في معظم العوامل الطبيعية ، وإن انفرد شوقي بالثروة والنعمة والراحة
 والتفرغ للشعر . ورغم هذا الفارق فليس الدكتور أبو شادي في اعتقادي وفي اعتقادي
 الكثيرين من الأدباء والمفكرين بالخاسر في مواقف كثيرة إذا تعرض للمقارنة الأدبية
 في وقتنا الحاضر .

مسؤولياته ، وأنه يترك تحقيق أطيب وعوده وآماله الأدبية الى الغد ،
وان أصدقاؤه لا ينعون بآثار نبوغه الحاضر مهما أجلوها ، بينما شوقي
بك اعتقد من أول عهده أنه شاعر الشرق بأسره ، وانه أعظم من
(تاغور) وبينهما أصدقاؤه النفعيون يتابعونه في هذا الوهم ويستغلون
في غير حياء هذا الضعف منه . . . ! ! فأبي الأدباء أولى بأن يسمى
« مطيباً » لصديقه الشاعر ؟ أمثلي الذي يقرن التقدير بالنقد ويشجع صديقه
دائماً على بلوغ المثل الأعلى من الكمال مهما طال الزمن ، أم هو الدكتور
هيكل بك الذي غالى أية مغالاة في تفخيم شاعره شوقي ، أم هو محمد
بك ابراهيم هلال الذي عظم حافظ وشرح ديوانه الأول وخاطبه
بقوله :

ألا كل قول عن مديحك قاصر

وكل مديح في خلافاك زور ! !

ثم دار الزمان دورته فتخلى عنه . . . ! !

اني رجل صريح لا أندم على الصراحة الشريفة والجرأة الحقة ولولا
محبتي للأدب لما استطعت الاشراف على نشر هذا الديوان فقد كثرت
شواغلي وتنوعت منذ أوقفت الوزارة الزبورية المشاؤمة عملي الصحفي ،
وقد تعوقني شواغلي المستقبل عن القيام بنظير هذه الخدمة الأدبية التي
ترتاح لها نفسي أعظم الارتياح ، ولكن ذلك لا يدعوني الى تغيير
رأبي فيما دلني المنطق والتجارب على انه صواب ، ولن يثنيني النقد
المغرض عما أراه حقاً ، ولن يكون سكوتي الاضطراري تبديلاً
لمبادئي ولا مساومة في ذمتي ، لا قدر الله

الأثر القومي

لقد صادق الحزب الشوقي في قوله ان شعر أبي شادي شامل للحياة القومية ، وان شاعرنا ينظم في كل موضوع ولكل مناسبة وانه قادر على خلق المناسبات للنظم . وسيؤلمهم أكثر من ذلك — ماداموا لا يعبثون ببناء الأدب ، بل يكاد يعينهم هدمه استبقاء لتفرد شوقي بك بالشهرة — ان شعره محبوب لدى طبقات كثيرة من المتعلمين ، وان دواوينه رائجة منشودة .

حدثنا أحد محبي شوقي بك — بل أحد المغالين في تفخيمه — عن تقلب شوقي بك وقلبه للحقائق حسب الأهواء والمنافع ، فقال في رفيق ومودة كثيرة (١) : « شوقي شاعر : شاعر النيل وشاعر البسفور ، وشاعر الحضرة الخديوية في مصر ، وشاعر العرش العثماني في فروع ، شاعر العهد الحميدي في حكومته المطابقة ، وشاعر العهد الرشادي في حكومته الدستورية . كذلك شوقي نفسه شاعر الخلافة الاسلامية متمثلة في التاج العثماني ، وشاعر الجمهورية التركية مشخصة في قبعة مصطفى كمال . ثم من هنا وهناك شوقي عينه شاعر الشرق ، فأمير الشعر ، أو أمير الشعراء !

لا بأس ! طائر يغرد في كل فن ، وريشة تضرب على كل وتر ، وان شئت فقل : شاعر في كل واد يهيم ! لا بأس ! ان في شعره لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان الرجل لمطبوع على الشعر كأنما خلق ليكون شاعراً ، فليكن أمير الشعر والشعراء ، وليكن

(١) راجع مجلة « الفتح » : العدد الثامن ، المجلد الأول .

شاعر الشرق والغرب اذا شاء . في استطاعة شوقي أن يكون كل ذلك ،
وفي استطاعة شوقي أن يهيم في كل واد ، وأن يقدح كل زناد .
ولكن ليس في استطاعته أن يتمرد على الطبيعة ويخرج على الدائرة
التي وضعه الله ضمن حدودها دون أن يضلل سواء السبيل ، فلا يلبث
أن يعود مقهوراً مذخوراً لم تغن عنه شيئاً ألقابه ووديانه ، ولا أوتاره
وأفئانه ، فانها شيء وما تصدى له شيء آخر . . . » (١)

هنا ما يقوله أحد أنصار شوقي بك مستتراً ، فماذا يمكن أن يقال
عن الدكتور أبي شادي ؟ لا أكثر ولا أقل من أنه شاعر وجداني تتمثل
العواطف في كل شعره ، وتتوجه أحاسنه الى هيكل الوطن المقدس ،
كبير القلب ، شريف المبدأ ، يحترم شعره كما يحترم رأيه ، مجتهد
في غير تجرد ، متصوف في فلسفته ، حر الذهن في غير إلحاد ،
عريق في وطنيته ، واف بعهده القديم : تخر الراسيات ولا سبيل الى
هدم الكريم من اعتقادي .

يعرف أن أعظم سر لدينه نصيح خاتم الأنبياء والمرسلين ، بأن
نطالب العلم ولو في الصين ، فيدعو — خدمة للعلم وللدین والانسانية

(١) طعن شوقي بك طعناً مراراً في زعيم الثورة المصرية الأولى المفطور له أحمد
عراي باشا بقصيدته التي يقول في مطلعها : « عراي كيف أوفيك الملا ما . . . » وكانت
منشورة في الطبعة الأولى من (الشوقيات) ثم حذفتها من الطبعة الثانية ، لا اعترافاً بالحق
ولا خجلاً لخجل من ذنبه ، وإنما جبناً أمام انكار الوطنيين المصريين لحملته ، فلا
هو تمسك برأيه في عراي ودافع عنه ، ولا هو أنصف ذكرى عراي باشا . وهذه روحه
يعينها في مدحه ووصافه وتهائنه ومراثيه ومن بينها رثاء الحصان الكريم « مكسوبي »
فإنما يملأها غالباً الغرض أو الهزل أو حب الشفع أو فرص الظهور ، وأما الراجب
المستتر فيندر أنه يعاب به . والعهد قريب بتخلفه عن حفلة (يوبيل المتطف) لا شتراته
الا كتفاء بقصيدته نيابة عن الشعراء المصريين والاستغناء عن قصيدة حافظ بك إبراهيم ،
فرفض أصحاب (المتطف) طلبه السخيف بشم وكرامة نفس . . .

معاً - الى دوام تعليق العام على الدين ، كأنما ذل ، ركن سادس للإسلام.
هذا شاعرنا وهذا أثره القومي في شعره .

اللغة والديباجة

ربما كان الأليق ان اثير عرضا الى اللغة والديباجة في موضع سابق لأنها ليست أهم شيء في الشعر ، فالغاية القصوى من الشعر أثره القومي ثم أثره الانساني العام ، وما أثره الفني الا غاية صغيرة بجانب الغاية القومية العظمى المنشودة في هذا العصر . بيد انه لا يزال في مصر جيش عظيم من المقلدين كل حديثهم عن الأدب منحصور في هذه الكلمات : « رقيق . جزل . لغة . ديباجة . مبتذل . مخم . . . » . فالى أمثال هؤلاء يكفيني أن أقول : هذا شاعركم شوقي أنفق من عمره ثماني وثلاثين سنة دارسا اللغة العربية ، ومع ذلك لا تزال تعد عليه سقطات وأخطاء كثيرة ، وأمله الأكبر أن يعد الشاعر العربي القح . . . فلا هو يرضي علماء اللغة والأدب العربي الأصيل من تلاميذ الشنقيطي والمواحي والمهدي ، ولا هو يرضي أنصار الأدب المصري الخاص ، وهذا شاعرنا الدكتور أبو شادي اعتبر بهذا الدرس الأليم الذي شاهده في شوقي وحافظ ومحرم وغيرهم ، فقال ما أغناني عن كل هذا السخف ، وابتدع لنفسه أسلوباً خاصاً ، وأحيا روح الأدب المصري في شعره ، ونظر الى أدب بيئته بالنسبة للأدب العربي الصميم كما ينظر الأمريكي الى الأدب الانجليزي . ولقد صدق الناقد الأدبي اجريدة (الأهرام) في قوله عن شاعرنا : « . . . تبينا له طريقة استقل بها ، فهو لا يقلد

قديمًا ولا يشايح جديدًا ، وانما يرسل نحره منتزعاً من الحياة العصرية ،
حتى كأنه قطع منها متناثرة « (١) » .

فالدكتور أبو شادي ليس مقالداً في أسلوبه وان كان له مقالدون
وقد استمد من روح قومية شريفة بدافع شريف ، فكل نقد يصطدم
به اذا يتناثر حوله ، لأن روح أسلوبه المنطق السليم والوطنية العملية
الصادقة . والله دره حيث يقول :

لغتمــــي الذي يوحيه ذوقــــي والذي
لبــــى به الأدب الحديث ندائي
وأرى فمــــي وحجاي ثم يراعتي
ماكــــاً لموطنــــي الشقي شقائي

ولم يكتف الدكتور أبو شادي بتمصير مفرداته وأسلوبه في اعتدال
جميل بل تصدر أيضاً لمحو رذائل القيود العروضية التي لا يقبلها الذوق
العصري أو لا موجب لها في عرفه ، وقبل النقد في شجاعة بل دعا اليه
ورد سهامه الطائشات ، بينما « أمير شعرائنا » شوقي بك خائف وجل
يتقدم خطوة في سبيل التحرير ثم يتراجع خطوات أمام نقد الجامدين ،
واذا عتبنا عليه في لين أو شدة بريئة من الغرض الشخصي أثار عساكره
علينا في حرب عوان ، فرأينا — وبفلسنا اللهف والحسرة — كيف

(١) راجع مقالة الدكتور أبي شادي الشائقة عن « ادب العصر » في ذيل الجزء
الأول من كتاب (وطن الفراعنة) وقصيدته العصماء عن « الوطنية والأدب » المنشورة
في هذا الديوان .

يعمل على هدم الأدب من هو أولى بأن يبقى دائماً في طليعة بناته . . .
فلعل مرارة كاشتنا هذه هي مرارة الدواء الناجع ، وأن سوف يتبعها
شفاء ستقر به عين الأدب ، وسيكون فاتحة عهد جديد للتعاون الأدبي
المنشود المجرد من حب المجد الشخصي ، فانه ما تسلط على أي نابه
عظيم الا وأساء اليه ، ثم الى عماله ، ثم الى وطنه .

حسن صالح الجداوي

* * *

درس وتحليل

بقلم العلامة الأستاذ الشاب

مدرس الأدب العربي بالمدرسة العباسية الثانوية

(١)

سم هذه الفصول نقداً أدبياً ، أو سمها ملاحظات تحليلية ، أو سمها تحبيلاً ومجاملة ، أو سمها ما شئت أن تسميها ، فليست تعني هذه التسمية ، ما دمت أذهب فيها مذهباً صريحاً نتفق عليه قبل كل شيء ولا نحيد عنه قيد شعرة ، وما دمت زعيماً لك أن أضع يدك على المقدمات قبل النتائج فيما أحاول إثباته ، إلا أن شيئاً واحداً يجب أن أحتفظ به لنفسي منذ الآن ، ذلك هو نفسي الأدبية ، وما قد يدعونها « شخصيتي » الأدبية التي لا مفر منها للباحث ، بل لا بد منها لتذوق الأدب ، وشرح أسرارها ، وبيان بلاغته ، والتماس صلته بالحياة العامة والخاصة . ولا يهولئك هذا فتنبض وتراجع إذ ليس الأدب قوانين ثابتة وقواعد مقررة يقف عندها الناس ، ويقصد إليها الأدباء ، ويعدونها الغاية التي ينتهون عندها كما ينتهي الرياضي عند جواب « المسألة » أو « التمرين » . تجد ذلك في الحياة العلمية وقوانين الحساب والجبر والهندسة ، وأما الأدب فبراء من ذلك بعيد عنه ، براء من

تلك المذاهب العلمية التي يحاول كل من « سانت ييف - Sainte Beuve » و « تين - Taine » و « برونشيير Brunetiere » أن يحبسها فيها ويضيق عليه الخناق ويكسبه الجمود والجفاء ، وليت شعري كيف يتيسر لنا أن نحبس العواطف المتدفقة والشعور المتقدم ، والنظر البعيد عنه نقطة أو دائرة لا تعدوها ؟ أليست هذه جناية على الأدب والأدباء وسلباً لحرية الشعر والشعراء ، فتكون العاقبة حبس المواهب والجمود ثم النفاق والموت ؟ وقد يدور بخلد أحد أن هذا عيب في باب الأدب ، عيب أن يترك دون حدود وتقاليد مرسومة يتأثرها الناس وينتهجونها ، ولكن الحق أن هذا ليس بعيب ، وإنما هو خير فضيلة في الأدب وأحسن محاسنه حتى يكون قابلاً للحياة الخالدة والحركة المتجددة ، والاتصال بالديناميما تكن صورتها ورسومها فهل تريدنا على سلب الأدب ليانه ومرانته فلا يبقى شيء في الدنيا حراً ، ونعيش نحن آلات متحركة بقوة القوانين العلمية والأدبية فوق قوانين السماء والأرض ؟ لا ! وسأحتفظ بنفسي أولاً ، وببنفس الأدب ثانياً !

ومع هذا فسأنتق معك على قانون أو مذهب صريح كما حدثتك منذ قليل ، ولا تظن هذا نقضاً لما سبق أو خروجاً على ما أشرت إليه من براءة الأدب من الرسوم الثابتة . لا تظن هذا ، فلست إلا واقفاً عند قواعد عامة لا يضيق بها الشعر ذرعاً ولست الا مشيراً الى ما يجب أن يكون عليه الشعر من حيث انه صورة للحياة ، وجزء من عمر الدنيا ، وصحيفة من صحف التاريخ ، ومرآة لنفس صاحبه نراها فيه واضحة صريحة . وقد قلت لك أن اساس هذا المذهب الاحتفاظ بنفسي أولاً ، ثم بطبيعة الأدب أو الشعر ثانياً . وما نفسي تلك التي أعتر بها ؟ ليست

بشيء هنا سوى هذا المعنى الأدبي الذي لا يمكنني الخلاص منه ومن
ومن التأثير به ، وكيف يمكن هذا بل كيف أخلص من نفسي وهي التي
تتحدث اليك وتكتب لك ؟ فإذا سترى شيئاً متأثراً بمواهب فاصبر عليه ،
فليس ذلك استبداداً وأثرة ، لأن طبيعة الشعر ووظيفته هي التي ترسم
لنا سبيل القول ، وهنا يبطل السحر والساحر . ما طبيعة الشعر ؟ وبم
يمتاز العصري منه ؟ لست أبهم أو ألغز أو أطيل ، وإنما أقول لك في
صراحة وسداجة : إن الشعر كلام يجمع بين الحقيقة والخيال ، تدعوه
الحقيقة إلى الخلود وقوة الأسر ، ويدعوه الخيال إلى الخفة والجمال
بما يسبغه الشاعر على الحقيقة من فنه وبيانه ليسهل وقع الحقيقة على النفس ،
فتكون للذيدة وقوية أيضاً . أما الشعر الحقيقي كله فصعب ثقل ليس من
الجمال الوجداني في شيء . وأما الشعر الخيالي كله فشيء طائر لا يكاد
يستقر في النفوس ، بل يمحي منذ ينشأ ويدعو إلى السخرية والاستهزاء ،
فلا بد أن يكون مزيجاً من الحقيقة والخيال ليكون جميلاً خالداً .

وأما الشعر العصري فيجب أن يتوافر له هذا الأصل السابق مع أمر
آخر هام : هو الصلة بينه وبين هذا العصر الذي نحيا فيه فيستمد منه موضوعاته
ومعانيه وأخيلته ، ويجتهد أن يصور لنا هاته الحياة الحاضرة في مختلف
أحوالها ونواحيها ولا سيما الحياة المصرية أو الوطنية للشاعر القومي .
أليست الدنيا كلها بيئة الشاعر العصري بعد أن ألم بها خبراً ؟ ثم أليس
وطنه ألصق به من سواه فيؤثره بالحديث والتقليد ؟ ألا تراه بعد هذا
يكون صادق الشعور صادق التعبير : شعره قطعة من الزمان والمكان
يستحق الخلود ما بقي الزمان والمكان ؟ ثم أفلا تراه مفهوماً لشعبه وناسه
الحاضرين والغابرين ؛ يرون في شعره صررة نمرسهم وحياتهم ،

وتاريخ دنياهم وبلادهم ؟ نريد من الشعر أن يتشبث بشيئين ليحظى بشيئين : يتشبث بالحقيقة الجميلة والاتصال بالحياة ليحظى بالآلفة والخلود . فأنت تراني حراً حين قيدت نفسي معك بهذا المذهب الأدبي ، وأنت تراني أيضاً مقيداً بهذا الأساس ولكنه على قيمته دائرة مرنة وأصول عامة ، هي في ظاهرها سهلة سائغة ، وفي حقيقتها لا يتطال إليها الا النابهن . ومهما يكن من شيء فأشعر أننا اتفقنا ، وأن قد آن أن الأوان للتمس هذا المذهب في هذا الديوان .

(٣)

وماذا تريدنا أن نلتمس في الديوان ؟ نريد أن نتبين هل توافر للدكتور أبي شادي أن يكون شاعراً عالمياً ، فيصف النفس الانسانية العامة ويعرض لها في شرح وتحليل ويخضعها لسلطانه الفني والعلمي أو يخضع لها فنه وبعثه ، فلا يتجاوز الحقيقة الى تلك الدعاوى الشيطانية التي يمزق بها مشعوذو المتأدبين من حيث لا يشعرون ؟ ونريد أن نعرف هل يسر لهذا الشاعر أن يكون شاعراً قومياً نقرأ في شعره عصره السياسي والاجتماعي سواء أكان في مصر أم في غير مصر من أقطار الدنيا حتى يكون أثره سجلاً لعصره ، وقطعة من عمر الدنيا ، وحتى يكون صريحاً صادقاً يعرف دنياه ويدونها لنا ، وللتاريخ فيستأهل منا العناية والاحتفاظ . بشعره ؟ ونريد أن نحس شيئاً آخر : هو نفس الشاعر الخاصة ومواهبه العقلية والوجدانية ، هو تلك الجذوة الباطنية التي اتقدت في نفسه ثم ظهر شررها أو لهبها فكان غناء ، فكان حباً وبغصاً ، ورضاء وسخطاً ، وأملًا وألمًا . . . وأخيراً كان صاته بالحياة ، ومقدار ازدواجه بها ، وثمره تلك الدائرة الكهربائية ؟ !

ولا أنسى بعد ذلك ما يتبع هذا من وحدة الموضوعات ، وجمال
الاسلوب وحسن النغم والجرس ، فتلک توابع يتم بها جمال الشعر ،
وتسمو مكانته في نفوس الشعب الأدبي ، وتقربه الى المثل الأعلى .
أليست هذه الغاية تتطلب منا أن نجيب على هذه الأسئلة : ما هو عالم
هذا الشاعر الذي نرجو أن يكون شاعره ؟ وما هي قوميته التي تحمله على
أن يصورها لنا ؟ وكيف تكون مزاجه النفسي والأدبي لنعرف هل كان
شعره نتيجة حققة لنفسه أو كان شاعراً مقلداً يطير مع أهواء غيره ،
ويترجم نفس سواه ؟

(٤)

في مستهل القرن العشرين كان صاحب الديوان طفلاً يتردد على
مدرسة عابدين الابتدائية بعد أن مارس التعليم الأولي بمدرسة الهياثم ،
وكانت تستقر في نفسه مواهب اسرتين كريمتين لهما أصل أدبي معروف :
احدهما أسرة والدته ولا نحدثك عنها بأكثر من ذكر المرحوم مصطفى
بك نجيب صاحب كتاب (حماة الاسلام) وصاحب الآثار القلمية
الباقية ، ولعلك تعرف أن هذا الكتاب من أول الكتب التي حاولت
فهم التاريخ بالطريقة المنطقية الحديثة ، فهذا خال الشاعر ، وأنت
بعد هذا لا يزال يرن في أذنك صيت المرحوم الأستاذ الفذ « محمد أبو
شادي بك » أحد الثلاثة الذين بدأوا الحياة القانونية والقلمية في هذه
الديار ، ثانيهم سعد زغلول وثالثهم الهلباوي ، ونسيت أن أقول لولا
المنية لكان خاله بحكم منزلته الاجتماعية والسياسية خليفة صديقه الحميم
مصطفى كامل رسول الوطنية المصرية وجذوتها الاولى .

فاذا كنت على علم بقانون الوراثة للأفراد والشعوب سهل عليك أن تفسر سرعة شاعرنا وهو في فجر الصبا الى الشعر وقرضه ، والى الأدب وفنونه ، وانصرافه الى ذلك بجمل مواهبه وهنا ظهر لي ما حاولت تبينه غير مرة : وهو النتاج الشعري المتواصل الذي امتاز به أبو شادي ، فهل لي أن أنسب ذلك الى تلك النفس الفياضة بطبيعتها والتي قدت من الشعر والسلاسة وخلقت لتكون شاعرة على الرغم منها ومن الطب والبكتريولوجيا والأبقلطوريا وغيرهما من المباحث العلمية الخالصة ؟

وكان من الحتم اللازم على هذا الصبي الغض أن يتأثر بمؤثرات أخرى لا قبل له بدفعها ، ولا مناص من الاتصال بها لمثله ، منها تلك الخطة المرسومة للتعليم المصري ذلك الذي يضم في منهجه الابتدائي الابتدائي والثانوي أنواعاً شتى من العلوم الكونية والأدبية والدينية ، فاذا كان لنا أن نبتهج بها لتكوين شيء من الثقافة الأولى للناشي المصري ، فإن لنا أن نبتس بها لاحتوائها اذ ذاك على شيء غير قليل من الجمود والجفاء الذي لا يلائم النفس الشاعرة التي لا تحتل القرار والوقوف عند رموز الجبر والهندسة وقواعد اللغة والأدب المحبوب الذي وقفت عنده تلك المدارس أول هذا القرن ولا يزال له أنصاره الى اليوم ، أقول كم من البون - فيما يظهر - بين نفس من حققها أن تطفر بين أفنان الجمال الفائق ، وبين نفس أخرى ليس لها أن تكتفي بالشيء يلقي فيها تحفظه لتجوز الامتحان الدراسي والسلام . . . فهل هذا من أسباب ثورة أحمد أبي شادي على القديم وقصده تواء الى الجديد والنبو عن هذه الأغلال التي قيد بها أنصار المدرسة القديمة أنفسهم وأقلامهم خائفين أو

النفسية من الوجد والمرض ، بل والاضطرار الى ترك الوطن والاغتراب ،
وربما كان من حسن حظنا وحظ الأدب — على الرغم من ارادة هذا
الشاب — أن حيل بينه وبين أماله في الحب ، فكان زهرة تفتحت أكمالها ،
وكان برقاً لمع وميضه في أفق الأدب ، وكان جمرأً اتقد ضرامه وعلا ،
وكان بلبلا فصيح ، وكان غيثاً أوله :

نشأت وقلبي يصبو للـ

وانني ربيت على حبك

أليس لي أن أبتسم من قلبي وانظر الى هذا البيت نظر البستاني الى
أول ثمرة ، ونظر المبتهل الى الهلال ، ونظر الفلاح الى أول فيض النيل ،
ونظر الأديب الى الخيال البكر الباكر الجميل ؟ !

والحب كان ولا يزال مصدر إلهام الشعراء وأوله ، والحب العنري
الطاهر يفيض بالشعر الحار الطاهر ، كان العصر الأموي في الحجاز
عصر الغزل العفيف ، فكان أيضاً عصر الغزلي الخالد العفيف ، . . .
ولا أحاول إثبات ذلك باكثر من أبيات قرأتها له في كتاب من مختار
شعره الأول يسمى (شعر الوجدان) ، حيث يقول تحت عنوان
« عبادة المرأة » :

جوذي علي من الحياة بنفحة

واستنهضي أمل الشباب الباكي

فالنفس عندك أصلها وبقاؤها

والروح مشرقها الغرام اللذي

يارحمة الله القدير وعطفه

ما شمت نور جلاله لولاك؟!

أنظر عقيدته في المرأة ، كيف يراها مصدر قوة ، ومظهر
نعم الله ، ثم أقرأ ما قرأته تحت عنوان « ميلاد الحببة » .
قضى الزمان علينا بالفراق وما

قضى على رحمة من برك الهادي
كأنما كان تعذيبى وضائقتي
تجارب الحب لا موتي وإلحادي
فاستقبلي العام بساماً لنعمته
وغيره راحل بك لإبعاد !
كأنما حسرتي راحت تودعه
فلم تؤب ، وتجلى أنسي البادي !

تر الوفاء على رغم البعاد ، وتشعر بصدق العاطفة ورقة اللهجة .
الى هنا يصبح أن أقف برهة بعد ما تيسر لي أن أفهم شيئاً من مزاج
الشاعر وشيئاً من قوميته ، وهنا تنقضي في رأبي الحلقة الأولى من حياة
الشاعر ، فلننظر فيما بعد ذلك .

(٥)

أما ما بعد ذلك فمعجب عجاب ، وفرار من وجد الى وجد بل من
عالم صغير الى عالم كبير ، من شخص لنفسه ولقومه الى شخص لنفسه
ولقومه وللناس جميعاً . كان خروجه من مصر فراراً من حرقة آلمت
صباه ، وجنت — فيما يدعي هو — على شبابه الآمل الباش ، ولكنه
كان في رأي الأدب خروجاً من أزقة الدنيا الى ميادينها وشوارعها
الكبرى . كان خروجاً من القفص الذي يضطرب فيه شكاية ، الى البستان

الذي يصرح فيه هزجاً صدادحاً ليشجى ويشجى الناس ، ولينشر على الحياة
حلل الحياة ، وليكون « أبا شادي » !

ليت شعري ، هل عايم ذلكم الشاب الشاعر وهو يغادر مصر
أنه في مصر مهملًا تنتابه الحظوظ ، وإن نفسه جد أسيرة في مصر ،
وإن وفاءه لوطنه سيطغى على الدنيا العريضة ، وإن القلب للحييب الأول
الذي احتل المسويداء وملك الشغاف ؟ وداع لاذع حاو وبكاء حكيم
ذلك الذي نفثه سمحراً أو شعراً ، ونشره حلالاً أو زهراً ، حيث يقول
قبيل رحيله في أبريل سنة ١٩١٢ :

آن الرحيل فلا جواب لداع
حتى أتم لها مقال وداعي !

وأسطر العهد الذي إن فاتني
يوماً رعايته قصفت يراعي

في العيش أو في الموت ، ما بين المنى
والياس أذكرها بقلب واع

هكذا يودع مصر ، فلتبتهج مصر باحترق نفسه ، وليفرح الشعر
بعذاب هذه الروح ، وليكن الخير من الشر ، وليظهر الفن وليد الألم !
ليست الثقافة السكسونية إلا ثقافة الدنيا ، والا روح العالم ولبه .
والا الحرية الكاملة الناضجة ، وإلا سر العالم الذي ملك العالم ، فمن شاء
أن يرى الزهن الجبار الذي اشتق من حركة الدهر وصروفه ، وسيطر
على مناحي الكون وأسراره ، فليلتسمه هناك عند « جيرة المائش »
وليسأل عنه هذا الشاعر الذي نترجمه في هذا العالم الكبير والدنيا

العريضة ألقى عصاه مزوداً بمصر وعلمها ، بنفسه وذكرياتهما ، بهواه
والآلامه ، بدنيا شرقية يحملها الى دني غربية . . . فهل من الغريب أن
نثبت مالهذه الدنيا الجديدة من الأثر في نضوج هذا الشاب ، وتكوين
ثمة فته الأخيرة ، وإضافة ذخيرة غالية الى ذلك العقل الناهض ؟
في بلاد الانجليز فوق ما ذكرنا من تلك العقلية جمال ريفي ، وجمال
طبيعي وآخر صناعي ، وفيها الحركة العلمية التي تنمو بحرية .
واسعة ، وفيها الحركة السياسية التي ينبض لها قلب العالم ، وفيها الفنون
الأدبية التي خلدها الشعراء والكتاب وفيها كل مضطرب لكل جهد ،
وفيها الدنيا فقط !

هبط أبو شادي بلاد الانجليز . ولبت فيها عشر سنين (١٩١٢ .
١٩٢٢) يدرس الطب وفروعه ، وينبغ فيما اختص به ، ويؤسس
(معهد النحل الدولي) ومجلة (عالم النحل) ، وهو في أثناء ذلك كله
يلدرس العلوم الغربية العامة ، والآداب الفرنجية ، ويتصل اتصالاً
عالمياً برجال من أمم شتى حتى كان أشبه شيء بالنحلة التي تنال من كل
زهرة شهدها ، ثم تمججه عسلأ صافياً فيه لكل نفس أرب ، ولكل عقل
شهية ومطلب . . . لم ينس (مصر) في هذه الفترة ، بل كانت هذه
الفترة الحرة التي أتاح له الصلة بالعالم الحر أدعى الى التعلق بمصر
ويحق مصر فيما تحاول من حرية واستقلال ، فكان شعره هناك وجدانياً ،
وقومياً ، وعالمياً ، تمتزج فيه نفسه ، ومصره ، وعالمه الأخير . ويجب
أن نذكر هنا أن أهم طوايع المدنية الحديثة ، إنما هو الإنسانية والعمل
للإنسانية ، والاعتراف بها في الأعمال العامة وفي الثمار الأدبية ،
تجد ذلك واضحاً في التعاون العالمي ، وفي إنقاذ المنكوبين ، وفي

الإفاضة على البشر بفيض العقل والوجدان ، ولعلك تعرف أيضاً أن الأطباء هم أمسُ الناس بهذه الفكرة ، وأعملهم للانسانية في طبهم ، ومن القواعد المأثورة لديهم : « كن طبيباً فقط ، ولا تفكر الا في إنقاذ مريضك » . . . أفلا يكون الطبيب الشاعر إنسانياً في شعره كذلك ؟ وهذه الفكرة تدفع الينا فكرة أخرى لا بد من الإلمام بها ، تلك هي علاقة العلم بالأدب ، وانما نلم بها لأن شاعرنا عالجهما في دراساته الأدبية وفي دراساته الأدبية وفي قصائده الشعرية ، ودافع عنها أقوى دفاع رآه الناس ، ويظهر لي أن سبب ذلك يرجع الى الناس ، فلقد أحفظوه وضميقوا عليه الخناق ، ناعين عليه تشبثه بالشعر ، داعيه الى الانصراف الى « معمله ومجهره » فلذلك أجدى وأولى ! !

والى متى يريد الناس تقطيع أوصال الحياة ، واعتبار نواحيها وحدات منفصلة ليس بينها صلة ومعاودة ؟ ألسيت الحياة بجهتيها العلمية والأدبية أشبه تماماً بالانسان جسمه وروحه : كلاهما لازم للآخر يتأثر به ويؤثر فيه ، وان قوة أحدهما قوة الآخر ؟ ما لهؤلاء القوم لا ينصفون الحق ؟ أيقدر أحدهم على الحياة بدون روحه ؟ ألم يكن أكثر الأدباء والشعراء في الشرق والغرب علماء أيضاً ؟ اللهم ان العلم يزيد الأدب قوة وخلوداً ويبعث فيه الحياة القوية ، ويبعد خياله الى أقصى الغايات وأحبها ، وهذا يذكرني بقول (لسينسر — Spencer) الانجليزي قرأته منذ أن كنت طالباً بالمدرسة معناه : « ماضر الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ اذا عرف أن دنيا الحجر قد مر عليه كلها من الأعوام حتى تم تكوينه ؟ ألا يكون في ذلك خير كثير لأدبه وشعره ؟ » وأزيد أن الشعر بغير علم يكون أقرب الى الهراء والسخف منه الى

الاعتدال والحق . وقد كان أجهل الشعراء بالعلوم أشدهم سخفاً وهذراً ،
وأقلهم بضاعة ، وأفقرهم خيالاً ، وأفناهم آثاراً !

نقول إن أبا شادي دافع عن نظريته في غير قصيدة من شعره
مثل قصيدة « حياتي أو روح الشاعر » ونحن نذكر هنا شيئاً من قصيدة
أخرى (ص ٣٥٦) قالها يخاطب « مجهره » :

صحبتيك عمراً في وفاء وتمعنة
فكنت لفني ملهماً ولأفكاري
فكم من بيان لاح لي منك مرشداً
وكم من معان قد وهبت وأسرار
ويذهل قوماً أن يحبك شاعر
وما عرفوا فني الدقيق وأشعاري
أرى فيك سر العيش والموت معلناً
مراراً وآلام الوجود بتكرار
ويارب خيط عد جرثوم قوة
تناولت منه الوحي والأمل الساري
فيأقوم صفحاً ، لانهبوا الذي يرى
وينظم ما يلقى بدائع للقاري !

والى هنا يمكننا أن نقول : ان نهاية اقامته بانجلترا كانت نهاية
ثقافة الشباب ، ووضع الأصول العامة للنفس الشاعرة بكل ما في الكلمة
من معنى وهنا ينتهي الدور الثاني من حياة الشاعر .

(٦)

ثم نعود فنقول : أليست هذه العوامل التي تظاهرت على شاعرية أبي شادي تسمح له أن يكون شاعراً وجدانياً ، ثم شاعراً عالمياً ، وكم في الشعر العالمي من باب ، فانه يسبح الطبيعة ، والفلسفة ، والسياسة العامة ، والمحكمة ، والنفس الانسانية في شتى مظاهرها الخالدة ، فاذا حدثتلك بعد حين أن أبواباً كثيرة تدخل في ديوان (الشفق الباكي) وفي غيره من داواوين الشاعر لم أكن الا مستنبطاً من هذه المقدمات التي سلفت والتي اتفقت معك على تنديمها ، ولكني مضطر في هذا القسم الثالث من حياة هذا الصديق أن أشير الى شيء من شمائله إذ لم أظفر بمعرفته الا في هذا القسم أيضاً ، فاذا حدثك أبو شادي شعرت بوداعة خلقية وتواضع وإنكار للذات الى حد نادر غريب ، ويكون معك في منزلك فيخجلك بأدبه وظرفه ، وفي لك ويبالغ في الوفاء ، ويحمل الناس على مشاركتهم في محبتك وتقديرك ، ثم تهجم عليه فيصبر ، ثم يدافعك فاذا به أقوى الناس حجة ، وأمضاهم قلماً ، وأطهرهم حديثاً ، وأبلغهم غرضاً ، ثم أسرعهم صلحاً وتسامحاً ، يحدثك فيأخذ عليك مسالك القول ومنافذه ، ويعترف للناس بكل فضلهم وجهودهم ولو كانوا منه في مواقف عداوة وحسد ، وآية ذلك اعترافه في شعره بالفضل لكل أديب ولكل عالم ولكل مبكر مبدع أيّاً كان فنه أو وطنه أو دينه . . . فهو إنساني في ذلك ، يحاول الكمال ويجد فيه ، وهو بعد جريء في التجديد ، سباق خير ، يندب رأسه وجسمه لتخفيف الويلات مهما ينفق من المال أيضاً . وفي وسعي أن أضع يدك على شواهد ذلك بعد

أن أتم ما بدأت من تلخيص فنونه الشعرية ، ولكن لعلك في غنى عن إرشادي هذا معتمداً على دراستك للشاعر ، ولا أنكر أنني حاولت صرفه عن الشعر بعض الشيء ، ففي عمله الذي يحبه ثروة وجاه ، فكان يقول لي : « كأنك تريدني على النزول عن قسم من نفسي ، هذا شيء لا أعمله وإنما هو نوع من الراحة ألجأ إليه أو يلجأ هو الي فأقوله ، وسيان عندي أحفظته الدنيا أم فقدته » .

وفي هذا القسم من حياته أكب الدكتور على دراسة الأدب القديم والحديث من عربي وفرنجي ، وعلى دراسة الفلسفة العامة والطب ، ثم ابتلي بما يتلي به أمثاله من مسؤولية الحياة وصروفها وحسد الناس وغدرهم ، وتهريج المخرقين المشعوذين فنقم على هؤلاء لا لنفسه وإنما لأجل الأدب وفي سبيله ، فاشترك في تلك الحرب الطاحنة التي قامت أخيراً بين المحافظين والمجددين ، وكان منحازاً بكل قواه الى الطائفة الثانية حتى لقد خفت أن يكون متطرفاً .

وقد تسأل نفسك كيف موقف أبي شادي مع معاصرة من الشعراء ؟ نراه يثنى عليهم جميعاً مع بعد ما بينهم في المذهب الفني ، وفي مقدار الثقافة ، وفي النزعة الموضوعية والمعنوية . ولكنني قلت لك منذ حين إنه يعرف لكل منهم جهوده ، ويقر له بميزاته ، ومن هو ذلك الشاعر الذي يخلو من ميزة واحدة ؟ أولى بنا أن لا نعرض له . . . ولكنك من جهة ثانية تجد أبا شادي أميل في التفكير الى أمثال مطران ، وشكري ، والعقاد ، وإن يكن هذا الميل بدرجات متفاوتة ، وليس من الصعب تفسير ذلك بعد ما قدمنا لك من اعتراضه بالثقافة الحديثة ، والعناية بالمعاني والموضوعات الطريفة التي ينزع إليها هؤلاء .

(٧)

هناك صفحة أخرى لابد من الإشارة إليها . وهي ما تتصلب بالنهضة المصرية الأخيرة إن صح لنا أن نسميها نهضة ، وقد قلت لك أن صلة شاعرنا بهذه النهضة يرجع الى أول حياته بل الى ما قبل حياته أي من ناحية والده وأخواله ، ثم الى تأثيره بزعيم الشباب مصطفى كامل ، ثم الى مساهمته الحركة التي قام بها الزعماء المعاصرون وعلى رأسهم سعد زغلول . فهل تصدقني اذا رويت لك أن ديوان (مصريات) لهذا الشاعر وقف على شيء كثير لروح هذه الحركة ، غير الكثير والكثير جداً مما تراه في (الشفق الباكي) ، وغير ما تراه أو تسمع عنه في غيره من شتى مؤلفاته وآثاره الشعرية المطبوعة والمخطوطة ، المحفوظة والمفقودة . ؟

مسكين أبو شادي ! كأنما كتب عليه أن ينهض بالشعر العصري وحده ، وأن ينهض به في أقل زمن ، وأن يرى آثار النهضة ناضجة في رجولته ، وأن يملأ اللغة العربية نظاماً بنماذج لخير ما انتجت اللغات الحية ، فتراه يحيط بكل شيء شعري ويحاول نقل روحه الى لغته ، وهي غيرة لا تقل عن غيرته الوطنية ، بل هي جزء منها ، وليس من حقي ولا من الميسور لي أن أنقل لك منها شيئاً ، وانما أدلك فقط وعليك أن تقرأ بنفسك وأن تشركني في هذه الأحكام الكثيرة . ويجب أن نعرف لهذا الشاعر نزعة الوطنية التي يتشبث بها وينتصر لها مهما يؤذ في سبيلها : نادى بها في صباه ثم في بلاد الأنجليز ، ونادى بها في مصر سايرها آخر الأمر ، وكان اداة صالحة للدعوة الدستورية في شعره لا يتحول عن مبدأ ولا يتردد بين شتى المذاهب لإرضاء لشهوات شتى ،

وأفراد معروفين ، وهذا يذكرنا ببعض المعاصرين من الشعراء الذين تنقلوا بين المذاهب السياسية ، والاهواء الحزبية فكانوا صورة سيئة من هذا الاضطراب وضعف العقيدة أمام قوة الهوى والشهوة ، وأساءوا الى الأدب والى نزعة السمو النفسي . كذلك نذكر « هيجو - Hugo » الذي نفى في سبيل عقيدته السياسية ومذهبه في الحكم ، ونذكر « بيرون Byron » الذي ساعد يونان في استقلالها ، ونذكر « داننزيو D'A Daunzio » شاعر ايطاليا القومي المعاصر .

(٨)

والآن أشير اشارة عجل الى بعض الأبواب التي ألم بها في شعره ، ما قد عجزت عن الإلمام به في هذه الفصول الموجزة ، ولو حاولت كل شيء أريده لما فرغت هذا العام ، ولما وسعني كتاب في حجم الديوان ، فكل أبوابه جديدة ، وكلها في حاجة الى تقديم وتحليل ، وأين أنا من هذا كله في هذا الوقت الضيق والجهد الكليل ؟ !

(١) فأول الأبواب الشعر الغزلي ، ولعله أسبقها الى ذهن الشاعر ولسانه لما قد عرفت من نفحة حب ألمت به في شبابه ، فاذكت قريحته التي فاضت بأول كلمة غزلية ، وليس ذلك بدعاً فلعل الحب من أسبق دواعي الشعر لدى الشبان ، ولعل شاعرا صادقاً لا يخلو من حب ، ولكن الشيء البديع هنا أن يتحلل الغزل من هذا السبب الخاص فيصير غزلاً عاماً أو - بعبارة أوضح - يصير غزلاً فلسفياً يعيش الجمال للجمال ، ويتعدى المرأة الواحدة الى أي جمال في أي فتاة . وقد لا تشعر في غزله الآن بحرارة الشباب وصدقه وان كان مستمداً في روحه من ماضي

ذكرياته ، ولكنك تشعر بحرارة الفن وقوته ، وتصوير الجمال وأسراره ،
وأشير الى القصيدة المعنونة « أمتع الأنس » (ص ١٢٥) التي يقول في
مطلعها :

تسألني عن أمتع الأنس لذة
ومما الأنس حقاً غير إيناس غانيه
وأين الأنس اذا لم يكن مع الغانيات ؟ ! وأي ميزة لهن في الدنيا
غير هذه ؟ !

تنازلت طوعاً عن وعود بجنة
لساعة صفو منك بالحجب غالية
وهذا المعنى يعيد الى ذهني قول ديك الجن :

(عزت نخدي في الثرى لك ساجداً
وعزمت فيك على دخول النار)
ثم انظر اليه يذكر فنون الجمال وألوانه ، وما تمتاز به الحسنة :
جمال وتحنان وتيه ورقة
وعطف وإحياء لآحي أمانيه

ولست أسترسل فالوقت ضيق ، ولكنني أذكر أيضاً قصائد أخرى
مثل « قلبي الخفوق » و « ليلة صيف » و « نظرات » و « اذكريني » . . .
وهكذا تقرأ القصيدة بعنوان غريب لا تعهده في الشعر القديم ، لأن هذا
الحديث ذو معنى حديث ، وأعلم أن الغزل كان منذ العصر الأموي
حاراً صادقاً حين فرغ له شعراؤه ، ولكنني لا أعد أبا شادي شاعراً
غزلاً بذلك المعنى القديم الذي يقصر الشاعر على هذا الفن وحده : مثل
جميل وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما ، ولكنه يتجاوز الغزل الى غيره .

(٢) فلنترك الغزل الى نوع آخر وجداني يعبر عن نزعات خاصة للشاعر كقوله في « قلم الفنان » و « نقد الشعر » و « عتاب صديق » ، و « حق النبوغ » وغيرها وهذه الأبيات جيدة حقاً قالها في موضوع « نقد الشعر » (ص ١٨٢) .

هـون عليك فما شعري بمفتقر
للمـادحين ، وما عتبي لنقادي !
ولـن يعيب نظمي ذم حاسده
فانـمـا يزدهي في ليل حسادي !
كالنجم في ظلمات الليل مشتعل
والماس في الفحم ، أو كالنـع للهادي !
ولا أعرض لهذا النوع بالتحليل الموضوعي ، فهو من رأي صاحبه ،
وأما فنه فبديع .

(٣) وأما وصفه العام فهو فلسفي تحليلي تاريخي فيه خيال جميل رائع . إقرأ قصائده في « إخاء الورود » و « ليلة العرس » و « الطيب » و « راقصة البار تنون » ، « وغادة البحر » ، « والشاعر المجنون » ، « والكلب الثائ » ، و « أبي الهول » حيث يقول (ص ١٩٥) .

لـم يفن شيب الدهر منك تيقظاً
كلا ، ولا نوب الزمان الخالي
مرت حوادثه الجسام رواية
وكانـمـا أنت الضحوك السالي
تقضي بموت العائـين مباركاً
جهـد الذين بنوا بناء رجال

فقد لا يسمي الناس هذا وصفاً ، ولكنه وصف عميق خيالي فيه
عبرة وعظة ، فأبو الهول ثابت صاح ، يعبث بالدهر ويستقري حوادثه ،
ويبارك المجدين .

وأوصيك بقصيدة « الربيع » (ص ٥٧٤) فانك ترى فيها هذين
البيتين الجامعين :

عــاد (الربيع) فعاد البشر وانجست
مسن (الطبيعة) أنغام وألوان !
وازينت هذه الدنيا لموكبه
كأنمـا في مجال العرس تزدان

وغير قصيدة « الربيع » قصائده في « الزهرة الذابلة » و « الراقصة »
و « البحر » و « الموسيقى » و « المنارة » و « الشيخوخة » و « شم النسيم »
و « الشهرة » و « الشلال » ومثلاتها .

(١) واذا ذكرنا شعر الطبيعة فلنذكر معه أن أبا شادي من عشاق
(الطبيعة) ، فتن بها في مصر وفي غيرها من الأقطار التي رحل إليها
باوربة ، وراعتة مشاهدتها الجميلة التي تفوق الأرض في فصول
السنة . يقف على البحر لا وقفة المفتون بزرقته وسفينه بل وقفة الحكيم
الذي يستنبط الحكمة من نواحيه ويشفق أبدع المعاني من مظاهره :
الرعد صوتك أم حديث وفاق
قد بدلته مرارة الأشواق ؟ !

تنهد أمواج بعثت ، كأنها
للعاشقين مصارع العشاق

سارت طويلاً في خفاء تارة
وهنيهة ضحك من الإشراق

واليك قوله في « أوراق الخريف » وهو مختلف القوافي :

هل كان نثر غير إيدان بعمر قد تقضى ؟
هل كنت إلا رمز أحلام نفضن اليوم نفضاً
مصفرة - شأن الممات - بحمرة تحكي النجيع
فكأنما قتلتك أحكام (الخريف) بلا شفيع !

ومثل ذلك من الإبداع قوله في « الشمس » و « فتاة الريف » و
« بسملة الطبيعة » و « جنة النحل » و « عذراء الربيع » وسواها .

وهنا أيضاً أقول إن وصف (الطبيعة) في الأدب العربي ازدهر
بالأندلس ، ولكنه لم يمزج بالفلسفة إلا أخيراً على يد المعاصرين من
شعراء العربية بعد ما ثقفتهم التربية الحديثة .

(٥) وشعره التاريخي حشوه العبر والعظات ، ولا سيما ما يتصل
بالدول الزائلة والحوادث الجلى ، والأشخاص النابهين : تجد ذلك في
ذكريات « بيتهوفن » موسيقار ألمانية ، وفي « كارثة دمشق » وفي
« دار ابن لقمان » ، وفي « آخر بني سراج » الانداسيين من رواية
الكاتب الفرنسي الفيكونت دوشاتو بريان :

كانوا ملوكاً منار الشمس رايتهم
حتى تدلوا لسقط اللهو غافيناً

فضيعوا دوة كان الجلال لها
دينياً : فلم ينصفوا ملكاً ولا ديناً

حضارة قد نماها العلم مزدهراً
لم يزل ضوءها البسام يسينها
ومن أمثلة ذلك في الشعر القديم سينية البحتري .

(٦) يأتي الشعر القصصي ، وأنت تعرف أن هذا الباب يعوز الشعر العربي منذ القدم كأخيه التمثيلي ، ويعتبر هذا النوع أول درجات الشعر ظهوراً منذ البداوة ويليه النوع الغنائي ، ومهما يكن من شيء فلهذا الشاعر أقاصيص مستقلة معروفة ، ومن نظمها القصصي في هذا الديوان « الرؤيا » و « مملكة ابليس » ، و « ممنون الفيلسوف » لقولتير ، وهي من الشعر المرسل الذي يمثل الحكمة أو تغييرها وأوهامها وعثراتها الإنسانية بحياة فرد في شكل حادثة خاصة ، وأحيلك على هذا الديوان (ص ٦٢٥) لدراستها ، وأما « تل العمارنة » فيغلب عليها الخيال الجميل :
وقفت على الاطلال في الحلم وقفة

فكانت لي الأمس المحقق لا الحلما

فالفيت نفسي قرب فرعون مائلاً

(على النيل) في يخت يشق بنا الميا

وفي الحق ان هذا النوع تهديبي جليل ، يفيد منه الأطفال والشبان والشيوخ على السواء .

(٧) ولأبي شادي رثاء حار حكيم ، أخصه ما يتعلق بوالده وآله ، وما يرثي به كبار الرجال ونابغهم : رثى صديقه محمد بك فريد ، وسليم سركيس ، وطانيوس عبده ، وسيد درويش ، وأبا هيف ، ويعقوب صروف وغيرهم ، وله في سعد عدة مراث قيمة نظمت بعد جمع هذا الديوان ، ومن قوائمه في رثاء فريد بك :

إنه—ض وقل للذكر كيف يك—ون
 جه—د الكمي اذا اعتراه سكون
 لا المال عز لديك يوم كريهة
 ك—لا ، ولا شقت عليك سجون!
 فخر كهذا الذكر يخرس عنده
 وص—ف ، وما تقضي عليه منون !
 ومن قال ان المنية تقضي على الذكرى الماجدة ؟

(٨) ولعلك تعفيني من شرح القومية المصرية فأنت تعرفها كما
 تعرف حب الشاعر بلاده حتى وقف على نهضتها وآمالها وآلامها شيئاً
 كثيراً مما أنشد وعمل ، وقد حدثتك منذ حين عن (مصرياته) ولم
 أحدثك عن (أنين ورنين) وفيه من شعر الوطنية جانب ثمين جدير
 بعنايتك ، وكذلك كتابه (وطن الفراعنة) وغيرها . والآن لتقرأ
 أولى قصائد هذا الديوان المعنونة « النهضة ارادة » وقصائد
 « الآداب القومية » و « تحية الجامعة » و « ملك النيل » و « البحر
 الصاخب » و « بيت الأمة » وغيرها ، لتعرف الى أي حد طبعت هذه
 النهضة في نفسه فأرخصها وسأيرها الى الأمام يحدوه أمل جميل ولا أقول
 أمل الوائق من النتيجة .

ومسألة انقومية وعلاقتها بالشعر تعد هامة في رأي النقاد المحثلين
 لتثبت الصلة بين الأدب والحياة . فيكون صورتها وتكون هي معينه
 الدار . قال في يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ م . وهو يوم « الوحدة
 الوطنية » ، يوم اتحاد الأحزاب المصرية :

يا يوم قد بعثت بك الأحلام
 فليبق ذكرك للفحار يرام
 مرحى لوحيك ناشراً آمالنا
 من بعد ما قبر الرجاء ظلام
 متنا ضحايا الوهم يقتل بعضنا
 بعضاً ، وتضحك حولنا الأيام
 نعم ! وكم ضحكنا منا الأيام لما تهارشت أحزابنا وفرغ بعضنا
 بعض ، تاركين المسألة المصرية وراءنا حتى نلناشر النتائج التي نعالجها
 الآن

(٩) باب هام ذلك الذي أعرض له الآن ، وهو الشعر العالمي الخالد
 الذي تقرؤه كل نفس في أي قطر فترتاح اليه ، لأنها تقرأ صورة
 النفس الانسانية في شيء من نزعاتها ومظاهرها ، فإذا كان للشعر الوجداني
 قيمته في نفس صاحبه ، وللقومي منزلته الوطنية الموضوعية ، فان للشعر
 الانساني منزلة كبرى تشترك في تقديرها شتى الشعوب والأجناس .
 ولأمر ما تقرأ الأمم المثقفة جمعاء أبا العلاء المعري ، والخيام ،
 والفردوسي ، وتاجور ، ودانتي ، وهومر ، وشكسبير ، وميلتون ،
 وجيتا ؟ أليس السبب في ذلك أن هؤلاء الشعراء سموا بنفوسهم العظيمة
 على طبقة أو قبيل أو عاطفة خاصة ، ثم ارتفعوا الى سمواتهم الشعرية
 وتحدثوا الى الانسان المعنوي الذي يتفرق معناه في كل ذهن بشري ،
 فاطمأن اليهم كل ذهت بشري ؟ أليس سبب ذلك أنهم تخطوا الدهر
 الى أبعد غاياته ، ورجعوا به الى أقصى ماضيه وعرضوه في فئهم صورة
 قوية خالدة ؟ أليس سبب ذلك أنهم أنكروا المكان الخاص حين عرفوا

المكان العام ، فصار الكون كله دارتهم يضطربون فيه ويصورون جوانبه ،
حتى صار شعرهم محبوباً لكل نفس لأنه مشتق من كل نفس ؟ ولنعلم
أن هذا النوع من الشعر العالمي له فنون شتى فهو صوفي مرة ، وفلسفي
تارة ، وفني حيناً وإنساني طوراً ، ولسنا الآن بعرض الشرح والاطالة ،
وحسبك أن تلاحظ ما قدمنا من أن خلاصة هذه الفنون راجعة الى
الانسان من حيث هو إنسان ، له آمال وشعور وفكر تسيطر على
الحياة وتنزعه عن صغائرها التافهة ، وحسبك أن تقرأ في هذا الديوان
شيئاً من هذه الفنون لتعرفها من جهة وتعرف الى أي حد تغلغل فيها
صاحب الديوان - الذي لم يفته أن ينظم في هذا الباب من قبل عبرته
(أخناتون) و (الآلهة) - فقال ما بين مقطوعات وقصائد في « علة
الدهر » ، و « الشكوك » و « العظمة » ، و « ضمير الخالق » ، « القيامة »
و « المجهر » و « الفنان » و « الانسانية » ، وعدا ذلك شيئاً كثيراً
وهذا شيء من قوله في « السعادة وفلسفة سقراط » :

(أَمَّا (السعادة) عندي
فلسفة مستعدة
قالوا (القناعة) منها
لهذا دواع وقاد
العاملون لخير
المبتغون الإجماع)

الى آخر هذه القصيدة المستملحة .

وخير لي ولك أن تقرأ بنفسك ، فأبو شادي سخي جد السخاء في هذا
الباب لا يشاركه فيه شاعر يمثل هذه الثروة .

(١٠) وأنت واجد بعد هذا نوعاً آخر يسميه النقاد « الشعر الغنائي Lyrical Poetry » يندرج تحته مثل « البعث القتال » و « الاطلاع » و « العجريح المنسي » و « غناء الحياة » و « جنتي » و « توبة الحب » هذا غير صور أخرى شتى في غضون الديوان .

(٩)

لا يظن القاريء أنني أطلت ، فما علي عتب ، وإنما العتب الأول على صاحب هذا الديوان الكبير ، ولا يظن اني أردت حصر أبواب الديوان فذلك عسير ، ولا يظن أن ماذكرته كل أبواب الشعر ، فالشعر في جزئياته لا يحصى ، ولكنها أغلب أبوابه ، وإن كان يجمعها القصص والغناء والتمثيل .. غير أنني حاولت بيان الجهد العظيم الذي حماه الشاعر ليجدد في الأدب العربي وليجعل الشعر صورة من الأدب العالي لا يقل في جميع نواحيه عن الشعر الفرنجي ، وقد كان عهدنا بالشعر بالشعر العربي مدهجاً وهجاء ، ووصفا ورثاء ، وغزلاً ونسيباً ، فاذا به فلسفة وقصص ، وإذا به فن يسيطر على مظاهر الحياة وقوى النفس ، واذا به دنيا عريضة ! هكذا رأينا ، ورأينا أمراً آخر قد لا يعجب المحافظين أنصار المدرسة القديمة ، ذلك هو حرية التعبير النظمي ، فله « شعر مرسل » ، Blank Verse وله « شعر حر » — Free Verse متداخل الأوزان ، وله مجازات جديدة وألفاظ وتعابير جريئة مستحدثة تجد ذلك في قصيدة « الفنان » وقصيدة « نقطة دم » وقصيدة « الرؤيا » وسواها . وهذه المسألة في الواقع تعود بنا الى بحث آخر فصلناه في غير هذا المكان ، هو البحث في حقيقة الشعر ، ولعلك تذكر ما قدمنا لك أول هذه الفصول من أن الشعر هو الكلام الجامع بين الحقيقة والخيال ، وأما مسألة الوزن فهي — على جمالها — تعد في الدرجة الثانية ، حتى

لأعد النشر الجميل شعراً أيضاً ، وهذا المذهب يوافق رأي المناطق في تعريف الشعر ، وعليه لا أرى حرجاً في الشعر المرسل بل المنشور كما لا أرى مانعاً من تداخل الأوزان أو تغيير القافية في القصيدة الواحدة ، وليس هذا هدماً بل هو بناء وتوسيع لهذا الضرب من الشعر ، ليسهل على الشعراء شرح عواطفهم ، ونزعات نفوسهم وما يشعرون ، حسب المواقف ولا سيما في الشعر القصصي وفي الشعر التمثيلي

وبهذه المناسبة اشير إلى أن شاعرنا يعني بالموضوع والمعنى أكثر من عنايته باللفظ ، فهو يحيط بعدة موضوعات ، كما يحاول الإلمام بشتى المعاني ، ثم يخضع اللفظ لذلك كله ، حتى اخذ عليه بعض الناس لسان الأسلوب وفقده الجزالة ، ولكن ماذا ينبغي هؤلاء من شاعر عصري يكتب للشعب العصري ؟ هل يريدونه على الرجوع الى الوراء ليعيد لنا عمراً فانياً من عصور اللغة ؟ ! اليس الأنسب أن يتحدث الشاعر الى الناس بما يفهمون من الأسلوب حتى يستطيع إيصال معانيه اليهم ؟ على أن شيئاً كثيراً من شعره لا يقتل جزالة عن شعر النابهين من شعراء العربية قديماً وحديثاً . وبعد ، فهل تحبون أن يحتمي مثل كثيرين من الشعراء بالألفاظ فراراً من المعنى الواضح والموضوع القيم ؟ !

وناحية أخرى اعرفها للدكتور أبي شادي ، ولعلها كبرى المسائل ، فلقد أعرفه مؤلفاً و واضعاً للروايات التمثيلية الغنائية شعراً ، واعرفه في ذلك أشد سخاء ، واسبق الشعراء الى الفتح في هذا الباب والمضي فيه اشواطاً بعيدة ، واذكر أنني فصلت هذه النقطة في تعقيبي على (بنت الصحراء) لإحدى عبراته (مرادفة أوبرات في رأي الألب الكرمل) صاحب « لغة العرب » ، ومع هذا فمن الحق القول أنه فذ في هذه

الجهة ، وان لم يتم له تمثيل إحداها للآن ، . . . فليكن سبب ذلك أي سبب ، ولكن التاريخ سيكتب له فضل سبق وفتح هذا الباب في الشعر العربي بجرأة وإقدام ، كما يثبت له كثرة الآثار وسهولة الأثر .

(١٠)

أريد أن أختتم هذه الفصول ، فلأختتمها بهذا الأسلوب الذي يعتمد إليه مؤرخو الآداب من إجمال ما يفصلون ، والإشارة إلى ما يناسب الموضوع ويتصل به ، فأقول : إن شاعرنا تيسر له وراثته جليلة ، ونشأة حرة ناتجة ، وتعليم مصري قومي ، وثقافة عالمية قوية ، وصناعة علمية دقيقة ، وبيئة حية صاحبة بالآداب والصحافة والسياسة والنهضة ، فحاثت منه شاعراً اجتماعياً فلسفياً وجدانياً عالمياً غزير الفيض سريع الإلهام .

ولأذكر هنا من معاصريه : شوقي وحافظ ومطران ، وشكري والعقاد والمازني ، والجارم وعبد المطلب والزهاوي ، وأنا اعترف لكل واحد من هؤلاء بميزاته الفنية سواء في لفظه ومعانيه وموضوعه ، فأعرف بعضهم جلال اللفظ وعظمته ، وقوة المعنى وروعته ، وأعرف لآخر محاولات حسنة في التجديد الموضوعي والخيالي ، وأعرف لآخرين رقة وقوة أسر وروح ، وأعرف لأبي شادي التجديد الكثير ، والشعر التمثيلي ، والسهولة اللفظية ، وكثرة الفنون الشعرية ، ولا تظن أنني أزيد فأوازن وأفاضل ، فليس هذا موضعه الزماني أو المكاني ، وحسبي الإشارة إلى ميزات هذه الطبقة .

ولكني أريد أن أختتم هذه الفصول . . . فبماذا ؟ بأن أعرض عليك الأسئلة التي عرضتها على نفسي منذ بدأت : هل تيسر لأبي شادي أن يكون شاعراً عالمياً ؟ وهل يمكن أبو شادي أن يكون شاعراً قومياً ؟ وهل هو شاعر وجداني . . . ؟

أحمد الشايب

السقراطية

هل هي جائزة في الشعر ؟

بقلم الناقد القدير الأستاذ محمد سعيد ابراهيم

سكرتير (رابطة الأدب الجديد)

عرض لي وأنا أقرأ ديوان (الشفق الباكي) أن أجعل لصاحبه اسماً يدل عليه وعلى شعره ، لان الأسماء المتخيرة والنعوت الموجزة اذا نفذت الى لباب المسميات لم يكن أقوى منها على الابانة عما وضعت له . وبعد مارجح لدي وقع هذا الخاطر لم يطل بي مدى البحث عن الاسم المقصود اذ سرعان ما وجدت بغيتي في شخص سقراط الفيلسوف ورأيت عن يقين ان أبا شادي شاعر سقراطي .

وقد يكون من الغرابة بمكان أن تجر رجل سقراط الى ميدان الشعر في حين أن الرجل لم يكن يعبأ به ، بل كان أضحوكة شاعر زمانه أريستوفانيز ، وكان ميلتيس الشاعر أحد الذين أقاموا عليه الدعوى التي أدت الى مقتله المشنع . ورجل هذه صلته بالشعر والشعراء — ان كانت صلة الخصومة والزراية به صلة — يستغرب جعله مضرب المثل بين الشعراء وتنصيبه مثالا يقتدى به ، لولا أن لهذا الديوان صفة فائدة

فذة تحكم وجوه الشبه بينه وبين مذهب سقراط . وشخصية سقراط - رغم قدمها في التاريخ - لاتخفى على الكثيرين ، وقليل من لا يعرف هيئته الضخمة وعينه الجاحظتين وأنفه الأفطس ، ومشيته وهو حاف في الأسواق وتحادثه الى الناس في خلقه الناصح الطيب ، ودعواه المجهل مع محدثيه ، وأخذهم بمنطقة القوي في مسائل المعرفة والواجبات المدنية والفضائل ، وكل ما قد يخطر بأذهان أهل عصره - هذه الروح السقراطية في المفلسف هي موضع التسمية التي وضعناها لهذا الديوان . وسأخذ في تبين مواضع التشابه في الناحيتين ، وبهذه الطريقة تنكشف دخائل الدوافع التي يصدر عنها شعر أبي شادي .

أبو شادي شاعر يحترف الطب ، وقد أزد له كثيراً من وقته ، واستنفد فيه شطراً كبيراً من جهده وعنايته ، وأمكنه أن يجد في مزاوله هذا العمل العلمي لذة قد يستنكرها البعض على شاعر ، وهو لهذا متأثر بالأسلوب العلمي في تفكيره ، وأثر هذا الأسلوب متغلغل في قرارة نفسه ، سار فيما يكتب من نثر ونظم عن قصد وغير قصد ، حتى أنه ليس ينمحي في تصوفه ، فتراه في قصيدة « أقصى الظنون » (ص ٣٠٠) واضح منهج التفكير لا يشوبه لإبهام المتصوفين المألوف . أما أمثلة الأسلوب العلمي المبثوثة في ديوانه فكثيرة : نخذ مثلاً قصيدة « واجب الفن » (ص ١٧٨) لترى كيف يتحرى التحديد في أفكاره ، وأحرى بأن تقرأ تلك الحدود الفنية التي بقميمها للشعر في كتاب نقد لافي ديوان شاعر ، لأن الحقائق العلمية اذا جاءت على يد شاعر أصابها من الضعف والرائثة ما يصيب الشعر من السقم والفتور . وكثيراً ما حدثني أبو شادي عن محاولته أن يهضم شعره العلم ، وكنت أجادله في عقم

هذه المحاولة التي لا يخشى منها الا على الشعر الذي لا بد أن يهضم حقاً ويصبح آلة عرجاء في خدمة العلم . فالذي أراه هو أن الشعر والفلسفة والعلم مراتب متفاوتة في ادراك الحياة وتصورها ، تختلف من حيث الابهام والوضوح ، ولكل منها حدودها التي وإن كانت متداخلة غير حاسمة الا انه يمكننا أن ندرك متى بتجاوز واحد منها حدوده ، ومتى يخرج الشعر مثلاً عن طريقه فيصير فلسفة أو علماً . وقد أدخل في روع أبي شادي أن الشعر سيصيب خيراً من صحبته للعلم ، وغاب عنه أن المدة الشعر في أن يبقى حيث هو لساناً للحس والعاطفة . وهذا وجه من وجوه النزعة السقراطية التي لا تجد المدة الا حيث توجد الحقيقة العلمية سافرة لا غموض فيها . وها هو وجه آخر لسقراطيته أشد خطراً على الشعر مضيق لحرارته ونضارته ، وهو أذيع الصفات السقراطية وأفشاها في شعر أبي شادي : وهو الروح الخلقية التي تغشاها من رأسه لقدمه ، فانك ان لم تجد ذكر الفضائل في قصيدة من قصائده فلن تخطيء معناها أو مغزاها بين الألفاظ والسطور ، وكثيراً ما يذكر الأعراض والعجور والشرف والعفة كما يذكرها أهل التقوى والصلاح ، ومن أمثلة ذلك ما يرى في « فتاة الريف » (ص ٣٥٣) و « فتاة العصر » (ص ٤٢٨) و « وفاء الدين » (ص ٥٤١) و « بأمر المحاكم بأمره » (ص ٤٠٢) و « مملكة ابليس » (ص ١٠٢٣) ونحوها كثير .

والسبب في ذلك أن أبا شادي ينظر الى الحياة نظرة خلقية تقليدية مستمدة من خلقه الموروث وعيشته البريئة الطاهرة التي لم يشبها استهتار بلادة ، ولا استرسال في دفعات الشباب الحارة ، وهو يرى أن شعره يجب أن يكون وسيلة من وسائل الاصلاح الاجتماعي ويذكر ذلك في

جلاء في مقالة « الشعر والشاعر » (ص ٤٣) ، إذ يقول : « ان أسمى ما بلغه الشعر أخيراً من غرض انما هو درس الحياة وتحليلها وبحثها واذاعة خيرها ومكافحة شرها ، وهو غرض نبيل جامع وان تكيف بصور شتى ، فقد ظهر في لباس الانسانية العامة أو في لباس الجامعة القومية والجامعة الدينية أو غير ذلك . ومن المعتقد أن يجمع بين لباسين فأكثر ، وأن يوفق ما بين تناقضها الموهوم ، وأن يكون رسول السلام ونصير الإصلاح والنهوض . هذا هو الغرض الذي بلغه الشعر عامة في جيلنا الحاضر في أرقى مواطنه » . فهو يعرف هنا ان هذه الاغراض التي يتوخاها الشعر جديدة طارئة عليه في عصرنا وهذا حق ، لأن هذا المذهب لم يعرف لشاعر من كبار الشعراء التاريخيين . ثم يتحدث في بقية المقال عن مسئولية الشاعر العامة وأعبائها وعن أساليب الدعوة ، وهذا البرنامج الذي قد يصالح لرئيس وزارة أو مصالح اجتماعي لا يجوز بحال من الأحوال — بدعوى الغيرة على الأخلاق — أن يكون برنامج شاعر . ونحمد الله على أن لمثل هذه الدعوات أناساً أقوم بها من الشعراء لينصرفوا الى ما همثوا له . وأنا أرجع هذه النزعة السقراطية الى البيئة الأدبية التي عاش فيها أبو شادي في إنجلترا ، وأعرف ان اعجابه بالكاتب الانجليزي « ولز » هو الذي أوقعه في أحابيل هذه المسائل المثيرة ، بعد ان اسنهوته مشاريعه العمرانية الخرافية ، واني اسائل من لا يزال في قابله خلجة شك في تعارض هذه المسائل مع الشعر وافسادها له أن يدلني على شاعر أجمع على عظمته قد تناول مثل هذه المشاكل ، وأن يزيني شاعراً حديثاً أو قديماً قد استقام له أمر الشعر في مثل هذا الكلام . وقد كان تولستوي امام مذهب خلقي من هذا

القبيل في الفن أفرد له كتابه المسمى (ما هو الفن) كتبه في شيخوخته ، وأحط مستوى من باقي تاليفه . وقد قلنا إن أبا شادي مدفوع في هذا المذهب بأثر مزاجه الوراثي وتذكية « ولز » لهذا المزاج ، ثم بأثر البيئة الصحفية التي نشأ فيها فتقدم كان في شبابه منذ عشرين سنة يكتب في جريدة (الظاهر) المقالات الحارة في السياسة الاجتماعية في إبان الحركة التي قام بها مصطفى كامل ، وظل بعد أن أقام في إنجلترا متصلاً بأصحاب الدعوات السياسية فصحب فريد بك في بعض سفراته في أوروبا وروج للقضية المصرية في بعض الأوساط الانجليزية حتى كتب اسمه في سجل المشاغبين السياسيين ، وسعى أيضاً في إيجاد ناد مصري في لندن ، فهو لهذا لا يفتأ يمزج الشعر بالسياسة والمسائل الاجتماعية ويتخذ منبراً للوعظ والتهذيب حتى خلق لنفسه نقاداً كثيرين لم يألفوا هذه النغمة بين الشعراء .

وإذا كان الحوض على التفاؤل ومحاربة الشرور من أشرف الغايات التي يدعو إليها انسان فان الشعراء يجب أن يكونوا آخر من يدعو لذلك صراحة في شعرهم ، فكفاهم أن يشعروا العالم بلذة التعبير الفني عما في الحياة ، تاركين للوعاظ والمصلحين وظيفة الوعظ المملولة الكريهة . ويتصور الشاعر الخلقى ان الحياة قد أصبحت يوماً فاذا الابالسة قد ارتحلت عنها وحملت معها شرور الدنيا وآثامها ، وأصبح الخير حاكم الدنيا الاوحد لا ينازعه فيها منازع ، وجاء الشاعر يرسم ظلال هذه الدنيا الموهومة الباهتة : فأبي شعر سوف ينشده ، وأية حرقه شوق سيثيرها ، أو فرحة قلب مصدوع يختلج بها شعره ، أو أمل سيبقى يذكره اذا كان الحال كما يتصور من الاستقرار المميت ؟ !

ولو ان فحول الشعراء الذين خلدت اسماءهم كانوا وعاظاً
ودعاة اصلاح لما ابيح لنا أن نستمتع بأثر فني واحد . ولا داعي لان نقيم
الحجة على فساد خلط الشعر بالأخلاق ، فإن هذا يعد في عصرنا من
الأمر المقطوع بصوابها ، ومحاولة الخوض فيها تطول .

ومن خواص الروح السقراطية اعتقادها ان الفضيلة مبعثها المعرفة ،
أو انها المعرفة ذاتها ، وأنها موصلة للسعادة ، وأنه لاخير الا ما أتت
به وأن الناس لا يأتون شراً إلا لجهلهم . وهذا ما نرى واضحاً في
قصيدة « لانسانية » (ص ٣٩٥) التي يقول فيها :

ما زلت سابعة بتيار الدم

فتنبهني من قبل أن تنهمني

وتعلمني سر النجاة وحقي

معنى الحياة بحكمة المتعلم

مرت ملايين السنين فهل كفت

لتنفهم الدنيا ونفص توهم؟

فهو يذكر هنا مر الأجيال من غير أن ينفص الناس أوهامهم
 ويفهموها على وجهها الصحيح ، كأن سعادة الإنسانية ورخاءها مسألة
معلقة على نفص الأوهام والوقوف على أسرار الحقائق ، ان كان
في الدنيا حقائق ثابتة . والسقراطيون متفائلون لأنهم يؤمنون بمقدم ذلك
العصر الذهبي الموعود الذي سوف تنفص الانسانية عنها مصائبها فيه
وتستقر ويرفرف على ربوعها السلام . على ان التفاؤل في توقع هذا
الحلم اللذيذ يكفي لاطارته عن جفونهم أن يفتحوا عيونهم على الواقع ،
ليروا ان العلم لم ينقص صولة الأثم مقدار ذرة ، وأنه لمن الصواب أن

توهن سند هذا الضرب من التفاؤل ، وأن تجنب الشعر طريقته ، وخير لنا. أن نسيغ الحياة على انها ظاهرة فنية جميلة يسترج فيها الخير بالشر امتزاجاً لا يشوبه نقص. ، من أن نعلها ظاهرة خلقية ترى الخير فيها على الدوام يصارعه الشر ، فلا هو بقادر أن يصصره وينبئه عنها ولا هو راض أن يشاطره الحياة ، ونقف نحن ازاء هذه المعركة نبكي الخير المغلوب على أمره في كل زمان ومكان .

وتفاؤل أبي شادي هذا قد صرفه عن تصور الجوانب المظلمة من الحياة ، لأنه يعتقد ان رسم جوانبها المشرقة بلسم يأسو جراح الناس ، فهو يقدم لهم ما يستطبون به من غلو الشعراء المتشائمين في عبوسهم وتشويهم وجه الحياة . وهو لذلك يرينا الحياة على نحو فاتر قد افقر من الأسى والأثم ومن ضروب المكاراة والمصائب . وأخرى بمن عرف الدنيا على هذه الصورة الباهتة أن يحموه اليأس اذا التقى بوجهها العابس وواقعها الملموس .

فهذه الصورة التي يحاول أن يموهها الشاعر اشفاقاً على الناس تؤدي كما ترى إلى عكس المقصود منها ، فضلاً عما فيها من النقص في التصوير . وان من أكبر ما آخذ على أبي شادي حقاً ويشعر به كل من يقرأ أن تنعدم في شعره روح المأساة التي يجاهد أن يخفيها في نفسه اذا عبر عنها ، فهو يكتّم أحزانه ويأسو جراح قلبه من غير أن يظهر لنا أثر في شعره ، ظاناً أن تكشف الرجل أو الشاعر عن أحزانه ضعف لا يحسن القول فيه ، ولا يجمل بالرجل الجليلد أن يسترسل فيه . وهو قد انضب في نفسه بهذا المسالك يتبعاً حاراً من الشعر كان الاولى أن يترك على سجيته في البحران . وإذا كان أبو شادي في

حاجة إلى دليل على ما في روح المأساة من ذخيرة لطبيعة الروح ، فليُنظر في أثر المآسي اليونانية على شاعريها ، وهل كانت تليّن صلابة العزائم أم كانت تصفيها من أوشابها وتسمو بها إلى شأو من العظمة يذنيها من الأرياب .

هذه هي المواضع التي تبدو لي من سقراطية أبي شادي ، وهي كما ترى مضغفة لروح الشعر ولو أنها جميلة بنفس صاحبها ، وهي روح أولى أن يتصف بها علم العلماء ونقد الناقلين . وشعره لا تتجلى فيه الروعة والحرارة إلا حيث ينسى هذه النزعة الخلقية ويتخلص قليلاً من وثاقها ، وينضو عن نفسه مسوح الصلاح التقاة . فمتى وجدت أبا شادي يدفع عن نفسه طائلة ناقد أو لائمة لائم على مثال ما يرى في قصائد « نقد الشعر » (ص ٨٢) والطبيب (ص ١٩٧) وحياتي « (ص ٤٦٥) ، أو حيث يخرج عما ألفه فيكشف عن ألمه وحزنه كما ترى في قصائد « جزائي » (ص ٤٣٤) و « توبة الحب » (ص ٤٤٩) و « صحبة الالام » (ص ٤٥١) فهناك تجد أبا شادي ناصع البيان حار الأسلوب .

وقد اتخذت سقراط وفلسفته فيما كتبت عن أبي شادي مجرد وسيلة لأبين مأخذي عليه كشاعر لا على الفلسفة السقراطية ، وحشرته في زمرة السقراطيين لا لأن السقراطية مذهب خاص يتبع في الشعر ، وإنما كان ذلك سعيًا في إخراجه من زمرةهم ، لأن السقراطية نزعة علمية خلقية لا تنفق مع روح الشعر مطلقاً .

واجتزأت أيضاً في جوهر (الشفق الباكي) ومراميه ، ولم اكتب شيئاً عن أسلوبه اللغوي ومادته ، ولم أقف ككثير من النقاد

أمام كل بيت من الشعر لأقول هنا أجاد الشاعر وهنا أخطأ ، وهناك ضرورة التزمت أو خبئة لحقت بهذا البيت أو ذاك ، إلى آخر ما هنالك من ضروب المآخذ اللغوية والعروضية التي قد يتورط فيها الشاعر ، كأن عمل الناقد أن يعقب على كل كلمة بكلمة ، وكأن ديوان الشعر كراسة تلميذ لا تجري فيها الا مباحض النحو والعروض ! ! ولإني أترك هذا لفقهاء اللغة الذين جعلوا هذا العمل ديدنهم في الشعر ، وأعيذ القارئ من ملال هذا الاستعراض الذي تعني منه نفسه ، والذي اتخذ المشايخ في السنين الأخيرة بضاعة لهم ، عوضاً عن الفتاوى الشرعية التي بارت تجارتها وعفى عليها الزمان ! ولكن لي كلمة قصيرة في أسلوب الديوان لأبأس من إيرادها : فأنا أعرف أن أبا شادي يتوخى في الأسلوب ما يدعوه تمصيراً للغة ازاء من ذهبوا إلى لباس اللغة ثوب الاستعراب والبداوة ، وهو متأثر في هذا إلى حد بمطران . فإذا كان مطران نفسه يأخذ عليه شاعر كحافظ شيئاً من الضعف في الأسلوب فما بالك بمن يجري خلفه في هذا السبيل ؟ ولذلك لم يسلم أبو شادي من اتهام الكثيرين له بضعف الأسلوب . ويمكننا الردّ على دعوى تمصير اللغة بالإشارة إلى أساليب نوابغ شعراء العرب الذين لا يزال شعرهم يروى للآن ويستعذب ، ولا نجد فيه ما يتنافى مع تذوق المعاصرين للأساليب اللغوية ، واننا لانعدو الصواب إذا قلنا إنّ الأسلوب العربي القويّ البليغ بليغ في كل زمان ومكان .

وبعد ، فان لسقراطية أبي شادي وغيرته على الحق واحلاله من

نفسه محلاً يؤثره على اطراء الاصدقاء له دليلاً أخيراً يلمسه من يقرأ
هذه الكلمة التي أبى عليّ الا أن أسجلها في ديوانه !

وليس يخاف بعد ذلك ان رأيي هذا في أبي شادي ليس آخر
ما يقال فيه ، فسوف يعتريه التغير الذي يغير كل شيء ، وسوف
يغير من صاحب الديوان ومن مذهبه في الشعر . (والشفق الباكي)
لم يزد أغلبه على كونه ثمرة ما يقرب من سنتين من حياة في الأدب
والشعر لا يزال هو في مطالعها ، والأيام المقبلة تدخر له الشيء الكثير .

محمد سعيد ابراهيم

لما سئل سقراط الى أي ملكة ينتسب اجاب : « الى العالم ، وذلك لأنه كان يعتبر
نفسه مستوطناً للعالم بأسره واحد ابنائه .

عن (سيسرو - Cicero)
الخطيب الفيلسوف الروماني

للادب غايات غير التسلية المأمونة للرجال الكسالى الواهنين .
عن (كارليل - Carlyle)

« يمثل الأدب الذهن الذي هو دائم التقدم ، حينما تمثل الحكومة النظام الذي هو
دائم الثبات .

(بكل - Buckle)

الأديب المؤرخ الانجليزي العظيم

شعر التسامي

للكاتب العبقرى المتنن الاستاذ سلامة موسى

أخى الاستاذ أحمد زكى أبو شادى

أرسلت إليّ « الشفق الباكي » ودعوتني إلى أن أخبرك عن رأيي فيه . وأنت تعرف أنى لست شاعراً ، لم أنظم بيتاً قط ، ولكنك تستند بالطبع إلى أنى أديبٌ وأن الشعر أصيلٌ في نفس الأديب ، وإن الشاعرية بل الإيقاع نفسه يتضح في النثر الجيد والاسلوب الرصين ، وكلنا مع ذلك ينتقد الصورة ولو لم يكن رسماً . وقد نشأت على أن أتذوق القليل من الشعر العربى بل أنى لا أكتملك كراهتي للملوك الشعر العربى كالمثني وأضرابه ، وحي لصعاليكه كأبي نواس والبهاء زهير ، وقد ملت إلى الشعر الاوروبى وخاصة الانجليزى الذى لا أظن أن فى العالم شعراً يساويه ولا أقول يسمو عليه . وما ذلك الا لأن لفظة « الشاعر » عند الاوروبيين تعنى العامل المبتكر ، وهى عند العرب تعنى المغننى لأن « الشعر » مشتق من « شبر » العبرانية بمعنى الغناء . ومن هنا صار من تقاليد الأدب عند العرب أن يقصر الشاعر مجهوده على الزخرفة اللفظية ، بينما هو يبتكر ويبتكر عند الاوروبيين . وأى شيء أدل على الابتكار من الدراما التى عرفها الاوروبى وجهلها العربى ؟ !

ولست أستقل شأن الابقاع والغناء والزخرفة اللفظية في الشعر ،
 فلاني أكاد لا أعرف ميزة أخرى للبه زهير ، ولكني وأنا أقرؤه
 أشعر أني ألهو كما أظن أن هذا كان شعوره عندما كان ينظم . ولكني
 عند ما أقرأ شعراً أوروبياً وخاصةً انجليزياً أشعر أني أعالج مع الشاعر
 موضوعاً سامياً لا مجال فيه للهو اذ هو عين الجدل . واذا كنت ألتذ ما
 فيه من ايقاع فأنا تعود هذه اللذة إلى زيادة الشعور بالجد ، وما في
 موضوع القصيدة من خطر . وقد يتوهم الانسان من وقار المتنبي
 وقوته على الاداء أنه جاد لا يلهو ، ولكن الواقع أنه أكثر الشعراء
 جداً في اللهو . وأي لهو أكبر من أن يضيق الشاعر وقته وعبقريته
 في مدح الامراء وهجوهم ؟ !

وقد ورثنا نحن هذا التراث عن شعراء العرب ، فنشأ شعرنا
 في نهضتنا الحديثة على احتملائهم في الاسلوب والغاية ، وفي الاكبار
 من شأن الصنعة اللفظية . بل نحن ما زلنا في النثر نتحرى اللفظة الرشيدة
 والعبارة المنمقة ولو كان فيها التضحية بالمعنى ، أو ضياع وقت
 القارئ فيما لا يفيد . ومع أن كثيرين من كتابنا يدعون كراهة
 السجع ، فانك تراهم من وقت لآخر وفي طيات عباراتهم يخالسون
 القارئ ويدسون له سجة قد انطوت على مترادفات يعرفون هم أنه
 لافائدة منها للقارئ وأنه لا يدفعهم اليها سوى التقليد ! وأكاد أقول
 إن المحسنات اللفظية والاعراق في الصنعة والتزويج إلى تأليف النغم
 كل هذه خصال تكاد تكون أصيلة في اللغة العربية ، وهي من البواعث
 المثبطة في التأليف عندنا ، لأن المؤلف الذي يعرف موضوعه وقد
 حلته درساً وبحثاً يخشى الاستهداف للنقد ، لأنه يظن أن عجزه عن

الصنعة اللفظية سيعاب عليه ، وان هذه الصنعة ستحتاج منه إلى مجهود كبير ، فهو لذلك يحجم عن التأليف !

ومما يدل على الاكبار من شأن الصنعة عندنا أن في البلاد الآن حزبين كبيرين يتنازعان السلطة أحدهما « الوفد » والمحرم الظاهر في صحيفته هو العقاد ، والثاني هو حزب « الأحرار الدستوريين » والمحرم الظاهر في صحيفته الآن هو المازني وكلاهما كاتب صنعة بضاعته تميم الألفاظ وتزويق العبارات ، أما الدرس والثقافة فلا قيمة لهما عندهما . فلاتشك بعد ذلك في أن جمهور الأمة يحب الصنعة من النائر ، أما حبه لها من الشاعر فواضح في جميع شعرائنا الظاهرين .

وعلى هذا سأنتبأ لك منذ الآن بأن الناقد سيعيبون عليك قلة عنايتك بالصنعة ، وبأن ألفاظك عامية غير شعرية ! أما مقاصدك العليا وعناياتك السامية فسيضربون عنها صفحاً ، وذلك لأننا على الرغم من صيحات التجديد التي تتكرر أمامنا ما نزال نعيش من حيث الأدب في القرون الوسطى . ومعظمنا إلى حد ما أزهري يقول بالنقل دون العقل ، وكما يكره « الاجتهاد » في الدين كذلك يكرهه في الأدب ، وكما أن البدعة ضلالة في الدين كذلك هي ضلالة في الأدب !

أما أنا فقد انطلقت من القرون الوسطى وصرت لا أجد النجاة الا في البدعة ، وهذا ما جعلني أنبه إلى شعرك وأتوسم فيه التجديد . ولعل توافقنا في الغايات الأدبية قد زاد اعجابي « بالشفق الباكي » فانك تدعو فيه إلى الحب بينما غيرك يدعو إلى الكراهة والبغض . وتدعو إلى الإخاء الانساني والوطنية العالمية وكسر شرمة التعصب القومي والوطني والديني ، وهذه دعوة يعدها أحد أدبائنا — إما لؤماً وإما

جهلاً منه - شيوعية ، وقد دعوت أنا بالنثر إلى ما دعوت أنت إليه بالنظم .

وفي شخصيتك وجمعك ما بين العلم والأدب ما يدعو إلى التفكير . فالعلم في اعتقادي يحتاج إلى الذهن الذي يحلل ويرد إلى الأصول ، بينما الأدب وخاصة الشعر يحتاج إلى البصيرة وإلى التأليف دون التحايل . وأنت جامع بين البصيرة التي ترسم لك الغايات ، وبين الذهن الذي يرشدك إلى هذه الغايات ، وهذه ولاشك عبقرية . وربما لم يكن خلواً من الدلالة على شخصيتك انك جمعت بين العلم والشعر في مهواتك التي هويتها وعلقت بها وهي تربية النحل . فأأي شيء هذه المهواة : أعلم أم شعر ؟

ثم ان العالم فيك ينشد الحقيقة والواقع ، ولكن الشاعر لايقنع بهما ، بل هو يلبسهما ثوب الجمال وينحو بهما نحو المثل الأعلى . أفلا تظن أنه يجب أن يكون للانسان شخصيتان لكي يؤدي هاتين المهمتين ؟

أقد أخذ عليكم بعضهم نشأتكم العلمية ، وانها تحول دون تنمية الروح الشاعرية ، ولكني لأرى في ذلك شيئاً تؤاخذون عليه ، عليه ، بل أعتقد أن العلم يؤاقي الشعر كما يؤاقي الذهن البصيرة بأن يمدّها بالطرق والوسائل . ولاعبرة بأن تكون لكم شخصيتان بدلاً من شخصية واحدة . وماذا يمنع أن يكون لأحدنا ثلاث أو أربع شخصيات ؟

النقد والشعر

بقلم الناظم

أذكر قبل الحرب الكبرى بستين — أي في بدء إقامتي بالإنجلترا — أن حركة التأليف الشعرية كانت كاسدةً نظراً لقلّة إقبال الجمهور في إنجلترا على الشعر العصري ، فكان ذلك موضوع الشكوى المرّة وحيثُ تأمر بعض الشعراء والناشرين وتعاونوا معاونةً جميلةً نهت الجمهور من غفلته ، وكان بين أساليب دعايتهم أجزاء المنتخبات الموسومة (Georgian Poetry) التي ذاعت ذيوماً كبيراً وخدمت الشعر العصري الانجليزي خدمةً كبرى ، دع عنك ما كانت تنشره الصحف اليومية والاسبوعية من تشجيع وإعلانات أدبية وتقاريط ونقد تحليلي ، فراج التأليف الشعري وتساوق الشعراء لخدمة النهضة الأدبية ، وما يزال صدى جهدهم يرن في المحافل الأدبية حتى يومنا هذا .

ونحن في مصر في الوقت الحاضر نعاني ما كان يعانيه شعراء الانجليز منذ جيل ، فطلبة المعاهد ما زالوا يؤمنون بخرافة « المعلقات » وبالشعر القديم باعتباره المثل الأعلى للشعر العربي قديماً وحديثاً ، ويحسبون الغنى الأدبي في استيعاب ذلك الشعر وحده . وخاصة القراء

— ولاسيّما من تربوا تربيةً فرنسية — ما زالوا يحنّون إلى شعر الألفاظ الرّنانة والتهويل والمبالغة دون التفات كافٍ إلى الشعر الجديد وجمهرة القارئ لا يعينها إلاّ شعر الشهرة وإن انحطت درجته الأدبية ، ويعنون أكثر من ذلك بالأزجال — وفيها الصالح القليل والطالح الكثير — فيجري وراءهم عبّاد الصيت من مشهوري الشعراء الذين لا يحنّون لغير الشهرة ولا يعتبرونها وسيلة ، بل غاية فتانة هي حلمهم الدائم ، ويسابقون شعراء العامة في نظم الأزجال بمبتذل المواضيع والأغاني ! وصحافتنا — رضي الله عنها — لاتعني كذلك بغير الشعراء المعروفين ، وإن نال معظمهم شهرته في غفلة الزمان ، ولايعاونها غالباً أحدٌ من النقاد الضليعين التزيهين ، وأكثر نقدها هراء في هراء وأغراض ومجاملات . وأولئك شعراؤنا الأفاضل متخاذلون مغرورون بغير إنتاج يساغ بجانبه ذلك الغرور ، وهم كلّ منهم أن يعدّ الشاعر المعلّى في جيله ، وبينهم من تفتّن في العظمة المصطنعة وفي أداة الحسد دون أن يفهموا لائحاء الأدب وللتعاون الأدبي قيمةً أو معنى ، متغافلين عن القدوة المثلّى البادية في مجتمعنا الأدبي بين إخواننا اللبنانيين وبين أقرانهم النابهين في أمريكا .

فوسط هذه الظروف يشق كثيراً انهاض الشعر العصري — فالوسائل المادية لتأليف ندوة للشعراء ومجلة خاصة بهم ومسابقات تشجعهم شبه معدومة للأسف ، وذلك لأنّ القادرين عليها أنانيون ماديون ولايعنيهم غير أن يحرصوا على ظهورهم الشخصي . وهذا مما يشبّه همم الشعراء الناشئين المجيدين الذين لايملكون وسائل الدعاية الصحفية في قطرٍ شبه أمّي ، قد يدرّ جيلٌ كاملٌ أو أكثر قبل أن

يلتفت أهله إلى الأدب الحديد بغير تنبيه لهم وإلحاح عليهم ، لاسيما وقد يسوق الحظّ إلى أولئك الشعراء صنوفاً من المقاومات التي قد تقضي على كلّ أمل لهم في فائدة جهدهم للناس وللأدب !

وقد شاءت الأقدار العنيدة أن تجمع بين ايماني بعقيدتي واتهامي شخصياً بلهدي . ، وكذلك بين رغبتني القوّة في أن لا يذهب عملي مدىً ورغبتني في تشجيع النقد الشريف أيضاً ، وإن كان فيه إصغار ذلك العمل . فاذا بي أراني في تناقض معقول وإن لم يفهمه من يجهلني فبينما أقدر لنفسي ولزملائي قيمة الاعلان الادبي المعتدل الشريف الذي يؤدي إلى الانتباه إلى ذلك العمل ، أرفض رفضاً باتاً التقريظ الداشيء عن محض الرغبة في التقريظ ، ولا أظن أديباً مثقفاً يحترم نفسه يعنى بالتقريظ بقدر ما يعنى بالنقد الحر التزيه الذي يخدم القراء والأدب والمؤلف على السواء ، وأقصى ما يهمه - وإن طال الجهد - انما هو النجاح الأدبي لا التطويل والتزمير .

فبين هذه العوامل أرحب بكل نقدٍ وتحليلٍ ، وألتمس من القارئ المستقل أن لا يحمل ما بين دفتي هذا الديوان من أبحاث دراسية على محمل الاشادة بجهد الناظم ، فكلّ ما فيها من تقدير ونقدٍ لن يغير الواقع مثقال ذرة ، وانما فائدته العظمى في تنبيه الاذهان واستنطاق (interrogation) العقول ، بعد خمولٍ فكري طويل وفائدة ذلك لاتعود على الشاعر وحده وانما على شعراء جيله جميعاً ، فالكل تقريباً مغمورٌ في تيار الاغراض والشخصيات والأناثية والخمول . ولولا هذه الغيرة على النهضة الأدبية العصرية لآثرت خلويّ جميع تألّفي من فصول تحليلية ، لأنني شخصياً أبعد ما أكون

عن الرضى عن نفسي ، وهذا من العوامل القوية التي تحفزني إلى الدأب المتواصل ، وأعدّ مقياس الشعر المقياس الكوني والانساني العام ، لالمقياس الوطني المحلي فحسب . ومن يصرح هذا التصريح جهاراً ومراراً في كل مناسبة لاحاجة به إلى الاطراء في مواقف الدراسة الجدية ، وإن احتاج اليه أحياناً في مجال الدعاية الشعبية لايقاظ الرقود وتوجيههم إلى عمله وعمل أقرانه فلا يسعه اذن إلا أن يسخر من العاجزين العابثين الذين يتناولون إلى الأخلاق وينتقدون باسمها ، بينما هذه الأخلاق بريثة منهم إلى يوم القيامة ! !

فليطمئن اذن القارئ والناقد اطمئناناً وافياً إلى هذه الحقيقة حتى يشتركا بعد ذلك بنفس صافية في ما يستحقه هذا الديوان من دراسة أدبية سواء بالقبول أو الرفض ، وليذكره دائماً واجبهما نحو الشعر العصري عامة ، إن نسيا حق ناظم هذا الديوان خاصة ، فأنا لا أعرف الاعتداد بالنفس إلا في موقف الدفاع من أجل الأدب الحرّ وحده ، ولا أعتبر هذا الديوان بالنسبة لآمالي وواجبي إلا خطوة صغيرة إلى الامام ، وكل صورة غير هذه لنفستي إنما هي من تصوير الجهل أو الغرض الأعمى لمن يستمتعون بالهدم والصغار بدل البناء الشريف .

* * *

بهذا الروح وبين هذه الظروف أراني مطالباً بالتعلق على أهم ما يوجه إليّ الآن في بعض المجامع الأدبية والصحف فضلاً عما في ذيل هذا الديوان من نقد لأنه ليس من العدل أن يتحمل صديقي

الناشر هذا العبد ، وان شكرت له فضله المتكرر عليّ وعلى الأدب
العصري في مواقف شتى سابقة .

(١) في طليعة هذا النقد من وجهة نفسية متجلية في شعري
يبي فكرة التعاون والائحاء الأدبي ، فهذه الفكرة معدودة من سيئاتي
الأدبية ! وهذا نقد لا أفهمه إذ أني لا أتصور أن الفردية الأدبية أو
الأناية مزية عظيمة للأدب أو للأدب ، أو أنها عماد للثقافة ، بل
أرى الواقع عكس ذلك كما أسلفت ، وأعتبر النهضة الحقة
ولادة التعاون . ولن يعني التعاون تنازل الأديب عن آرائه أو أساليبه ،
وانما يعني التآزر على إظهار أنواع الجمال الأدبي في بيئته ، وهيئات
أن تقتصر هذه على إنتاجه وحده ! ولكن هذا النقد غير عجيب
في بيئته يريد كل فرد ممتاز أن يكون دولة متفردة مستبدة ،
وينسى فروض التربية الاجتماعية مصغراً دائماً من شأن سواه ، ويتعلق
بالصيت ذلك التعلق الذميم الذي وصفته في قصيدتي « الشهرة » (ص ١٠٣٧) .
بين هؤلاء من يعد الايحاء الأدبي تملقاً ورياءً ، حينما
يعد السكوت تقصيراً وحسداً ، وبينما يعد النقد الحر النزيه حقداً
وعداً ! ! وهذه نفوس مريضة لا منطق لها ولا ثبات ، وإنما لها
أهواء وأوهام وسخائم تحيا بها تحتقر التعاون الشريف وتهزأ
بأصحابه ، ويرى كل فرد انه هو وحده الجبار العظيم والعبقري
الفلذ الذي ينبغي أن لا ترفع رأس إلى جانب رأسه ، وان يقضي
قضاء مبرماً على كل أدب سوى أدبه ، بل تبلغ الصفاقة ببعضهم إلى
أبعد من هذا التبجح ! فبالله قارن بين هذا الروح الأناي الخبيث
وذلك الروح الأدبي الخالص الذي أنشأ (جمعية الشعراء -

Poetry Society) الشهيرة في لندرة، وكذلك نظيراتها من الجمعيات الأدبية
 التعاونية المثمرة في تلك العاصمة وسواها من عواصم الغرب ، دع
 عنك جمعية (الرابطة القلمية) التي أسسها اخواننا السوريون في
 نيويورك ، فنهضت نهضةً مأثورةً بأدبهم الجديد . فكيف يعد شعوري
 هذا دليلاً على ضعف أدبي ؟ ! ! وهل نسي هؤلاء المثل العالي الذي
 ضربه الشاعر الانجليزي المجيد روبرت بروك (Rubert Brooke)
 الذي فقدته الشعر في شبابه فعوض عن فقدته بروحه التعاونية النبيلة ،
 إذ أوصى بأن يخصص دخل تأليفه لنشر آثار ثلاثة من أقرانه الشعراء
 المجددين ، وهم الاستاذ (لاسل أبركرمي - Abercrombie
 (Prof. Lascelles) و (ولتردي لامار - Walter de La Mar)
 و (ولفر دجسون - Wilfrid Gibson) وقال إن غرضه أن
 يساعدهم ذلك على التفرغ للانتاج الجميل بدل أن تعوقهم الشواغل
 المادية عن إظهار أحسن ما عندهم ، وأن هذا خير عزاء له في وفاته .
 وها قد مرت أعوام طويلاً منذ وفاة بروك في خلال الحرب الكبرى ،
 وما يزال شعره وخلقه العالي مذكورين أشرف ذكر ، وهذا نظمه
 يقبل عليه الجمهور الانجليزي أعظم إقبال . فلم تكن روحه التعاونية
 إذن دليلاً على ضعفه الأدبي ، ولا منافية « للفردية » (Individualism)
 المعقولة ، بل خدمت شعره وذكره أجل خدمة وما أساءت إلى الشعر
 الانجليزي بل ساعدت شعراء آخرين مجيدين على اظهار أحاسن
 نظمهم . فكيف تجوز بعد ذلك السخرية مما هو جدير بالتشجيع
 والتقدير ؟ ! ! وكم من شعراء مغمورين في مصر لهم حسنات فائقة
 لا يستطيعون مادياً إذاعتها في كتب ، وقد يلاقون أولاقوا عند محرري

الصحف أيضاً ما كفاهم من تشييط الهمة ، فكم يكون ربحهم و ربح الأدب عظيماً باذاعة مجموعة سنوية لهم مختارة من أحسن شعر العام ؟ ولكن هذا لن يكون ما دامت روح التخاذل متفشية بين أدباء مصر كما هي متفشية بين ساستها ، والنتيجة في كلتا الحالتين واحدة : وهي الخسارة المستمرة . فمن هو أولى إذن بالنقد والتثريب ؟

* * *

(٢) السقراطية : هل هي جائزة في الشعر ؟ — سؤال يوجهه إليّ وإلى جمهور الأدباء صديقي الأستاذ محمد سعيد إبراهيم بأسلوبه الصريح الجميل ، وخبراً فعل بطرقه هذا المروضع الجدير بالمناقشة والتصفيه . خير لي أن يخالفني الآن ثم يتفق معي آجلاً من أن يكون الحال عكس ذلك .

لقد كان سقراط في أول نشأته مثلاً ، أي رجل فن ، كما كان والده مثلاً كذلك ، بل كان أحد المساعدين لفيدياس — (Phidias) ، فلم يكن فنّه هذا بالذي يحجب عنه نور الحقيقة بل كان داعياً له إلى التأمل في الحياة والوجود ، ومبغضاً لإياه في السفسطين المغالطين . فانتقل من هذا إلى واجب مقاومتهم في سبيل نصرته للحقيقة ، ولما عظمت نفسه أحس بواجب تدريب أبناء وطنه على التفكير والبحث في أسباب الأشياء وعللها ، وطرح المناقشات العقيمة التي يعتمد عليها للمغالطة ، واستبدلها بالمنهاج البحثي المؤدي إلى معرفة الحقيقة . وعلى رأي الأستاذ برندون J.A.Brendon كان الأثينيون يعتقدون أن الخير في أن تكون عظيماً ، فجاء سقراط

يعلمهم أن العظمة هي في أن تكون خيراً ، وإن الحياة المستقيمة
أكرم وأعظم من مجرد الغنى المادي .

ولهذا كان شديد السخط على رجال السياسة وعلى رجال المادة
الذين نظروا للانسانية كأنها آلات ومتاع وأرقام ، ويشبهه في سخط
هذا فيلسوفنا الاجتماعي العصري ه . ج . ولز (H.G.Wells) الذي
أحترمه حقاً ، ولا أعتبر آراء الاصلاحية محض خيال لن يتحقق ،
فهي سائرة في سبيل التحقيق التدريجي أمام أعيننا ، وفي مقدمة قرائه
المتأثرين به رجال التفكير ورجال الحكم المستنيرين في أمم شتى ورجال
الماسونية وسواهم من العاملين على توحيد الانسانية وتثقيفها وتأخيها .

كان دأب سقراط أن يبرهن على جهل الناس في معظم ما يتحدثون
عنه إذ يلقون أحكامهم جزافاً ، فما كان أحوج أئينا إلى مثله ، بل
ما أشد حاجة هذا العصر أيضاً إلى أمثاله . فقد كان بحاجة نفسياً خلفياً ،
ومفكراً محللاً إلى درجة مدمشة ، ولما أعلن الوحي القدسي (Oracle)
في دلفي انه أحكم الاغريق وأحصفهم لم يقتنع بهذا الحكم - برغم
فحصه له وتحليله وتطبيقه على عقلاء أمتة - الا مستنداً إلى حكم
آخر من استنتاجه : وهو أن غيره من الرجال لا يعرف شيئاً ثم يدعي
المعرفة ، حينما هو (سقراط) لا يعرف شيئاً كذلك ولكنه يقر
بجهله ! وكان يخالف الناس في اعتقادهم ان الشيء المقدس هو
مارضيت عنه الآلهة ، ويسأل لماذا لا يكون العكس هو الواقع : أي
ان الآلهة تسر من الشيء لأنه مقدس في ذاته ؟ ! ورجل هذا شأنه
لم تكن نأسره الخرافة فكان يسخر من تفاسير الجهل للميثولوجيا
اليونانية التي تعتبر الآلهة طلاب شهوات ، وكان يعد هذه الآلهة .

التي تتحدث عنها الأساطير بمثابة رموز لإله واحد عظيم . فهو لم يكن ملحداً وإنما كان متديناً مفكراً ، وكان إلى جانب ذلك شديد الحرص على كرامته عظيم الشمس ، فلم يقبل أن يتزلف إلى قضائه الآثمين وأبى إباءً أن ينال حرите من السجن هرباً واختلاساً . فعده تلميذه أفلاطون لذلك « خير الرجال في زمنه وأحكمهم وأعدلهم » ، وما يزال معدوداً أعظم الفلاسفة الاغريقين شعوراً بالروح المسيحية قبل ظهورها .

فهذا الرجل إذن يصور في تفكيره ومراميه مثلاً من مثل الانسانية العليا التي هي رجاء الحاضر وعزاء المستقبل ، وبعد هذا نسأل عما اذا كان يجوز تطرق السقراطية إلى الشعر كأنما هذه السقراطية هي خطب منبرية جافة ، أو أناشيد ببغاوات لاحياة ولا شعور فيها ، وليست ذخيرة عواطف نقيّة وفلسفة جميلة ومبادئ ملهمة . وما هو الشعر إن لم يكن التعبير الحار عن شعور النفس وإيمانها ؟ فكل ما يطلب فيه أساسياً صدقه وإخلاصه لنفسية الشاعر ، سواء أذان الشاعر بالسقراطية أم لم يدن . على أن أرقى الشعر ما اتصل بالحياة اتصالاً واتجه بها إلى مثال عالٍ مسعدي ، وما كانت السقراطية الا أحد هذه الأمثلة .

فأما طريقة سقراط في البحث فهي شبيهة بطريقة ديكارت (Descartes) كما أشار الدكتور طه حسين إلى ذلك في كتابه القيم [قادة الفكر] وإن فرقت بينهما عشرون قرناً ، وأما الفلسفة السقراطية فهي — على ما أجملها الدكتور طه حسين — « تنحصر أو تكاد تنحصر في شيئين : الأول ان الانسان قد جهل نفسه في

جميع العصور المتقدمة ، وان جهله نفسه هو الذي حمله على أن يلتبس في الخارج فيبحث عنه مرة في الأرض وأخرى في السماء وحيناً في الجو وحيناً في الماء ، وكان الحق عليه أن يبدأ بنفسه فيدرسها ويتبين أمرها ، حتى اذا فرغ منها استطاع أن ينتقل إلى الخارج . وليس هو في حاجة إلى ذلك ، لأنه لن يفرغ من درس نفسه أبداً ، ولأنه سيجد في نفسه اذا درسها كل شيء . الثاني أن الفلسفة يجب أن تقوم منذ اليوم على معرفة النفس والعالم بها ، أي ان الفلسفة يجب أن تكون انسانية ، أي ان الفلسفة يجب أن تقوم قبل كل شيء على «الاخلاق» . وهكذا كان سقراط واضع علم النفس الانسانية والاخلاق ، واذا كان الأدب عامة - وفي طليعته الشعر - نقصد الحياة ، فكيف نتساءل عما اذا كانت السقراطية جائزة في الشعر ؟ ! الشعر عاطفة يعبر عنها ، ولكن العاطفة ليست إحساساً مجرداً إذ لها جوانب شتى من التفكير والرأي والايمان متصلة بها ومؤثرة عليها فلا يمكن فصلها عنها ، وكل ما يعيننا أن تكون هذه العاطفة صحيحة صادقة . ولاني أعرف ان صديقي الناقد الغيور معجب ايما اعجاب بالمتنبي الذي يعتبره أعظم شعراء العربية وتاجها المعلى - وليس هذا موضع مناقشته في هذا الرأي - فهل فقد المتنبي شاعريته حين قال :

وما الحسن في وجهه الفتي شرفاً له

اذا لم يكن في فعله والخلائق

وحين قال :

شرّ البلاد مكان لاصديق به

وشرّ ما يكسب الانسان ما يصم

وحين قال :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وحين قال :

وللنفس أخلاق تدلّ على الفتى
أكان سخاء ما أتى أم تساخياً
فإنّ دموع العين غدرٌ برّها
إذا كنّ اثر الغادرين جواريا

وحين قال :

أصادق نفس المرء من قبل جسمه
وأعرفها من فعله والتكلم

وحين قال :

تشرق أعراضهم وأوجههم
كأنها في نفوسهم شيم

وحين قال :

أنف الكريم من الدنية تارك
في عينيه العدد الكبير قليلاً
والعار مضاض ولبس بخائف
من حتفه من خاف مما قىلاً

وحين قال :

وأَنْفَسَ ما للفتى لِهـ
وذو اللب يكره إنفاقه

وحين قال :

إذا ما عدمت الأصل والعقل والندى
فما لحاة في جنبك طيب

فهذا ونظائره شعرٌ سقراطي صميم تزدحم بأمثاله دواوين
شعر العربي قديماً وحديثاً . ولم يسلم منه حتى أولئك الذين يربدون
غالبه طباعهم حباً في الشذوذ أو مجازاة لبعض النظريات الفنية بصرف
صرف النظر عما إذا كانت هذه النظريات صحيحة أو وهمية .
وهذا الاستاذ عبد الرحمن شكري معدودٌ لدى صديقي الناقد
عظم شعراء العربية في هذا العصر ، فهل فقد شكري شاعريته حين
قال :

إذا أنست لم تعط الفضيلة حقّها
أصابك من رجس الرذيلة عائب
ألم ترى أنّ الشرّ مغرّى بربه
يغالبه عن نفسه وهو غالب ؟ !

وحين قال :

غلّوا يد البجّار في غلوائه
فبكم يصول إذا أراد ويظلم
إنّ الذي اتخذ الظلوم وليه
أطغى إذا عدّ الطغاة وأظلم

وحين قال :

إذا بلغ المرء الغنى كان خاسراً
بنيل الغنى قدر الذي هو كاسبه
فيربح حالاً لدنة الوجه غضة
وينحسر شيئاً خافياً عزّ حاسه

وحين قال :

حيثك حي للضمير اذا دعا
فؤادي إلى حبّ الفضيلة والخير
واني لأرجو في اخائك لذة
كلذة أهل الرأي في حسن الفكر

وحين قال :

ولولا رجائي أن أقول مقالة
تعود بخير أو تعين على شر
لما كان لي في بسطة العمر رغبة
ولم أحمد الأيام إن زيد في عمري
وغير ذلك من شعره المأثور المشبع بالروح السقراطية وإن خالفها
في غيره ؟ !

انّ هذه السقراطية ليست - كما أسلفت - سوى مثل من
الأمثلة العليا للحسّ والفكر الانساني ، وانه لخير ألف مرة للشاعر
أن يؤمن بها وأن تتسرب إلى شعره ضمناً من أن يكون مجرد آلة مصوّرة
أو مجرد ناظم أُمّي إلى أبعد من أنفه ، ولا يستهدي وحيه بأي مثال
عالٍ في الحياة خطأ كان أم صواباً .

ولو أننا جارينا الأستاذ سعيد إبراهيم وصحته في هذا الرأي
لوجب أن نسقط من الشعر الانجليزي أيضاً كثيراً من النفائس وفي
مقدمتها قصيدة (إذا - if) المترجمة في هذا الديوان (ص ٩٢٣)
للشاعر العبقرى المجدد رديارد كبلنج (Rudyard Kipling)
وكم له من منظومات أخرى مشبعة بهذا الروح إلى جانب سواها
الذي تثيره روح "مختلفة" ، مما يدل على أن الشاعر قد يتأثر بأكثر
من إلهام أو مثل عال في شعوره ونظراته . ومن ذا الذي يصدق
مثلاً أن هذا الشاعر الاستعماري الجاف سياسياً هو صاحب هذه
الأبيات الدينية السقراطية الروح المعنونة :

'When Earth's Last Picture is Painted

قال :

And those that were good shall seePfv they be shall sit in a
golden chair ;

They shall Splash at a ten -league Canvas with brushes of comets
hair .

they y shall find real saints to draw from-Mag- daiene, peter, and
Paul ;

They shall work for an age at a sitting and never be tried at all!

وحق الشاعر الغنائي المبدع هيني (H einrich H eine) لم يسلم
من هذه الروح السقراطية فهو هو القائل :

Yes, You are right. Your lingering glances Brim with a truth
makes me sad .

How could we two have met Life's chances -You are so good,
And I so bad .

Iam so bitter and malicious ;

Even my gifts bear wry respect
TO you who are so sweet and gracious
And oh , so righteously correct ,

ودعك من الشاعر اليوناني العظيم إيسكيلس (Eschylus)
بل من شعراء الاغريق الدراميين جميعاً فقد كانوا يبتون الروح
السقراطية في نظمهم كل البث سواء عفواً أو قصداً ، ولا غرابة
في ذلك فدراMATهم الغنائية ذات صبغة دينية خلقية برغم مناسبات
المرح والتعبد . وهذا إيسكيلس نفسه هو القائل :

For Jove doth teach men wisdom , sternly wins
To virtue bu the tutoring of their sins ;
Yea ! drops of torturing recollection chill
The sleeper's heart ; ' gainst man's rebellious will
Jove works the wise remorse:
Dread powers, on awfml seats ienthroned, compel
Our hearts with gracioun force .

ورأيي أن الشاعر العالي النفس الانساني النزعة يتسامى دائماً إلى
مثل في شعره ، وقد يتسامى إلى أكثر من مثل واحد حسب شعوره
وتباين المناسبات ، فليس من الضروري أن يبقى دائماً سقراطياً . ومن
رأيي كذلك أن النفسيات والخلقيات أصبحت لها سيطرة كبيرة في
تقدير أفكارنا وفي تكييف شعورنا أيضاً ، وصار الشاعر الحساس
المتأمل دقيق البصر يتأثر شعوره بكل كلمة وحركة يواجهها ، فيعكس
ذلك في شعره إن وصفاً أو تقريراً أو مناقشة أو غير ذلك .

والشاعر المطبوع أديب بفطرته وإن أصبح رجل علم وكاتب
هذه السطور لم يكن طيباً قبل أن يكون أديباً ، فليس من الصواب

تصور إمكان إدماج الأديب (وهو الأصل) في الطبيب (وهو المستحدث) . والواقع أن التربية الطبية هي تربية ملاحظة قوية واستقراء وتشخيص وتوليد وجلد شديد ، فالأديب بفطرته يستفيد من كل ذلك ، ويعينه في شعره الوصفي كثيراً ، وفي تحليل النفوس والأخلاق والطباع . وهذا مشاهد في جميع الأمم بين رجال الطب الأدباء على اختلاف نزعاتهم من قصصيين ونقاد وشعراء وغير ذلك . لكن صديقي الناقد الفاضل أبي في غلوه - وفي شغفه بحثي على بلوغ الكمال الشعري الذي يوده لي - إلا أن يعكس الآية عفواً في غير إنصاف . فهو مبدئياً تعلق بكلمة « السقراطية » ومدلولها ، فأخطأ أولاً في إنكار قبول تعاليمها في الشعر ، ثم اخطأ ثانياً في تطبيق هذه النظرية على ديوان يضم مئات القصائد وآلاف الأبيات ، وصمم على أن يجعل هذا الشعر كله صوراً من السقراطية حينما هذه السقراطية لاتتمثل حتى في شعره وصار أبغض شيء إليه كلمة « فضيلة » أو « وفاء » أو « بر » أو « خير » ، حتى أنه ليسقط قصيدة برمتها اذا ما وردت فيها إحدى هذه الكلمات أو نظائرها من التعابير الخلقية - ولو استعملت استعمالاً مجازياً بمعنى آخر - وهذا ولا شك غلو كبير لا إنصاف فيه ولا جدوى منه . وكما يسقط قصيدة برمتها لاعتراض كهذا ، فهو يريد أن يسقط ديواناً بأسره لأن جانباً منه له هذه الصبغة النفسية !

أما أنا فقد آمنت - بعد تأمل نقدي طويل في شعري وفي شعر غيري - بأن هناك ما يصح أن يسمى « بالتبادل » وهو تعويض الكل للجزء ، وكذلك تعويض الجزء للكل : بمعنى انه يجب نقد الأثر

الفني (القصيدة مثلاً) كوحدة لا تتجزأ ، بحيث يوجه النقد الى جوهرها ولبها ، فتارة يكون هذا الجوهر صغيراً شبيهاً بالصورة الدقيقة (miniature Picture) وتكون بقية القصيدة كإطار وحاشية لهذا الجوهر ، وقد يكون ذلك إطاراً ضخماً ولكنه متناسب من وجهة التأثير مع الصورة ، فبدل أن يفسد جمال الصورة تراه يوجه الالتفات إليها . ومرة أخرى ترى الصورة ذاتها كبيرة والإطار صغيراً ، فتشغلك روح هذه الصورة وتكوينها عن الالتفات لحواشيها . ففي الحالة الأولى يعوض الجزء عن الكل ، وفي الحالة الثانية يعوض الكل عن الجزء ، ولا يتأثر الناقد الفني في كلتا الحالتين إلا بالجوهر وحده ، ولا يكون ما عدا هذا الجوهر إلا معيناً على إبرازه . فالقسم الباهت الفاتر ليس بالحقير في الواقع لأنه يساعد بالمقارنة على إظهار غيره وعلى توجيه النفس الى ما يقصد توجيهها اليه من لب الموضوع ، ولا يجوز إنصافاً أن يعا. ترقباً في مجموع الصورة الفنية سواء كانت شعراً أو رسماً أو غير ذلك .

واني وان لم أعتبر الأسلوب الخبري أرقى ما يشتهي فنياً ، الا أنني أرى من المجازفة في الحكم اعتبار اقترانه بالنزعة السقراطية كفيلاً باخراج خطبة منبرية جديدة بالوعاظ وغير قميئة بالشعراء ! !

فالشعر في جوهره شعر سواء كان نظماً أو نثراً ، قصصاً أو تصويراً أو خبراً أو غير ذلك . وهذه مسألة سأعرض لها فيما بعد عند الكلا على نقد أسلوبه . ومحسبي أن أقول هنا إنه من عجائب النقد الأدبي في مصر الرضاء عن الإباحية الخلقية في الشعر واعتبارها فناً ، والسخط على أنسقاطية واعتبارها مضمية للفن ! ! وها هو صديقي الناقد اكتفى بكلمة أو بيت لاسقاط قصائد من خير شعر هذا الديوان .

ثم نظر للتحديد كتعبير عامي ، وأمكنه لم ينظر إليه كقدرة فنية في التعبير ، لأنه ليس من السهل على كل شاعر أن يصوغ كلاماً مجملاً صادق الأحكام أو قوي التأثير البايغ ، وقد تفنن شعراء العرب في ذلك وفاخروا بالقدرة على نظم جوامع الكلم . وصديقي الناقد يقول إن الأسلوب العربي القوي البليغ بليغ في كل زمان ومكان ، فما بهاله يتناسى ذلك الآن ويلوم على اتباع هذا الأسلوب العربي الصميم ؟ !

وكما ان الشعر السقراطي (Ethical Poetry) على اختلاف صورة فن سائغ معترف به عند نقاد الشعر (راجع مثلاً) Poetry and the Renascence of Wonder للناقد الشهير Theodore Watts - Dutton الذي وصفه الشاعر سوينبرن Swinburne بأنه « أنبغ ناقد في عصره ، أو لعله أوسعهم ذهنًا وأصحهم نظرًا في أي عصر » (- أقول كما أن هذا النوع من الشعر له منزلته المحترمة برغم أساليب التناول للمواضيع عند الشرقيين والغربيين ، فكل ذلك الأسلوب الخبري من الأساليب المعترف بها ، وان كنت أنا نفسي لا أميل إليه الا في المواقف التي أقدر انه سيكون فيها أبلغ تأثيراً من سواه ، واذا كان التحديد في ظاهره أحياناً فالاستعارة والمجاز والتخييل أو الصورة العامة الباطنة للقصيدة تقضي على أثر هذا التحديد ، فلا يكون له أي لون علمي ولا أية خشونة ، بل يجد فيه السامع أو القارئ قوة الأفتناع منطقية في هذا التحديد الملطف ، ولولا هذا الذي يسميه الأستاذ سعيد إبراهيم تحديداً لضاعت من هذا النوع من النظم قوة تأثيره المقتنع . والأمثلة في الشعر في الشعر العربي - قديمه وحديثه - أكثر من أن تحصى أو تستقصى . وأما في الشعر الاوروبي فأمثلة ذلك غير قليلة أيضاً ، ولو سمح المجال

لجئت بأمثلة لا تعد ، فيكفيني ان اذكر مثالين من كل من الشعر
الانجليزي القديم والحديث جامعين في آن واحد لما يسميه صديقي
النقاد « سقراطية » و « تحديداً » . وكلا المثالين من مختار الشعر ، فأما
المثل الأول للشعر القديم فمن أوائل القرن السادس عشر للشاعر المبدع
استيفن هوز (Stephen Hawes) وموضوع القصيدة « الفارس
الحقيقي » وهذا نصها :

THE TRUE KNIGHT

For knighthood is not in the feats of warre,
As for to fight in quarrel right or wrong,
But in a cause which truth can not defarre :
He ought himself for to make sure dand strong'
Justice to keep mixt with mercy among:
And no quarrell a knight ought to take
But for a truth , or for the common's sake .

وأما المثل الآخر من الشعر القديم فقصيدة ملتون الشهيرة في
عماء ، وهي مزيج من الصوفية والسقراطية (من شعر القرن السابع
عشر) وهذا نصها :

ON HIS BLINDNESS

When I consider how my light is spent,
Ere half my days , in this dark world and wide,
And that one Talent which is death to hide,
Lodg'd with me useless, though my Soul more bent
To serve therewith my Maker , and present
My true account, lest he returning chide,

Doth God exact day-labour, light deny'd ?
 I fondly ask : But patience to Prevent
 That murmur, soon replies : 'God doth not need
 Either man's work or his own gifts, who best
 Bear his middle yoke, they serve him best, his State
 Is kingly . Thousands at his bidding speed
 And post o'er Land and ocean without rest :
 They also serve who only stand and wait ''.

وأما المثالان للشعر الحديث من أمثلة شتى متقاربة في الروح
 « السقراطية » والاسلوب الخبري « التحديدي » لشعراء مشهورين فأولهما
 من نظم الشاعر الانجليزي وفرد جيبسون (Wilfrid Gibson)
 عن الرجل الذي يخون ذكرى زوجته المتوفاة ، وهذا نص قصيدته
 التصويرية « السقراطية » :

THE ANNIVERSARY

Theclick ing of the latch,
 Then the scratch
 Of a match
 In the darkness and a sudden burst of flame-
 And I saw you standing there
 All astare
 In the flare :
 And I stepped to meet you , crying on your name,

But the match went out , alack
 And the black
 Night came back

To my heart as I recalled with sudden fear
How upon your dying bad
You had said
That the dead
Return to haunt the faithless once a year.

فهل يقضي على هذا الجمال التصويري البديع إشارة الشاعر
« السقراطية » الى الخيانة الزوجية وعاقبتها ؟
وأما المثل الآخر للشعر السقراطي التحديدي الذي ينقصه حتى
التصوير المتقدم فتصيدة كيلايج المشهورة المسماة « اللاهوت الطبيعي »
وقد نظمها حزينا في نوبة سخط على الحرب خلافاً لنزعته الاستعمارية
المعروفة . وهذا نصها :

NATURAL THEOLOGY

Money spent on an Army of Fleet
Is homicidal Iumacy ..
My son han been killed in the Mons retreat,
Why is the lord afflicting me ?
Why are murder , pilage and arson
And rape allowed by the Deiry ?
I Will Write to the 'Times' . deriding our parson
Because my God ha, afflicted inc.

* * *

As was the sowing so the reaping
Is now and evermore shall be.
Thou art delivered to thine own keeping.
Only Thyself hath afflicted thee!

فتغالي صديقي الناقد - على ما أشرت الى ذلك - هو الذي يجعله يتصور ان الروح الخلقية تعارض الفن في قصيدة وصفية للطبيعة مصرية الصبغة « كفتاة الريف » (ص ٣٥٣) متغاضياً عما فيها من وصف دقيق غير مسبوق اليه ومن حنان جم للحياة الريفية الجميلة المحتقرة في مصر ، وقس على ذلك بقية ما ذكره وما لم يذكره من قصائد لم ترق لديه حينما رقت لدى شعراء مصريين . فحسبي أن أترك كل ذلك لاطلاع القارئ وتحليله وحكمه .

(٣) الشاعر موسيقي " حسّاس بعيد النظر قوي التعبير . هذا مسلّم " به على ما أظن ولكن هل هذا كل شأنه ؟ وبعبارة أخرى : ما هي وظيفة الشاعر وأثره في الحياة ؟ يقول لامرتين (Lamartine) إنّ الشعراء والأبطال من نوع واحد ، وان الآخرين يحققون ما يتصوره الأولون ، ويعزز ذرائيلي (Disraeli) ذلك بقوله إنّ الشعراء هم مشرعو العالم لم يعترف بهم ، ثم يزيد لمرصن (Emerson) ذلك شرحاً بقوله : إنّ الشعر هو الحق الوحيد - هو تعبير العقل السليم المتحدث عن المثل الأعلى لاعن الظاهر . فهل الشاعر الأسمى بعد ذلك من يقتصر شعره على تعبيراته الفردية ؟ لا أظن ذلك ! إني لن أجحد شاعريته ما دامت قوية مطبوعة بل أوفيها حقها من التقدير كنوع من الفن حتى ولو بثت شراً نسبياً ، ولكن الشاعر الأسمى الذي ينال تبجيلي الأوفى هو النبي الفنّان الذي يعيش لنوعه لآلذاته ، فيرتفع بذلك فوق الجميع كما يقول هازلت (Hazlitt) والذي يحسّ في دخيلة نفسه بأنّ الشعر عقيدة على رأي لمرصن . والواقع أنّ الشاعر الأسمى مفطور مطبوع يتأثر مزاجه بثقافته ويثبته

وعالمه تأثيراً عظيماً فيلهمه كل ذلك — إن صح هذا التعبير — ما يلهمه من إسعاد لنوعه في أوصافه وأخيلته وأحلامه ودعوته ، وحينئذ يكون الشعر محاولة لجعل الحياة منسجمة كما يقول كارليل (Carlyle) . فلا عجب بعد ذلك اذا ظهر إلى جانب شعر العاطفة شعر العقيدة الانسانية العليا سواء في السياسة أو الاجتماع أو غير ذلك . وقد أصبحت المجلات والصحف الأدبية والشعبية في الغرب مزدحمة بنماذج هذا الشعر الذي دعت اليه ثقافة هذا القرن وأمياله . صار الشاعر المتعدد نواحي الفكر مشترعاً غير رسمي على حد قول ذرائيلي . فهو لسان وجدانه ، ثم هو لسان بيئته فوطنه ، ثم هو لسان الانسانية عامة بل الكون بأسره . وأعود إلى ذكر شاعر الامبراطورية الانجليزية رديارد كبلنج ثم أقول إنك تجد كل هذه النواحي في شعره ، وإن غلب بعضها على البعض الآخر . وإن أنس لأنس تأثير قصيدته السياسية الوطنية البليغة التي نشرتها صحيفة « التيمس » في أول الحرب العالمية ، فقد كان لها من الأثر النفساني العظيم ما لا يقل عن نظيره لبيان رئيس الوزارة المستر اسكويث ، بل لعل تأثيرها جاوز تأثير ذلك البيان في البيئات العالية . وكبلنج يحسّ بمسؤوليته هذه وتنجلي في شعره ، وبرنامجه الفكري النفسي يفوق برنامج رئيس وزارة ، فهو النبي الشاعر الانجليز السكسونيين ، وهو فوق ذلك في نفسه المجلية في شعره . فالاعتراض على كلامي المجل من الغرض من الشعر وتدوينه (ص ٤٢ - ٤٤) لا يقوم على أساس من الحقيقة في هذا العصر عند الشعوب المثقفة الناهضة . ومن العجيب أن الشاعر العربي قديماً كان ذا منزلة عظيمة في القيادة الفكرية لا في التعبير

فاذا بالشاعر الغربيّ بعد هذه القرون يبلغ نظيرة تلك المنزلة كما هو شأن كبلنج الانجليزي ، وييتس الأيرلندي ، ودانزيو الايطالي ، وغيرهم بينما تنعكس الآية عندنا ولانتصور للشاعر إلاّ مهمة التعبير الفردي ، أي أنه لسان نفسه فقط لايعرف غير همها ، ولاتفاعل بينه وبين بيئته وعالمه ، ولاشعور بمسؤولية كبرى يهزّ وجدانه فيبعث أقوى الألحان الناشرة رسالته العظمى . ونشأ بيننا من يعد هذه الرسالة الدافعة الممتلئة بالحياة معاديةً لروح الفن وقاضيةً عليه !

* * *

(٤) ولكن ما هو الفن ؟ — سؤال لامفرّ منه منه ما دما قد اتهمنا بالاساءة اليه ومخالفة أصوله !

وقبل أن أجيب على هذا السؤال أحيل القاريء على قصيدتيّ « ما هو الفن » (ص ١٠٤٨) و « ما هو الحسن ؟ » (ص ١٠٨٧) ، مكتفياً بهما من نظمي ، ثم إلى الفكرة الفلسفية الشاسعة وهي أن الفنّ هو التعبير ، أو على حد قول جيتي (Goethe) : « الفنّ وسيط المغلق (Art is the mediatrix of the unspeakable) وبعد ذلك أقول في غير ترددٍ إنّ الفنّ عندي ليس هو التعبير وحده : أي ليس قاصراً على البيان والافصاح ، بل ليس من الضروري أن يتصل بالبيان والفصاحة المألوفة . وقد يوجد التعبير أو البيان والفصاحة التامة ولا يوجد الفن ! أما الفنّ عندي في أرقى صورهِ « فهو البلاغة الرمزية الجميلة » التي تفسح أمامك مجال التأمل وتنقلك إلى جوّ النفوس العبرية حيث ترى في الدقائق العظائم ، وفي الحرية الألوهة ،

وفي أبسط الاشارات أكبر الذكريات ، وفي مظاهر الفن "رسولاً" يهديها إلى سعادة الاندماج في الابدية . هذا عندي هو الفن في أرقى صورته موفقاً ما بين المثل الأدنى - وهو حياتنا العادية - والمثل الأعلى - وهو قبلة الانسانية الروحية ، ولا أراه شعوراً يناقض حكم جيتي بأن الفن "يعتمد على نوع من الشعور الديني أي على اهتمام عميق ثابت ، ولهذا السبب يندمج الفن في الدين بسهولة . »

فأول أسس الفن اذن هو « البلاغة » ، بل قل هذا هو الاساس الذي لاغنى عنه مطلقاً . وإني أعدل الذين يخلطون ما بين « الفصاحة » و « البلاغة » لان أساتلتهم أنفسهم يخلطون في التعريف لهما والتفرقة بينهما . ولا تعني « الفصاحة » عندي سوى البيان الوافي بأسلوب منتقى مصفى كامل الدلالة ، وأما « البلاغة » فهي في تعريفها التأثير وحده : أي بلوغ نفس السامع والقاريء بلوغاً تاماً .

فاذا اتفقنا على هذا التعريف والتفريق فسوف يظهر لك جلياً أن « البلاغة » مسألة نسبية ، ونتيجة تفاعل بين الأثر الفني ودارسه . فهي في الشعر مثلاً مسألة ذوق وشاعرية واستعداد ذهني ، ولها اتصال بعوامل شتى من ثقافة وبيئة وغير ذلك . فلا غرابة اذا كان ما أعده بليغاً لايعتبر كذلك عندك ، ولا غرابة أيضاً اذا نحن اتفقنا في الحكم ، لأن الاشتراك في التأثير بالفن والاختلاف في ذلك أمر مرتبط بعوامل شتى كما قدمت ، بعضها شخصي وبعضها عام . وننتقل من هذا إلى القول بأن « البلاغة » قد تستغني عن « الفصاحة » حيث تقوم الاشارة البسيطة المضمرة المعنى مقام البيان الطويل ، وقد توجد « البلاغة » وتتأثر بها دون أن تعرف بيان ذلك ما لم تكن فلسفي

الذهن تنقب عن العلل والأسباب ، وقد تفشل برغم ذلك في معرفة
البيان الصحيح والتعليل الصادق لتأثيرك ، ولكن التأثير كائن موجود
برغم فشلك في تعليل أسبابه الاصلية من وجهة نفسية فلسفية .

وكثيراً ما راقبت إحساسي وإحساس سواي وقارنت واستنتجت
ناجحاً مرة وفاشلاً مرات ، إلى أن أهتديت في نفسي إلى التفسير
الذي ارتحت إليه : وهو أنه كلما سما الفن كان رمزياً في بلاغته ،
لأنه الرمز يثير التفكير والتأمل ، ويثير عواطف شتى مكنونة ، ويحيي
ذكريات ، ويكون علاقات ذهنية ونفسية متنوعة بين صور الحياة ،
وشعرت بأنّ هذا الاتساق الجامع المتعدد الالهام هو الجمال ، وكلما
كان شاذاً في قوته عد نادر الجمال ، ، ، و ان الفنّ والجمال توأمان
يربطان - بإيجازهما - الحاضر بالماضي والمستقبل ، سواء وعينا ذلك
أم لم نعه ، بل غالباً لانعيه ، لأن كل هذا متصل بعتلنا الغافي أو
الباطن (Subconscious Mind) إلى أن نحاول تحليله ودرسه .

وتبعاً لهذا الرأي أعدّ كل عمل بلوغ ترتاح اليه النفس متأثرة
به نوعاً من الفن ، ولا أعد مجرد البيان المنمق وسط التعبير فناً .
واذا حكمت فأني لأتشبه أولاً بمثلي الأعلى في الفن ، وانما افتش عن
الشرط الاساسي وهو شرط البلاغة القرية ، دون أن أتخيل : فلا أحتم
أن لا يكون غير فني لسواي ما لا أحس أنا ببلاغته ، وبعبارة أخرى
أقرر أن الفن مسألة نسبية ، وليس حقيقة مطلقة . وعلى سبيل المثل
أعد قصيدة اسماعيل باشا صبري « تمثال جمال » وقصيدة أحمد
شوقي بك في « أنس الوجود » وقصيدة أحمد افندي محرم في « أبي
العلاء المعري » وقصيدة حافظ بك ابراهيم في « زلزال مسينا » وقصيدة

خليل بك مطران في « تمثال رعمسيس الثاني » وقصيدة عبد الرحمن أفندي شكري في « الشلال » وقصيدة عباس أفندي محمود العقاد في « الزهرة » وقصيدة ابراهيم أفندي عبد القادر المازني في « الشاعر المحتضر » وقصيدة محمود عماد في « الجمال الناهب » بين ما أعده من الشعر الفني العصري لأنه يبيع الأثر في نفسي ، ولكن من الجائز أن لا يوافقني كثيرون على ذلك . وإن أتهم من يخالفني بالقصور اللذهني ، فهذه مسألة روحية متشعبة الأسباب ، وللنفوس قابليات متنوعة للتأثر وادراك البلاغة .

فاذا كان الاختلاف في الشرط الاساسي للفن وهو « البلاغة » جائزاً إلى هذه الدرجة ، فما بالك برموز التعبير ، وما بالك باستكناه الجمال الظاهر والمستتر فيه ؟ !

وعندي أن الشاعر المطبوع فتان بفطرته فمن العبث أن تحدته عن قواعد الفن الموهومة ولاعن قواعد العروض ، وإنما عليك بامسيدي الناقد أن تدرس أنت أساليبه وأوزانه ونغماته وتطبق قواعدك عليها ، أو تعدل تلك القواعد ، أو تضيف إليها إن شئت !

واذا أردت أن أضرب لك مثلاً « البلاغة » المضمرة الرموز — أي التي هي خلوة من الفصاحة المعروفة — فدونك هذه المقطوعة « اللذة الجديدة » لجبران خليل جبران من كتاب (المجنون — أمثاله وأشعاره) . قال :

(اخترعت في ليلتي الماضية لذةً جديدة . وبينما كنت أتمتع بها للمرة الأولى رأيت ملاكاً وشيطاناً قد وقفما بباني يتخاصمان ويتناقشان

وقول أبي نصر سهل بن المرزبان في وصف البدر :
 كم ليلة أحيتها ومؤانسي
 طرف الحديث وطيب حث الأكوس
 شبهت بدر سمائها ما دنت
 منه الثريا في قميص سندسي
 ملكاً مهيباً قاعداً في روضة
 حياته بعض الزاثرين بنرجس !

فهذا كلام فصيح موزون له استعاراته وتشابيهه ، ولكنه لا يؤثر
 في نفسي ، وأراه صناعة تقليدية ميتة فلا منزلة له فيما أشعر فهو لذلك
 غير بالغ عندي ، ولكنه قد يكون بليغاً عند سواي ، بعكس المقطوعة
 الآتية الموسومة « شباك الغناء » للشاعرة الانجليزية (هilda Conkling)
 : فهي فن مرنح لي :

SONG NETS

Song nets ,
 I weave you with all my love.
 You glitter like pearls and rubies,
 In you I catch songs like butterflies .
 You go past my reaching hand
 With a thin gauzy floating,
 And the songs are caught
 Before they fade away.
 Last night
 My hand caught a song

على تعريف لذتي . فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلاً : « لهما
خطيئة مميتة ! » فيعارضه الثاني قائلاً بصوت أشد من صوته : « لا
لعمرى ، إنما فضيلة ! »

فالاضمار في هذه المقطوعة كثير، وليس ما فيها من بيان إلا
جزءاً من كل للنفس الشاعرة التي تقدر ما فيها من تهكم ، ومن تأمل
فلسفي في الخير والشر ، ومن إقرار الانسان بحاجته إلى تنويع عزائه
في الحياة ، إلى غير ذلك من المعاني التي يوحىها هذا النمط الشعري
كلما زدته تأملاً وتبعته تخيلاً . ولكن كثيرون من الادباء لا يرون
في هذا الاسلوب إلا السخافة ، ويرون أنه لا يليق إلا بالبله ، ولهم
العذر : ذلك لأن هذا الاسلوب القصصي الرمزي غير بليغ لاجساسهم ،
فصاحته غير مبسطة لأذهانهم ، بعكس حال غيرهم ، فهم إذن
لا يستمتعون به ولا يعدونه من الفن في شيء .

وقد يكون الشعر فصيحاً مبسوط البیان ولكن لا بلاغة له ، أي
لا تأثير له في نفس قارئه ، فهو المالك غير فني عند ذلك القارئ ، لأن
التأثير لا يترتب على الفصاحة وحدها ، بل له كل الارتباط بدقائق
المعاني ووحيتها في أجزاء التعبير .

مثال ذلك قول صفي الدين الحلي يرثي غريقاً :

أصفيح ماء أم أديم سماء

فيه تغور كواكب الجوزاء؟!

ما كنت أعلم قبل موتك موقناً

أن البدور غروبها في الماء !

Of pines and quiet rivers :

I shall keep it forever .

وأرى أن لك كل الحق في سؤالي : كيف يمكن إذن الحكم الصادق على القيمة الفنية للشعر ، وهل يوجد قضاة عدول يمكن التعويل على أذواقهم وآرائهم ؟ وجوابي انه وإن يكن الفن الشعري أمراً نسبياً في تقديره عند طبقة من الناس وأخرى ، الا أنه يصح القول اجمالاً أن الناقد الشعري بفطرته أو الشاعر الحقيقي — اذا استطاع التجرد من الغرض وحسد المنافسة — هو خير من يستطيع الحكم المعقول على ماهية الشعر فنياً . ولكن بالرغم من كل ذلك يبقى حكمه متأثراً بالمزاج والثقافة والبيئة فلن يؤمن فيه الزلل . وهذا سر تناقض الأحكام الشعرية في العصر الواحد ، فضلاً عن اتفاقها أو تباينها بين جيل وجيل .

وقد أشرت إلى أهمية « الرمز » في البلاغة الفنية ، وهذا الرمز هو من لغة (الطبيعة) التي تؤثر هذا النوع من التعبير ، ولذلك يفتن به من تفتحت جوانب نفسه لروحي الطبيعة . ومن أجل ذلك أميل الى التعبير الرمزي وأعتبره أرقى الأساليب الفنية على أن نظم الشاعر تفاعل بين نفسه وروح بيئته ثم روح عالمه ، فليس هذا التعبير الرمزي مما يوافق كل زمان ومكان ، ومن أجل ذلك كثر الأسلوب الخبري التقريري في الشعر العربي ، لأن المجتمع العربي أكثر تأثراً بهذا النمط من الأسلوب ، وحل المجاز والاستعارة محل الرمز القصصي ، وهذا مثل لتعويض الجزء عن الكل في الفن ، كما أشرت الى ذلك سابقاً . والتجديد في الشعر الفني

يستدعي الحفاوة بالأساليب الرمزية البعيدة الغاية ، حتى يأنفها جمهور الأدباء فتكون بليغة التأثير ، وتصير النسق الفني المعشوق .

وبعد هذا البيان أسأل سادتنا النقاد الأفاضل : كيف شوهت إذن الفن الشعري ؟ ألروحي الخلقية المتفائلة ؟ إن أصررتم على هذا الاتهام فدونكم رأي أحد ممدوحكم أو أحد أعلام مدرستكم الأستاذ المازني ، فهو القائل في مقدمة الجزء الثاني لديوانه : « إن الشعر ديوان يقيد فيه أهل العقول الراجحة ما يجيش في خواطرهم في أسعد الساعات ، وهو الذي ينقلد من الفناء والعدم خواطر الالهام ، وهو يحلق بالمرء فوق الحياة ، ويرغمه أن يحس ما يرى وأن يرى ما يحس ، وأن يتخيل ما يعلم وأن يعلم ما يتخيل ، وهو يحيل القبح جمالاً ويزيد الجمال نصرة وجلالاً ، ويفجر في النفس ينباع الأمن والفرح والسرور والألم ، ويلهب مياه الموت المسمومة المتدفقة في عروق الحياة . فلا جرم كان الشاعر أحسن الناس وأعمقهم حكمة وأجمعهم لخالل الخير ونخصال الفضل — نقول الفضيلة والخبر ولا نخشى أن يهز القراء رؤوسهم إنكاراً ، فان الشعر أساسه صحة الادراك الأخلاقي والأدبي ، ولست بواجده شعراً الا وفي مطاويه مبدأ أخلاقي أدبي صحيح ، وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا الادراك الأدبي تكون قيمة شعره » . وقد صدق في كل كلمة من كلماته . واو صح حكمكم أنتم لبقيت منع ذلك حقيقة ناصعة لا ترد : وهي ان ما عبرت به من شعر عن حناني للطبيعة ووصفي إياها ووصفي لمظاهر الفن الشائقة من رقص ونحوه يتجاوز كثيراً نظم سواي ، ويفتح أبواباً فنية جديدة في الوصف الشعري ، فكيف نغضون عيونكم ثم تتجانبون المنطق السليم والعدل في أحكامكم ؟ !

عندكم في الرقص أمثلة متنوعة للبلاغة الرمزية ، وأمثلة شائعة للبلاغة المؤثرة التي قد يعجزنا ادراك فصاحتها وانما نتأثر بها على كل حال باعتبارها أنها فن صميم ، وهؤلاء شعراؤكم الذين يزعمون التجديد الكلي وهم أحياناً أنكى على الأدب من الرجعيين أنفسهم — هؤلاء شعراؤكم في حكم العجماوات لا يحسنون بشيء من هذا ، ولا يعبرون عنه ، وكل همهم الجري وراء مقابح الفلاسفة الألمانية دون حسنها . أو وراء الشذوذ المتدلي والنبوغ المنحط في الأدب الذي يمثلته بودييير (Baudelaire) وأضرابه من عباد الخمر والأفيون والبغايا . فإذا قال بودييير في « أزهار الشر — Fleurs du Mal » برغبته المعروفة في مخالفة كل مألوف ولو كان جميلاً — اذا قال مخاطباً معشوقته :

I advance to attack , I climb to assault ,
Like a choir of young Rorms at a corpse in the vault;
Thy coldness, oh cruel, implacable beast !
Yet heightens thy beauty , on Rich my eyes feast !

عد هذا القول آية فنية لا لسبب سوى غرابته المريضة ، وأي مرض نفسي أقبح في التعبير من تصويره لنهم نفسه ازاء حبيبته القاسية بنهم الدود الزاحف على الجثة الباردة ؟ ! ليست المسألة مسألة معالجة للشعر أو للخير في الفن ، وانما هي مسألة ذوق في تناول والأداء حتى تهش نفوسنا الى الأثر الأدبي . وهذا ميسور باتقان وبلاغة دون الالتجاء الى هذه التعابير السقيمة القبيحة الداعية الى الاشتزاز . فليست الحرية في التعبير بالتي تسوغ القبح . على أنني برغم هذا الاشتزاز الذي يعتريني مبدئياً أتصور أخيراً شعور هذا الرجل المريض النفس وأقدر ان هذا هو احساسه الصادق ، فبساعدني تصور نفسيته على ادراك بلاغته وإتقانه

فلا أنكر عليه فنه . ولكن إحساسه هذا لا يعني أن أحادع نفسي فأزعم
ان هذا الفن المريض هو المثل الأعلى لأدبي ، وعندني في سواه الغنية
التي تلائم عواطفني واحساسي ونفسي .

فهذا التهور في الميل الى الشذوذ المريض الذي ابتليها به أخيراً
سوف يفسد أذواقنا بدل اصلاحها ، ولن يخدم الأدب مثقال ذرة .

وبديهي أن الأداء أو التناول عامل هام في تكييف الفن أي في
تأثير بلاغته . فهل أنا الذي قضيت على هذه البلاغة ؟ ! وهل حقيقي
أن لي أسلوباً علمياً ضيقاً في شعري ؟ ! لقد سمعت أن أحد الزملاء
الشعراء ينظم ملحمة في « البول السكري » سوف تخلّد تخليد ألفية
ابن مالك في النحو ! ولكنني لا أعرف أن لي شرف هذا الطبع ، أو
أنني أقدر على نظم بيت واحد من هذا النوع ، وغاية علاقتي بالعلم أن
استوعبه في شعري استيعاباً على ما يروى القاريء في قصيدة « نقطة
دم » (ص ٢٦٦) وقصيدة « أشعة الظلام » (ص ٢٣١) وقصيدة
« حياتي » (ص ٤٦٥) . فهل هذا الشعر الوجداني من العلم الخاف
في شيء ؟ ! وبعبارة أخرى هل أروضت شعري للعلم أم استوعبت
العلم في شعري فصار من صميم عاطفتي وإيماني ؟ ! وأقول في غير
غرور إن ذنب هاء النمط الذي يتفق وثقافة هذا الجيل هو أنه غير
مسيبوق اليه ، لا أكثر ولا أقل ، دع عنك أن صاحبه مصري وليس
شاعراً جرمائياً مثلاً ! وهذا المستر تريفلان (R. C. Trevelyan)
صاحب كتاب (تاميرس - Thamyris) الذي يتساءل فيه عن
مستقبل الشعر يبحث على التجديد الجريء وتناول حتى الهندسة والطب
والاقتصاديات ونحوها في الشعر (راجع ص ٦٣ - ٦٤ من الطبعة

الأولى إكتابه) بأسلوبٍ فيّ . ولا أراني فعلت غير ذلك من تلقاء نفسي في قصائدي التي استوعبت فيها شيئاً من العلم على البدهة وفي غير كلفة . فهل هذا ما أستحق الانتقاص من أجله بدل التقدير ؟ !

إذا صحّ التعويل على قرينة واحدةٍ للحكم العام فاذن تكفي قصيدتي « السعادة وفلسفة سقراط » (ص ٣٠٧) يقال إني سقراطي . في جميع شعري ، وتكفي أبياتي عن « شعراء العلم » (ص ٢٤٣) أو قصيدتي عن المجهر الموسومة « رفيقي الكشاف » (ص ٣٥٦) ليقال إنّ أسلوبني علمي محدد ، ولكن ما هكذا يكون الحكم الشامل ! فعوامل شعري كثيرة ونماذجه متعددة ومادته وفيرة ، والتحديد العلمي بالمعنى المفهوم لا يمكن أن أستسيغه بل هو مكروهٌ عندي . فهل وفرة العواطف وصدق النظرات وكثرة الموضوعات الوجدانية والنفسية والوصفية وتعابير الحياة التي أثّرت بها سواء اجتماعياً أو سياسياً أو أدبياً — هل ذخيرة كل ذلك المتجلية في آلاف الأبيات بهذا الديوان وفي دواويني السابقة يمكن أن تكون من أسباب اساعتي إلى الفن ؟ !

قال صاحب (تاريخ الفلاسفة) (١) : « ومن العجائب أنّ (سقراط) الذي دائماً يحثّ الناس على العبادة ويعظ الشبان ويأمرهم بالتباعد عن اللذات والشهوات يحكم عليهم بالموت بدعوى أنه كافرٌ بآلهة أثينا مفسدٌ لأهاليها ! لكن لا عجب حيث كان الوقت وقت اختلال في الدولة وكثرة الظلمة الحاكمين بها ولذا ذكر لك ذلك فنقول :

(١) طبعة الجوانب ١٣٠٢ هـ ، ص ٨٠

كان أعظم هؤلاء الظلمة تلميذ سقراط المسمى (اقرسياس) كما كان (ألقبياده) من تلامذته ، فزهدا في الفلسفة لما بها من المواعظ غير المناسبة لطعمهما وانهما كهما في اللذات فتركاه ، فأما (اقرسياس) فصار أكبر أعدائه بسبب تشديده عليه في اللوم على سوء السير والظلم فلما صار من جملة الثلاثين لم يتمنّ إلا لإعدام (سقراط) ، خصوصاً وسقراط كان اذا بلغه ظلمهم وعتوهم تكلم فيهم وشنّع عليهم ولما رأى هؤلاء الظلمة ما اشتهر به سقراط عند الناس من الفضائل أحبوا أن يمهّدوا للانتقام منه بتبغيض الأهالي فيه أولاً ، فأمرّوا رجلاً يقال له (أرطفان) بذلك ، فاخترع لهم حكاية طويلة سمّاها بالسّحاب (١) ، وهي كناية عن أمثال في تقبيح من يظهر خلاف باطنه . فلما اجتمعت الأهالي في ملعب عمومي صار ينزل هذه الأمثال القبيحة على سقراط بسماع الأهالي ... فانتدب عند ذلك (ميلطوس) وعرض نفسه وقال : إنّ ذنب (سقراط) كبير محتجّ على ذنوب ، وذلك لأنّه لايعتقد بألّة « أثينا » ، واخترع ألّة غرباء ، ولم يكفه ذلك بل صار يعلم الشّبان احتقار أهاليهم وحكامهم فهو يستحقّ القتل . . بمثل هذه المغالطة التي أملاها الحسد وحبّ الاساءة وعشق السفسطة شوّهت سمعة رجل عظيم كسقراط وأذيق كأس الموت ، ولكن هذا الضلال لم يدم وان جاء على أيدي أدباء يعزّزهم الأقوياء . فأنا الصّغير لا يضيرني في النهاية نظير هذا التشويه لسمعتي الفنية : فصحائف شعري ناطقة بأنّي لا أنظر إلى الاخلاق

(١) The Clouds - راجع Aristophanes ' plays ترجمة Hookham Frere ص ١١٣ - ١٧٤ .

نظرة الفقيه أو الواعظ الضرب كجزء من مثلي الأعلى للإنسانية المستقبلية ،
وأني أميل إلى الاعتدال وأنفر من الغلو ، ومذهبي الفني "موفق بين
آراء الكماليين (idealists) وآراء الواقعيين (realists) .
وهذا ما عرضته في قصيدتي « واجب الفن » (ص ١٧٨) ليكون
هدى واضحا لمن يسرون معي في نهجي الأدبي ، فلا أنا من يرى
أن الفن محصور في التقليد الصنف للطبيعة ، ولا أنا من يعتبره خصما
للأمثلة العليا الإنسانية كيفما كانت ألوانها ، ولا أنا من يقول إن
الفن إذا خالف علم الأخلاق لم يكن فناً ، بل كل ما أقوله أنه لا
يكون فناً سامياً لمثلي ، وهذا لا ينفي أن يكون فناً عظيماً لمن يتأثر به ،
ولا أنكر « أن الجمال ليس معنى في الشيء نفسه بل معنى يوجد
احساسنا وحواسنا » (١) . بهذا الشعور الجامع أنظر إلى الجمال
والفن ، وأعبر عن احساسني في شعري تعبير من يرى أن الحقيقة
موزعة وليست محصورة في شيء واحد يقول به سقراط أو أفلاطون
أو نيتشه أو رسكن أو شوبنهاور أو غيرهم . يقال لي بعد ذلك إنني
مفسد للفن ! ! أليس هذا الحكم على حد إفساد سقراط للأخلاق ؟ !

إن الحقيقة والجمال لمثلي ليسا بالمحدودين لا في الأشياء ولا في
الأشخاص ولا في المذاهب . وقد يكون هذا الشعور خطأ ، ولكن
هذا شعوري القوي وكفى . وقد تكون كتابة ونظم شوقي ومطران

(١) راجع ، مبادئ الفلسفة ، للدكتور رايورت وترجمة أحمد بك
أمين ، وكتاب

R.G. Collingwood تأليف (Outlines of a philosophy of Art)
ر كتاب (Selected Essays) لشوبنهاور ، وكتاب (Beyond Good & Evil)
لنيتشه .

والعقاد وحافظ ابراهيم ومحب الدين الخطيب وأحمد الشايب وسلامة
سعيد وعبد الحميد سالم واسماعيل مظهر وعلي أدهم من الكتاب
والنقاد والشعراء المعروفين أدبيات متنافرة داعية إلى خلق الأحزاب ،
ولكنها لمثلي ليست كذلك ، لأنني أتلقى منها جميعها ما يوافق نفسي
وهوأي من جمال وفني ، ولأنظر إليها نظرة التعصب الأعمى .
وإذا انتقدت بعضها - ولو انتقاداً مرأً - فهذا لايعني أنني ضير
ازاء ما فيها من جمال وفني ، لأنني لأعرف الحصر والتحديد في
مثل ذلك . فهل يصبح أن يكون هذا إفساداً للفن ؟ !

* * *

(٥) لا أظن أن أحداً ينكر أن شكوى الزمان - وهي نوع من
التشاؤم - متفشية في الشعر العربي ، فما رفعت هذا النوع من الشعر
إذا كان غثاً في ذاته ، كما أن شعر التفاضل المفعم بالانحلاص البليغ
لم يعبه عائب لمجرد اصطباغه بالرضى ما دام قوياً في فنه. وهذا معاصرنا
تاجور لم يقل ناقد كبير عنه انه شعور بسبب تفاؤله وبسبب إنسانيته
المتألهة (Godly humanism) ، بل هو معدود من أكبر شعراء
العالم . ولم يقل أحد بأن الشاعر المبتدع يجب أن يتقيّد بأمثلة سابقة
لشعراء كبار أو صغار ، بل كل ما يطلب منه أن يقدم لنا من عمق
إحساسه ومن دقة نظراته ومن حرارة عواطفه غذاءً لألبابنا ، وليس
علينا أن نحاسبه على المادة التي تغدّى هو بها : أكانت أدباً أم علماً
أم فلسفةً ، فالذي يهمنا أن يزف إلينا هديته في صورة جذابة
شهية وإن لم نضمن له أنها سوف تروق لنا جميعاً ، لأن اللذوق

صلة كبرى بالتأثر وهذا الذوق مختلف لدينا ، وحين ينعدم التأثير
ينعدم كذلك تقدير الفن . ولا أظن أن حكماً معتدلاً يقول بأن
لبيقورس (Epicurus) أساء إلى الشعر بلحمته الكبرى « عن
طبيعة الأشياء » (De Rerum Natura) (١) الجامعة للمبادئ
الخلقية الجليلة فضلاً عن تناولها لمذهب ديمقريطس (Democritus)
في اللغات . وقد أشاد بذكره — كشاعر وكإنسان ومفكر — الدكتور
ولدون كار (H. Wildon Carr) في كتابه القيس عن النسبية
(The General Principle of Relativity) — راجع
ص ٧٣ — ٧٤ من الطبعة الثانية . وما أنسب حديث رجل كولدون
كار عنه ، فحديثه يذكرنا بالنسبية وحقيقتها في أحكام الحياة وفي
أحكام الفن وفي كل شيء ، فهي ألصق بمنطق هذه الدنيا من الغلو
الذي لا ينظر إلا إلى وجهة واحدة ، ولا يقبل إلا حلاً واحداً أو
حكماً واحداً . فالنسبية في النقد جذيرة بأن تكون مذهباً محترماً
فأمن زلاً كثيراً في الأحكام الأدبية والفنية من جزمنا بقواعد ليست
في الواقع ما ينبغي وحده أن يتبع .

ومن قبيل هذا التغالي أن نتصور أن الحياة لو خلت من الشر
والهموم لما بقي للشاعر الوجداني متسع للشعر ، لأن الحياة لو خلت
من كل هم وشر وتسفل لما حرمت الإنسانية الأطماع العالية النبيلة
والهموم الجليلة لفتوحاتها السعيدة المرجوة ، ولما بخلت عليها بالأخيلة
الجريئة لهناة أتم ، فتستمر هذه الأخيلة دون انتهاء ، وتتبعها كذلك

(١) راجع ترجمتها «النظمية الانكليزية لواليم الري اليونارد طبعة
Everyman

الفتوحات دون سكون على ممر الأحقاب وكر الأجيال ، وحيشما بقيت الحياة بقي الشعر كيفما كان نوعه متأثراً بظروف بيئته . ومن العبث أن نكتفي بتعاليلنا الفلسفية فنقول إن الحرب العالمية مثلاً نتيجة لازمة للطبيعة البشرية ولا نسترشد بتعاليل أخرى كما توصينا نظرية النسبية ، وهذه التعاليل نستخرجها من علم النفس ، فلا يشق علينا حينئذ أن نتصور كيف يكون مآل البشرية إذا أُلقيت زمام أمورها في أيدي رجال المال وأصحاب معامل الحرب (كما هو الواقع غالباً) بدل أن تكون بأيدي العلماء الاختصاصيين الذين يبتون روح الحق والتآخي الانساني لا الحذر والخوف والعداوة والانانية الحيوانية (كما نرجو في المستقبل القريب) . وليس هذا حديث خرافة ، كما أنه ليس بالوهم ان روح الثقافة العملية تقضى حقاً على الإجرام قضاء كبيراً كما هو مشاهد في سويسرا مثلاً .

* * *

(٦) اذا أنت صاحبتني مطمئناً مخلصاً في مناقشتنا السابقة واقتنعت بصحة نظري لم يصعب عليك أن تقدر كيف ينبغي لمثلي أن يتناول الجوانب المظلمة في الحياة . فاذا لم تكن مقتنعاً فحسبي أن أوجه نظرك إلى أنني لم أغفل أبداً هذه الجوانب ، إذ لا يوجد شاعر مصري دافع عن الفلاح البائس الذي يكون أغلبية الشعب كما دافعت عنه من فواحش شتى سواء في هذا الديوان أو في غيره ، ولي في ذلك مثبات من الايات ، وقد تناولت كذلك صوراً أخرى من بؤس الحياة وهمومها . كما أنني لا أظن أن من « السقراطية » ولا من التفاؤل في شيء مرثي للعلامة الدكتور صروف (ص ١١٠١ - ١١٢٠) ،

على أني أعدهما من مظاهر ضعفي النفساني في وقتٍ شاذٍ . وأرى أن خير وسيلة لتناول هذه الجوانب إنما يكون عن طريق الدرامات والمآسي ، أي على لسان الغير لا على لسان نفسي التي اطمأنت إلى نوع من السعادة بتفائلها وبارتياحتها إلى مستقبل الانسانية ، وبتمجيدها للطبيعة الحكيمة ، التي تضع مصلحة النوع فوق مصلحة الفرد والرجل الذي تصاحبه الأحزان والمآسي في جميع أدوار حياته فينوء تحتها زمناً ثم يتغلب عليها أخيراً لا يمكن أن تكون روح المساة عنده ضعيفة ، وإنما المعقول هو أنه حرّر وجدانه وأسعده بفلسفة نفسية ألهم إليها ، فرأى ذلك إكسير سعادته وأحب أن يهبه لغيره أيضاً . وهذه هي حقيقة حالي . فلو أني أردت التعبير عن أحزاني تعبيراً مباشراً (كما أفعل نادراً) لما عجزت — وهذا ما يشهد به صديقي الناقد الاستاذ سعيد إبراهيم — ولكن ما أعرفه كطبيب هو أن استمراري على ذلك سيعيدني حتماً إلى انحطاطي العصبي الذي عانيت به قبيل رحيلي إلى إنجلترا فلماذا أقهر نفسي بدل أن أقهر الحوادث والهموم ؟ ولماذا أضيع اكسير سعادي النفسية من يدي وأبث السوداوية في نفوس هي أحوج إلى بلسم العزاء ؟ ولماذا أنشر روح الخوف والحذر والتشاؤم والبغضاء والسخط على الدنيا وأهلها ؟ إن هذا هو ما أقدره كنتيجة للأسلوب المباشر في أمثال هذه المواضيع . وما أراه أحجى وأسلم هو الأسلوب الروائي وعلى الأخص الشكسبيري التمثيلي ، تاركاً للنظارة أو للقراء التأثير الإيحائي والخير ، والنفور من الشر ، والميل إلى إسعاد الانسانية الشقية . وأما ذلك التصوير للجوانب المظلمة في الحياة الذي لامعني له سوى تصوير ابن آدم في صورة الذئب الذي لا يمكن أن يؤمن إلا اذا كان ضعيفاً وعليلاً ، فلا شأن لي به ، لأنه يخالف إيماني العلمي

بمحاضر الانسانية ومستقبلها ، كما يخالف اعتقادي في أن معظم
الصاحبين قصيرو النظر أنانيون ، لا يدركون حكمة الطبيعة وشغفها
بأنوع قبل الفرد وسعيها الدائم إلى الترقية والتجميل .

وفي الحياة من الدروس ما يغني عن كل أمثلة مدرسية مسطورة .
وما المآسي الاغريقية وبالمآسي الحققة على ما نفهمها في هذا العصر ،
فتأثر الشعب الاغريقي بها يرجع أولا لبلاغتها الموسيقية ، ولأن
فرص تمثيلها كانت في الواقع فرص عبادة عجيبة للشهوة سلطان عليها
فلم يكن المقصود من تلك المآسي بث الحزن قدر اثاره الروع والرحمة
كما هو شأن العبادات والدرامات الهندوية (Hindo dramas) ،
ولكنّ هذا لم يكن الا قصداً ثانوياً ، وأما الغرض الأول فالغناء
الديني الصرف الذي يرتاح اليه النظارة ثم ان فكرة القدر متسلطة
جداً على العقل اليوناني المؤلف ، ونحن لا يرضينا مجازاة ذلك في هذا
العصر ، بل نؤثر ان ننسب عيوبنا إلى أخطائنا ولو كانت صغيرة ،
فهذا أصلح لنا وأنفع من التعلق بالقدر وحده ولومه دون أنفسنا على
نتائج غلطتنا . ولهذا أرى أن هذه المآسي الاغريقية ليست حجة ضدي
فهي قطع أخلاقية شبيهة بالآوبرات يمتزج فيها الشعر بالموسيقى
والرقص والغناء كعبادة دينية ، فاذا كانت قد نفعت قدماء الاغريق
فليس ذلك لما فيها من روح المأساة النسيية ، وانما لأنها بثت جمالا
فنياً كواجب ديني فهي اذن « آوبرات مقدسة » وليست تراجيديات ،
فكانت بذلك وليمة ذهنية فاخرة لشعب مثقف في أوج حضارته
الاولى . وأني أعلم أن لبعض النقاد الالمانيين آراء غير هذه في المآسي
الاغريقية وأظن أن مترجم إسكيليس إلى الانجليزية المستر جون

استوارت بـلاكـي (John Stuart Blackie) لم يخطـي في تعريف هذه الآثار بأنها تحف فنية اذا روعيت ظروفها ونشأتها ، ولكنها لا تفضل على آثار شكسبير مثلاً . وما يهمني أنا في هذا المقام هو : (١) تبيان إجلالي للتأليف التراجيدي واعتباره خير وسيلة لإظهار جوانب الحياة دون التصنع ودون التعبير عن غير إحساس فيما لو اتبع المؤلف الأسلوب المباشر الصادر عن نفسه . (٢) تقرير ميلي إلى هذا النوع من التأليف ، وإن سكوتي الحاضر بل انصرافي المؤقت إلى سواه ليس معناه عزوفي عنه . (٣) تقرير حقيقة المآسي الاغريقية التي لا اعتبرها مثلاً أعلى للتأليف التراجيدي ، خصوصاً وأناي لأرى أن روح الثقافة العصرية تستدعي التثبث بالقدر والتغالي في تصوير دوره في الحياة . (٤) إظهار احترامي في الوقت ذاته للنبوغ الفني اليوناني في التمثيل الشعري ، وأخص بالذكر إسكيليس وروايته « أغاممنون » .

* * *

(٧) بديهي أن شعر السخط والغضب والثورة له من اللهجة غير ما لشعر الهدوء والسلام والمحبة ، ولن يسمي الأول قوياً والثاني ضعيفاً إلا من يفقد حاسة التناسب (Sense of proportion) فالواجب علينا أن نعدل هذا الزال في أحكامنا ، لأن لكل فن قوة ظاهرة أو مستورة تناسب موضوعه . وهذا يدعوني إلى كلمة عن الديباجة والأسلوب اللغوي ، فأقول إنني لم أحرم من يحمدون لي أسلوباً إلى جانب من ينتقدونه . وبين الناقلين من لا يفهمون مطلقاً المقطوعات الشعرية الرمزية التي في هذا الديوان ، أو قد يفهمونها

حسب ظاهرها دون روحها الفنية . وهذا الفريق بين الابداء كثير العدد في مصر للأسف ، وهو ما يدعو إلى التريث في التجديد ، حتى لا يكون الغذاء الطريف عنصر المضم لأذهان كثيرة. تُستَمدُّ علي مراعاتي للذوق المصري في تعابيري ، فدعني أقول في غير ترددٍ إنَّ هذا الذوق المصري هو أكثر الأذواق أثراً في صقل العربية العصرية ، وأقول غير مدافع أنَّ الذوق المصري الذي أنجب البهاء زهير وابن الفارض ومصطفى نجيب واسماعيل صبري وأحمد شوقي وغيرهم من الشعراء المصريين المخلصين لروح بيئتهم هو روح الرقة في التعبير غالباً لا روح الجزالة التي تمت بصلة أوثق إلى العراقيين والشآمين . هذه الرقة تجدها في شعر البهاء زهير وفي شعر ابن الفارض وفي شعر شوقي المطبوع الذي لم يتطرق اليه التصنع اللغوي أو تكلف الغرض ، وتجد السلاسة على الأقل في شعر حافظ بك ابراهيم المطبوع ، بينما تجد الجزالة والمئاتة اللغوية القوية في نثر (البؤساء) المصنوع المتكلف بمهارة . وقد تتناسب الجزالة مع شيء من سلاسة الاسلوب في الشعر الوطني وفي المراثي ونحو ذلك. وهذا ما أقرّ لي به غير قليل من أساتذة الأدب العربي في مصر . وقد أخطأ من قال إنني أقلد مطراناً في أسلوبى فالواقع أنني لا أقلد أحداً . وأنّ تأثيري بمطران شبيه بتأثير غيري من المجددين به — وإن حاول بعضهم إنكار فضله عليهم — وأعني بذلك حرية تعبيره واهتمامه بوحدة القصيدة . فهذه الحرية في النظم هي خير تعليم وخير تراثٍ وهبه لنا مطران . وأما عن موسيقية النظم فقد تأثرت فيها بنظم شوقي بك الذي أعدّه — حينما يترك نفسه على سجيتها — أعظم شعرائنا الليريكيين ، ولن أبخسه حقه هذا من التقدير مهما اضطرت إلى انتقاد ذبذبته الفكرية وتقلبه السياسي وجبنه الأدبي

وغير ذلك من مظاهر ضعفه النفسي في مجال التأثير على شعره . ولإني
لا أنكر أن حافظ بك إبراهيم شاعر كبير بل أقدر شعراء الفكاهة
والسخر في مصر اذا شاء ، كما لا أنكر أنه شاعر البيان التام ولكني
أنكر أن البيان هو دائماً البلاغة وخصوصاً البلاغة الفنية ، وأنكر أن
البهرج اللفظي عنوان الاتقان الفني والشاعرية بل أعده غالباً عنوان
الفقر النفسي ، ولذلك أرى أن حافظ بك هو آخر من ينبغي له أن
يتعرض لبلاغة مطران الفنية ، فانه لن يساويها ببيانه ولن يقرب
منها في أي نوع من أنواع شعره . وهذا الاستاذ أحمد محرم (الذي
يقدمه حافظ بك على نفسه والذي يعدّ أسلوبه آية في الجزالة والمتانة
العربية) يعجب ايما اعجاب بقوة مطران الفنية ، ويقدر ما في
أسلوب مطران من تجديد شائق وبيان جميل وإن خالف المؤلف .

ليس الشاعر مؤلف معجم إذ بآلاف قليلة من الكلمات يستطيع
أيّ شاعر مطبوع جريء أن ينظم القصص والملاحم الشعرية الفاتنة ،
وليست السهولة في التعبير معناها الضعف والركاكة فان هذه السهولة
كما شهدت بذلك نابغة شواعر الانجليز المس إدِيث ستول (Sitwell
Miss Edith) — نتيجة جهد فكري طويل في ذهن الشاعر الناضج
وهذه السهولة والبساطة المتناهية في التعبير وتجنب الحذقة وعرض
بضاعة المترادفات اللغوية مما يتوخاه شعراء الانجليز الناهضون وفي
طليعتهم سيغفرد ساسون (Siegfried Sasson) صاحب
« سياحة القلب — The Heart's Journey » وغيرها من الروائع
الشعرية البليغة . ولكن هذا المذهب لن يرضي أصحابنا المغالين الذين
يغالبون الذوق المصري ويحلّو لهم أن يقولوا لنا « ما أحيلى ! » ،

ويبهجم أن يتحفونا بأمثال هذه المفردات : شماريخ ، يللملم ، هيئم ، مسبكر ، قشاعم ، تامور ، سحالة ، وذيلة ، مزؤد ، يحور ، الجديس ، الفيج ، الحنوط ، يطبي ، يموق ، الذحون ، التأطر ، البوغاء ، السمادير ، اللفق ، الشبابة ، الجؤار ، الرجم ، الاواذي ، الشطون ، المصرد ، المصطلم . ونحن لانعارض في احياء هذه الالفاظ وغيرها في الشعر اذا دعت الضرورة البيانية ، بل نعد ذلك خدمة مشكورة للغة ، ولكننا نعارض في اعتبار ذلك غرضاً أساسياً للشاعر ، ونعارض التصنع المؤدي إلى مخالفة ذوقنا الشعبي المحبوب ، وننكر القول بأن السهل الممتنع ضعف وغثائة ، وان للكلمات الجوفاء الرئانة والالفاظ الغريبة جمالاً وقوة لانظير لها ولا أسر لغيرها ، ونصرّح بعد ذلك بأن لكل مقام أسلوباً ومقالاً ، وان الشاعر الفنان يميل بفطرته إلى التنويع ، فالتنوع من مظاهر الفن . وكما أنه غلو غير محمود أن تحكم بوأد قصيدة الكلمة أو بيت لا يعجبك فيها ناسياً الوحدة النظمية ، وأن تحكم بفساد ديوان لأن جزءاً منه لا يوافق مبولك في الأغراض والاساليب ناسياً أيضاً وحدة التأليف الذي بين يديك ، فكذلك من الخطل الكبير أن تحكم على شاعر بالموث الادبي لان أحد دواوينه لم يرق لديك ، متناسياً وحدة نفسيته وأدبه المتمثلة في مجموع تأليفه ! ! فان انت نسيته فهذا ان يقضي عليها ، بل هي التي ترجيه إلى التنويع بحيث تتناسب تأليفه المختلفة فتكون وحدة منوعة مقبولة . وكيف تحكم على شاعر بالعجز في الشعر الغنائي مثلاً وتحسب حكمك عادلاً لمجرد اطلاعك على اشعار مرسله له وجهلك ما عداها في دواوينه الاخرى ؟ !

ان الأسلوب عندي هو نتيجة تفاعل فكري وروحي وذوقي بين الشاعر وبيئته ، وليس كل أسلوب في يفهم ، ولا سيما القصائد الرمزية التي للاضمار والتقدير نصيب فيها ، ولثقافة عون على تفسيرها ، فقد تكون هذه القصائد آيات فنية ولكن لا يفهمها إلا القليلون ويرمي صاحبها بالغباوة أو التنطع ! وإخواننا المحافظون يقابلون عندنا فريق الحنابلة اللغويين عند الاوروبيين (Puritans) ، وهؤلاء يميلون إلى استعمال الكلمات حسب معانيها الأصلية فتكون نتيجة ذلك إهمال الكثير من ظلال المعاني العصرية أو العجز عند التعبير . ولكن بينما صوت هؤلاء ضعيف في الغرب ، نجد نظراءهم عندنا يحاولون التأثير على جمهور الأدباء بحجة الغيرة على « لغة القرآن » التي يسيئون هم اليها بجمودهم أضعاف ما نخدمها نحن بحريتنا المعقولة وتجديدنا . ولو تدبر هؤلاء النقاد لأدركوا أن أعظم المشترعين في اللغة أئراً هم الشعراء والشعب ، لا المجامع اللغوية والخاصة إلا في العمليات العويصة . ولو أنك درست (المخصص) لابن سيدة لوجدت آلاف كلماته مصدرها دهماء العرب وأصحاب الحرف والصناعات والأعمال ، وما من تعبير جديد للحياة إلا ويبدأ به العامة غالباً ثم يصقله الخاصة بعض الصقل . وسر ذلك أن العامة يعبرون بفطرتهم وبحريتهم الكاملة عن شعورهم ، بعيدين عن كل تصنع . وكذا حال الشعراء إلا في نزوعهم للفظ الموسيقى وصقلهم إياه من تلقاء أنفسهم اذا كان عامي الأصل أو دنخيلاً ، ولذلك كان الواجب أن تؤخذ المفردات والتعابير الجديدة التي يوجدها التطور والحاجة عن المجددين من الشعراء ، لا أن تملأ عليهم من أصحاب القواعد والفتاوى التي لا يعرفون تطبيقها ، لذلك كانت خدمة تيمور باشا

وسقراط سبيرويك بجمعها الكثير من الألفاظ والتعابير العامة خدمةً
اغوية جليلة القدر لمن يعرفون الانتفاع بها من الخاصة .

واني اذا عذرت من لا يقدرّون قيمة الشعر المرسل والشعر الحر
وتنوع الأوزان والابتداع فيها ، وأثر كل ذلك في تحرير التعابير
الحر وتنوع الأوزان والابتداع فيها ، وأثر كل ذلك في تحرير
التعابير الشعرية من القيود الثقيلة ، ودفعها حرة لتكون للأدب العربي
شعراً درامياً قوياً بعد أن حرم ذلك طويلاً في ماضيه إذا عذرت هؤلاء
فاني لا أعذر من يجازفون بأحكامهم تبعاً للمحبة والكراهة (antipathy)
لذات الشاعر . وكم من اناس يتولد عندهم النفور لا لسبب إلا عداوة
أصيلة في طباعهم لكل رجل جهير ، حاسدينه لظهوره في عمله ،
وإن لم تكن لهم صلة بذلك العمل ولا قدرة على منافستهم إياه في مجاله ! !
فأمثال هؤلاء ليست لأحكامهم قيمة عندي : أليس من بينهم من عدوا
مرثيتي للعلامة صروف (ص ١١٠٦ — ١١٢٠) إفساداً للغة والأذهان
الأدبية حينما عدها الشاعر النائر الأستاذ أحمد الشايب معجزة أدبية ،
وصفها لإمام اللغة المتشدد الأب الكرمل بقوله (١) : « انك لا ترى
في جميع أبياتها خيلاً كاذباً ، أو تصويراً وهمياً بل تلفي الحقيقة
مبثوثة في ثنايا كلمها بثاً عجيباً » ، وحينما وصفها الأستاذ لطفي جمعه
« بأنها من آيات الشعر العربي الحديث » ! ! أليس أولئك المتحدلقون
المغرضون هم الذين وصموا الأستاذ عبد الرحمن شكري بالجهل بعد
مدح سابق عند ما بلغهم انه اعجب بقصيدتي « في حزن الريف »
(ص ٩٢٦) ووصفها بأنها « شعر صاف — pure poetry » ؟ !

(١) مجلة (لغة العرب) ٥ م ج ٥ ص ٢٨٢ .

وابوا إلا أن يقرروا ان هذا الشعر الوجداني المتصل بالطبيعة « دردره فارغة » ! فهل امثال هؤلاء يقام لهم في النقد الأدبي وزن حتى يشار اليهم في معرض الآراء ؟ !

لو صح ان الأسلوب العربي القوي قوي في كل وقت لوجب مثلاً ان نحتفي بكل ماوعته (مختارات ابن الشجري) و (ديوان الحماسة) و (جمهرة أشعار العرب) ، وأمثالها من التصانيف لمختار شعر العرب المأثور ، ولكن الواقع ان حفاوتنا مقتصرة على ما ناسب ذوقنا منها لفظاً ومعنى ومرمى. وسيختلف حتماً مبلغ هذه الحفاوة من جيل الى جيل .

قال المستشرق الشهير الأستاذ ادورد هنري بلمر ناقل البهاء زهير إلى الانجليزية في تصديره للديوان (سنة ١٨٧٦ م) : « . . . لكن نظم البهاء زهير ليس في البدايات والأمثال فقط يشابه أشعار شعراء أوروبا ، بل أكثر أفكاره تحاذي أفكار شعرائنا الانجليزيين في القرن السابع عشر بعد المسيح حتى لا يكاد أحد من الافرنج يصدق أنها من مؤلفات شاعر مسلم من أيام بني أيوب . والظاهر أن أكثر أشعار المشرق -- ولا سيما أشعار الفرس -- لا تخلو من التصنع في الاستعارة ، والمباغة في المدح والدم ، والبهرجة في العبارة ، وهذا كله عند أهل أوروبا غير مرغوب فيه ، بل يعدونه من أقبح العيوب . وأما نظم بهاء الدين زهير فانك لا ترى فيه غير البساطة الطبيعية والايجاز ، على ما فيه من حسن الاستعارة والمجاز الذي يذكر بغزليات هيرك الشاعر الانجليزي المعروف . وأما المقاطيع الرقيقة والنكات الدقيقة التي كان شعراء الانجليز في أيام رجع دولة آل استورت مولعين بها ، فالبهاء مالك زمام صناعتها ، كما يشهد لذلك قوله :

ويخفق حين يبصره فؤادي
ولا عجب اذا رقص الطروب
وان كان المعنى مطروقا كالموت عشقا ووصف العاشق بالشهادة
فترى صاحب الديوان يزينه بأسلوب جديد ويأتي بنكتة زائدة كقوله:
فخذ مرة روجي نرحني ، وإن أكن
أموت مرارا في النهار وأبعث
وكقوله في موضع آخر :
أنت روجي وقد تملكيت روجي
وحياتي وقد سلبت حياتي
مت شوقا فأحيني بوصال
أخبر الناس كيف طعم الممات ! !
فزاد هذا الكلام حسنا ، وكساه رونقا جديدا ، وقال جدا ما لم
يقله غيره الا هزلا . ثم في قرب الهرم وظهور الشيب أبداع في المعنى
وأغرب في الكلام حيث قال :
فقد انجلي ليل الشباب
وقد بدا صبح المشيب
ورأيت في أنواره
ما كان يخفى من عيوبتي ؟ »

هذا شيء من رأي الأستاذ بلمر في شاعرنا المصري التريبة الذي
يمثل ذوقنا الأدبي الأصيل أصدق تمثيل . وهو رأي شاركه فيه
كثيرون من النقاد النافذي البصر في الأدب من عرب ومستشرقين .

وحسبك شهادة من نوابغ شعراء العصر لأسلوبه السهل الخلاب ولديباجته
السحرية ما قاله شوقي بك فيه من مدح بمقدمة الطبعة الأولى من ديوانه
(الشوقيات) ، حيث وصفه بأنه « سيد من ضحكك في القول وبكى ،
وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى ، وحسبك انه لو اجتمع ألف
شاعر يعززه ألف ناثر على أن يحلوا شعر البها أو يأتوا بنثر في سهولته
لا نصرفوا عنه وهو كما هو ! ! » .

هذا الشاعر العظيم المصري النشأة والروح والديباجة هو مثلنا
الأعلى في حسن الصياغة والتحرر في التعبير . وهو المبدع القائل :
بروحـي من أسميها « بستي » (١)

فتنظر لي النحاة بعين مقـت
يـرون بأنني قد قلت لحنـاً
وكيف وانني لزهير وقتي ! ؟
ولكن عادة ملكت جهاتي
فلا لحن اذا ما قلت « متي » ! !

فهذا الشاعر الفنان الذي يؤثر الرقة على الألفاظ الضخمة الرنانة
هو — في نظر اخواننا الحنابلة — رب الغثاة والركاسة والضعف
والعامية وسوء الصنعة وما شئت أن تحصيه من عيوب ! ولاني أؤثر
أن أشارك البها زهير في روحه فأنال ذمهم على التنطع اللغوي في
اسلوبي لأنال رضاءهم وتصفيقتهم ! !

* * *

(١) بسديتي .

(٨) وأخيراً لابد لي في ختام هذه العجالة (التي ليست كل ما يسمح الفراغ ولا الوقت بأن يقال في موضوعاتها) من الإشارة الى الرأي القائل بأن أدب الأديب غير شخصه ، وهو رأي خالفته دائره وانتقدت من أجل هذه المخالفة ، فأقول انه يصبح طبعاً من وجهة نظرية قبول مدح الفضيلة من الشرير وتقدير الغنى من الفقير ، ففي الحالة الأخيرة يكون الفقير بأخيلته في بيئة الغنى ، وفي الحالة الأولى يكون الشرير بندايمته متمصاً لنفسية الخير ولذلك يكون أدبهما الوصفى غير مصنوع وله قوة التأثير ، وهذه أحوال شاذة وليس فيها ما يناقص رأيي . ولكن الأغلب أن يجيد الشاعر الفقير بحرارة وألم وصف الفقر ، وأن يجيد الشاعر الشرير وصف وتعظيم ما نعهه شراً ، وهكذا يبرز لنا كل منهما نوعاً من الفن لمن يستملحه ولن يرى فيه البلاغة والاتقان . ولكن هيهات أن يكون هذا الاتقان المؤثر في الأدب بغير اخلاص أصيل عند صاحبه :

لا خير في أدب لمن لم يتخذ

من طبعه طبعاً ومنه أصولاً

ونحن اذا احترمنا أدب اسكار وايلد (Oscar Wilde) مثلاً فلشعورنا بأنه مخلص في شذوذه ، ولأن أدبه صورة نفسه الحقة ، فيساعد هذا الاعتبار السيكولوجي على احداث تأثيرنا الفني . فشخصية الشاعر جزء من شعره أعظم من البحر والروي ، والاعجاب بأثر الشاعر اعجاب بشخصه أيضاً كما يتخيلة القارئ في شعره ، فاذا ضاع هذا التخيل الجميل عند افتضاح حقيقة نفسية الشاعر ضاع التأثير غالباً . ولذلك يحرص بعض الناشرين على ترك القراء في أوهامهم

منخدعين بالصناعة إلى جانب تأثرهم بالحقيقة ، ويأبون حتى اذاعة صور المؤلفين حتى يبقى تأثير القراء بالصور الخيالية التي في أذهانهم !!

وتبعاً لنظرية « أن أدب الأديب غير شخصه ، وإن الفن مرآة متحيزة » ، يسيغون للأديب ما لا يجوز لنا به مستعمل من الرياء السياسي والأساليب المكيفيلية . وعندي أن الأديب يجب أن يكون فوق سفسطة وأكاذيب المداهنات السياسية والخداع والدجل . وإلا كان تاجر ألفاظ ومغالطات ، كما يجب عليه أن يعد نفسه مؤتمناً على الجمال الفني قوأمً عليه ، سواء خص هذا الجمال شخصه أو غيره ، وهيهات أن أوافق على أن حياة الأديب كفاح ذاتي أي تنازع في سبيل الظهور ، بدل البحث عن أنواع الجمال ووصلها ببعضها . فهذا التناحر الحيواني في سبيل ما يسمى « بقاء الاصلح » تناحر لا يليق بأهل الثقافة والأدب العالي الذين ينبغي عليهم إبراز أحاسنهم ، تاركين لقانون الاختيار أن يفعل فعله مع الزمن في غير قتال . والقول بأن ما لا يستطيع أن يقاوم الحملات غير أهل للحياة مقارنة مع الفارق . وليت شعري كيف كنا نحكم على الاسبانيين لو أنهم قضوا قضاء تاماً على آثار العرب الفنية في الاندلس ، وعلى البولشفيين لو أنهم قضوا الآن على الآثار الفنية التي تخص الرأسماليين بحجة أنها غير أهل للحياة ما دامت لا تستطيع مقاومتهم ؟ ! !

وبالله متى كانت حياة الفنان متوقفة عدلاً على قدرته على ردّ دهاء خصومه وألاعيبهم الشيطانية لاسيما اذا كان رجلاً حياً رقيق الاحساس عظيم التأثير ؟ !

أما أن الفن مرآة غير متحيزة فخطأ آخر ، لأن هذا جانب

من الفن وليس كلّ الفنّ ، وإلا فلدينا إذن فنّ الواقع نصيب المقلد
أو المرأة ، وفن الخيال — أي المثل العالي — نصيب الخالق المبتدع ،
ولاشك أنّ الفنان الخالق (كيفما كان لون مثله الأعلى) أعظم من
الفنان المرأة ! إذ شتان بين ذلك الذي يكتفي بتصوير الحياة بما فيها من
خير وشر ، وبين ذلك الذي يخلق إلى جانب هذا أو قبله مثلاً عالياً
مسعداً ملهماً من تفكيره وإحساسه ، وإن يكن خيالياً في خيال !

* * *

« الفن هو طريق الخالق إلى عمله » .

(امر صن - Emerson)

« الشعر نفس المعرفة كلها وروحها الرقيق ، فهو التعبير الحار الذي يحلو العلم »

(وردزورث - Wordsworth)

« يجب أن يكتب الثقة للجمهور لا للفنان . »

(وليم ووتر - Wm. Winter)

فصل ختامي بين اليوم والقد بقلم الناشر

أريد بهذا الفصل أن أختم الديوان مستعرضاً صفحاته كما يستعرض الشريط الفضّي (شريط السينما) - في غير تباطؤ مملٍ - لفائدة المتأمل الناقد ، ولعلك توافقني على أنه لا غني عن هذا الاستعراض الختامي لمثل هذا التأليف الضخم استثماراً لثروة .

يقع شعر هذا الديوان (أي ما خصّ صاحبه) في نيف وستين وسبعمائة وثمانية آلاف من الأبيات ، تضمنتها ثمان وسبعون واربعمئة قصيدة ومطوعة جامعة لفنون شتى من الشعر . وقد صدرته بمقدمات ثلاث ، وأتبع القسم الشعري بنظرات وملاحظات حرّة للأساتذة المجتدين : أحمد الشايب ، ومحمد سعيد إبراهيم ، وسلامة موسى ، فتألف من ذلك ديوان شعر ونقد وأدب عام متنوع المضامين ، متماسك الأجزاء ، مستقلّ الصورة والنزعة .

والغرض من هذه الابحاث التحليلية التي يقدرها عارفو الأدب الأوروبي والمستشرقون هو تنبيه الأذهان إلى الدراسة الشعرية النقدية ، والحث على التجديد الصادق والاصلاح الأدبي ، والاعتبار بتاريخ

الشعر العصري في مصر على الأخص ، وبما أصابه من تقلبات ، بحكم الدوافع الشخصية التي لم تبال بخدمة الشعر ذاته قدر خدمة المجد الشخصي . فهذه الأبحاث المفيدة إذن مجموعة أدبٍ حرٍ ونقدٍ متصلة الأجزاء ، وغايتها خير الأدب والفن الصراح .

وقد أشرت — رداً على تحامل الحسد والجحود وسفاف المغرضين — إلى أن ما تضمنته هذه المجموعة الشعرية النفسية من ذخيرة أدبية كافية وحدها لوضع الشاعر في الطبقة الأولى من شعراء العصر ، لو لم يكن عليه تفرده أو شذوذه جنائية نظيره على ابن الرومي في زمنه ، فان شوقي بك وحافظ بك إبراهيم وأحمد أفندي محرم وغيرهم من مشاهير الشعراء الذين يعدون في المرتبة الأولى بين شعراء العربية ما بلغوا سابقاً تلك المنزلة الا بأقل من هذا الانتاج العظيم في القدر والمقدار .

بيد أن شاعرنا لا يزال في منتصف العقد الرابع من عمره ، وإن كانت مرانته الشعرية ترجع إلى أكثر من عشرين عاماً بحكم طبعه الشعري الأصيل الموروث . وأجمل ما في خلقه أنه — وهو المعتد الوثائق بنفسه — غير راضٍ عن إنتاجه الحاضر ، وكثير النقد لنفسه بنفسه مع احترام كليٍ للنقد الشريف ، وهذه صفةٌ طيبة وعلامةٌ حسنة ، لأنها ستبقى — لاجالة — دافعة له إلى العمل وزيادة الأجادة حباً في بلوغ أسمى ما يستطيع من كمال في إنتاجه المتجدد المطبوع . ولولا الاعتداد بالنفس لما أقدم أيّ نابغة على عمل شاق عظيم ، كما انه لولا حب الانتقان والانتقال من الحسن إلى الأحسن ولولا عدم الرضاء بالحاضر لما كان للمستقبل أملٌ . وشتان بين الاعتداد بالنفس لدى الطامع إلى « المثل الأعلى » وبين الأباطيل والغرور ، فان الفرد

المغرور بذاته - بخلاف المعتد بنفسه المجد - ويتوهم غالباً أنه في غنى عن جهد آخر ، وأن فتوحاته - على قتلها أو كثرتها - لم تترك مجالاً لفتح جديد ! وكثيراً ما صرح لي شاعرنا بأنه لا ينتظر أن يرضى عن نفسه قبل سنوات ، وربما لم يكن رضائه كاملاً وقتئذ ، لأن مجال العمل والانتان في نظره واسع ، وهو لا يشعر بأنه أدى الفرض الواجب عليه ، وإن افتخر سواه بما هو دون آثاره بكثير . . . وأخص مجال للعمل والاصلاح تدعو الحاجة إلى توجيه الجهود الشعرية اليه الآن إنما هو المسرح المصري ، أي إلى الدرامات والمآسي الشعرية والأوبرات ، فضلاً عن القصص العصري الاجتماعي .

- ٢ -

وما أحسبني مبالغاً في اعتقادي أن الدكتور أبا شادي أكثر شعرائنا تحسناً أو مناعة من هجمات النقد المغرض لانه - وهو الجنب الخصب الذهبي ، المبدع المنجب الكثير الانتاج ، بل الذي لا يميز في قوى الوصف والتخيل والتحليل والقصص الشعري - لا يقبل أن يعيش على ذكرى آثاره الماضية ، وإنما يعبأ بآمال المستقبل فقط ، وكلما ازداد علماً زاد شعوره بعجزه وتطلعه إلى المثل الأصلح ، فاذا أشار إلى ماضي آثاره فلانها صور "عزيزة من شبابه ، واذا تحدث عنها أو افتخر قائماً في موقف الدفاع فقط عن جهده أمام حملات المغرضين (وان عدّه في أقصى ضميره جهد المقل العامل) ، وفي موقف الدفاع عن حسن طويته وشرف مقصده ، وعن تمانيه في حب وطنه وعلمه ومن كانت له هذه العقلية الحصينة فمن الصعب جداً أن ينال منه التحامل والتجريح والتشهير مهما أنفق جاسدوه في هذا السبيل بمناوراتهم

ودسائسهم من مال وجهه ، بل قد يشجعه القدح أضعاف ما يشجعه المدح ... ! فلا يحل إذن للعجب اذا لم تثبط المعارضة همته بل كانت داعياً إلى شحذها ، ولاغرابة اذا كان مثله أول من يستفيد من النقد الصحيح ويرحب به ، بينما كثيرون غيره يفزعون من النقد الشريف ويعتبرون الناقد النزيه خصماً لهم ! ! وقد شبهت شاعرنا مرة" بالهندي التركي الذي ليست له وقائع هجوم ولا يميل إلى التحرش بأحد ، ولكن له مواقف دفاع لا تنسى ... فشاعرنا من يعشق الادباء ومحاسن الأدباء ، ومن يفتش عن حسناتهم ويذيعها لشغفه الدائم بالحق والجمال ، ومن يقترح ويشجع ويساعد بكل تسامح واخلاص وغيره ، ومن لاتأسره الثعرة الدينية أو المذهبية أو السياسية ، بل يقدر الاخاء الانساني تقديسه للعقل والجمال وشرف الذهن والحرية ويحب الأدب والادباء حباً جماً ، كما يحب العلم والعلماء ، وكأنهم جميعاً اخوان" في الماسونية التي ينتسب اليها ... ولكنه اذا هوجم بعنف وتحامل فهو سيد من يسدد القلم حاذقاً ماهراً إلى رؤوس ناقديه المتحاملين وإلى صدورهم تسديداً علمياً فتاكاً بأسلوب محكم قدير ، وخير" من يرتجل خطبة نقدية رداً عليهم تنبئك ان" صاحبها الشاعر استاذ" أيضاً في النقد الادبي لايشق له غبار ، بل إمام" ضليع" في طريقته النقدية التحليلية التي لاتترك كبيرة ولا صغيرة دون فحص وتشخيص . فاذا ارتد أمام رده أشد ناقدية تعنتاً فليس في ذلك ما يعيبهم وإن كان فيه ما يشرفه ، لأن الرجوع إلى الحق فضيلة ، ولولا هذا الجحود وهذا التحاسد المتفشي بين الأدباء في مصر بحيث لا يكاد يغتم الا من كان متصنعاً للعظمة والتعالي ، أو صاحب مال أو سطوة أو نفوذ اجتماعي ، أو كاتباً مهوياً في صحيفة من الصحف . - لولا هذه

المقاومة التي تجعل الأديب النابعة المتواري غريباً في وطنه مساءً إليه لما احتجنا إلى كلمة ردّ أو دفاع أو تقدير نرى أنّ شاعرنا أسمى منها قدراً . ولكن أصدقائي الأدباء على كل حال أظهروا ارتياحهم العظيم إلى هذه الدراسات التحليلية المفيدة سواء خصت نفسية الشاعر أو نظمه لأنها طريفة في أدبنا العصري وقد شحذت اذهان التفكير والبحث الجدي المنتج . ومن قبيل الرجوع إلى الحق ما كتبه الناقد المعروف « قدامة » في صحيفة (النواب) بالعدد الثاني من المجلد الأول في موضع المقارنة بين أبي شادي والزهاوي . قال : « وأنا لمرانا مطالبين بالاعتذار إلى ولدنا الدكتور أحمد زكي أبي شادي ابن صديقنا المرحوم الاستاذ محمد بك أبي شادي عما غمزنه به في إعداد (السياسة الأسبوعية) في كفائه الشعرية وفكرته الفلسفية ، فانه وايم الحق لاحل شاعرية وأقدم فلسفة من ذلك الذي لا يستحي أن يهندي ويهنر حيث نبغ حماد وبشار ، وعلى كئيب من قبر الشريف الرضي ومهيار ... »

وكان بودنا لو أنّ هذا الاعتذار من حضرة « قدامة » لم يكن على حساب الزّهاوي الذي نرى أنه لا ينكر أدبه وفضله وتعمقه الفلسفي هذا الانكار في حق وعدل .

— ٣ —

وبهذه المناسبة أصرح مرة أخرى بترحيبي الكلي وبترحيب الشاعر بالنقد الأدبي النزيه الذي يرمي صاحبه في غير مهاباة ولا مواربة إلى خدمة الأدب ذاته ، وإلى ارشاد الشاعر إلى بلوغ مرتبة أرقى من

الشاعرية والبيان لا إلى وضع العرقل في طريقه . وأما قلب الحقائق أو القدح المغرض الذميم الداعي إلى الهدم أو التشدق بأبجدية النقد إسفافاً وافلاساً من الناقد العاجز فاما أن يكون مآله التحقير والاعغفال منا أو تلقين صاحبه درساً شريفاً لا ينسى في واجب الأديب الناقد، وإلقاءه في الهوة التي حفرها هو ليقبر فيها عائراً فضل الشاعر . ولاعتب علينا في سلوك هذا المنهج لنضع حداً للفوضى الأدبية الحاضرة في مصر ، ولعبث فريق من الأدعياء بفنّ النمد الأدبي ، ولتأجير أعلامهم لمن يدفعهم الحسد للنيل من كرامات أخيار الرجال . أصرح كذلك بأن كل ما دونته في هذا الكتاب من نقد سواء لنا أو علينا لا يعني أننا نحتم أن يكون الحق في جانبنا دائماً . وإنما يعني رغبتنا الصادقة في خدمة الحق بالنقد الحرّ والتحليل الشامل ، حافلين بالمبادئ لا بالأشخاص إلا حيثما اندمج الأشخاص اندماجاً في مباحث النقد .

— ٤ —

يمتاز شعر الدكتور أبي شادي بين مميزات كثيرة (أهمّها أنه شعر إنساني عام) بترتيب الفكر وقوة الخيال نتيجة بحث وتأمل ثم تنسيق ، ولعله اقتبس ذلك من صحبة استأذه الجليل مطران على الأخص ومن تربيته العلمية ومن اطلاعه الواسع على الأدب الأوروبي . ويمتاز كذلك بجرأة في التعبير ولطف في الاشارات وحلاوة في الأداء وهي ميزة ثانوية عندي ، ولعله أشرب ذلك من روح خاله الشاعر النائر الفنان المرحوم مصطفى بك نجيب فضلاً عن عنصرية مزاجه الحساس ويمتاز بالصراحة والاخلاص والشجاعة الأدبية التي لا تعرف المجاملة في الحق مع أقرب الناس اليه ومع أساتذته وأصدقائه . ويمتاز بجديد

المعاني والمباني الكثيرة وبالنكهة العصرية الجميلة وإن لم يقدر ذلك المحافظون وأشباه المحافظين . ويمتاز بالثقة النفسية الهادية التي يوحىها الامام المرشد إلى مريديه ، وبالأمل البسّام الذي هو رسول الاصلاح والعمل وتقديس الواجب . وهذا — وأقل من هذا — داعٍ كبير لحفاوتي وتقديري لشعر أبي شادي — ذلك التقدير الذي تشاركني فيه جمهرة عظيمة من الأدباء الصادقين المستقلين الذين يفهمون روح العصر ومعنى الجمال الفني ويردّدون معي قوله الذي يؤمن به ويطبقه :

وما كان شعري في نظيم أصوعه
ولكنّ شعري أن أكون أنا الشعرا !

— ٥ —

وفي الوقت الذي انتشرت الأنانية وقوي سلطانها ودسائسها واختال الجاحدون للفضل لا ترى الدكتور أبا شادي إلا في طبعة المقدرين المديعين لمفاخر غيره في غير مجاملة ولا محاباة ، وهو الذي تشبّث بانصاف الشاعر العبقرى الاستاذ عبد الرحمن شكري حينما خذله أصدقائه المنافسون . وهذا شوقي بك ذاته — رغم تقلباته المشهورة ، ورغم اساءاته الكثيرة للادب والادباء ، ورغم محاربته لكل نابغة بواسطة أذنبه المأجورين — لم تؤثر طباعه وتصرفاته هذه في اعتراف الدكتور أبي شادي بنبوغه العظيم ، وكثيراً ما دافع عن مواهبه وأطراهم أمام من يغالون في نقده وإصغاره ، وأراد مراراً حصر عيوبه في دائرة معينة محالاً تقويمها . وبمثل هذا الشعور النبيل يذكر شاعرنا أدباء الجيل السّابق وكبار شعرائه ، لانه يعلمهم اساتذة له ولغيره ،

ومن حقهم واجب الاحترام والتقدير لفضلهم ، وإن أصبحت
لشاعريته الناصجة « شخصية » وأساليب وفلسفة وآراء ومناهج
خاصة به . وهو وإن تشبث باعتبار شوقي بك الزعيم لكبار الشعراء
المحافظين في مصر على الاخص أو « أمير » الشعراء كما يقال ،
ونوه كثيراً بأسلوبه الموسيقي ، فهو كثير الحرص على استثناء تحليل
بك مطران من جملةهم ، ويعتبر عد الناس اياه شاعراً محافظاً من
قبيل الوهم الشائع ، فهو في عرفة سيد المجددين ومعلمهم الأول
المتواضع الكريم ، ولشاعرية مطران عنده منزلة من السمو لاتعلو
عليها منزلة شاعر عربي آخر بين المعاصرين . وهو الذي خصه بقوله
(ص ٩١) :

لودنت في أدبي لألف مؤدبٍ

فأعز غالي الشعر من (مطران)

وهذه صفة كريمة أخرى ينهد أمامها النقد المغرض ، إذ انه
من المستحيل اتهامه عدلاً ببناء شهرته على أنقاض غيره أو على حساب
سواه ، بينما سيرته الأدبية كلها تسامح وتعاون ، وخدمات كثيرة
للأدباء ، وتضحية مادية من جانبه ، وكرم أخلاق مجسم ، ونبوغ
حق . ولذلك لم يسعني ولم يسع عارفي فضل الدكتور إلا الضحك
— برغم الأسف — مما يوجه اليه من تحامل واختلاق وتهديد ، ومن
محاولة الاصغار من فضله في صحيفة (الكشكول) وفي غيرها بمثل هذا
الاتهام المنقوض من أساسه ، وبمثل هذه الطريقة السمجة ، ولكن هو
الغرض يعمي ويصم

ولقد مرّ الزمن الذي كان فيه الفرد الممتاز هو كل شيء ، وأصبحنا في عهد الديمقراطية الذي فيه لكلّ مذهب « مدرسة » وأنصار ، فليس بمستغرب اذا حفّ بالدكتور أبي شادي كثيرون من أنصاره ومحبيه من الأدباء ، فدافعوا عنه ونشروا فضله في غير بحاملة كاذبة ، لاسيما وقد حاول المحافظون زمناً حصر نفوذه في دائرة ضيقة بل حاولوا دفنه ، فلا عيب إذن في ذلك التعاون ، بل لمثل هذا الوفاء التقدير والاحترام ، وإنما العيب في الاسلوب الأناني المخجل ، كأن يخصص مثل شوقي بك جانباً من دخله الطائل المتنوع لمحاربة مناظريه من كبار الشعراء بالأقلام المجاورة حينما هم يقابلونه بالتسامح الكثير ، بل وبالاكرام في المناسبات العامة . وكان الاختلق بمثله أن يتعصف عن ذلك ، وأن يكون مثال التعاون الادبي لا رجل التنازل والحسد وحب الظهور المتواصل على حساب غيره ، وعابدا التطيل والتزوير والطنطنة التي لانهاية لها ولاغاية مفيدة للادب ، فان مثل هذا التصرف الغريب مما يزري به بل مما يزري بكثيرين من الشعراء المحافظين الذين قبلوا زعامته (١) ، وهذا طبعاً لا يرضينا حباً في

(١) بهذه المناسبة يعجبني تحليل الكاتب المصلح الاجتماعي الشهير هـ . ج . ولز لصفات الزعامة الحقّة في قصته (البحث العظيم) حيث برهن ان قوة الزعامة مستمدة من هذه الصفات : (١) تجنب الخوف ، (٢) تجنب الحسد ، (٣) تجنب التعصب ، (٤) تجنب الانغماس . وهذه صفات لا أرى لها أثراً للأسف في « أمير شعرائنا » المنشيت « بأمارته » ولا فيمن ينافسونه في هذه الامارة ويغالون في اصغاره حسداً ، ولا بد من حث صفوة شبابنا الناهض من الادباء والعلماء على التطبع بها ، والا فلا رجاء لنا في زعامة المستقبل ، وان تقوم لنا قائمة صادقة . بيد أننا لو أغضينا النظر عن كل ذلك لما ترددنا في النصيح الى شوقي بك بأنه يخدم نفسه والادب العربي الخدمة الحقّة لو أنه تفرغ

=

الادب وكرامة لة . وما كنا لنشير إلى هذه الحوادث في جهادنا
الادبي لولا ما وجه الينا من التحدي والتحامل المتكرر وما لا يزال
يوجه إلينا حتى يومنا هذا ، ولولا أنها قد غدت سرّاً غير مكترم ،
وتحدثت عنها معنفة في حق أكثر من واحدة من الصحف الادبية
المعروفة . وما أشرنا إليها الاّ متضرعين إلى شوقي بك أن يحاول
جهده التخلي عن هذه النقائص والسفاسف والصبيانيات ليكون
أهلاً للقيادة الادبية ، وأن يثق بأنّ أشد ناقديه المصلحين أكثر غيرةً
على مصلحته الادبية من أكثر الناس غلوّاً في مدحه ومن يشتري منهم
بماله وبغير ماله قصائد اطرائه وحفلات تكريمه العجيبة ، لأنه بطبيعة
الحال شاعرٌ مصريٌ عظيم وإن عده بعض حساده شعوراً ، وما
يصيب سمعته من سوء يمس سمعة الادب المصري عامة للدرجة ما
كما نحشى أن يغدو قدوة سيئة لغيره من الشعراء ، بل قد أصبح
فعلاً تلك القدوة السيئة . والله يشهد أننا ما أصبنا ولا أصاب

مثلاً إلى ترجمة (الاوديسة) شعراً كما ترجم المرحوم العلامة البستاني (الالباذة) ، فإن
هذا العمل أجدى وأصلح من الاعلانات الموعز بها ومن حفلات التكريم المصطنعة ،
وان سندها الباشوات والاعيان الذين قاسموه نعمة الخديوي السابق ، وان تحايلا على
مجاملة الأدباء لتمثيل تلك المهازيل التي تخفض في الواقع قدرنا الأدبي بدل رفعه .
ومثل ذلك الأثر اكرم مراراً من التحايل على وزارة المعارف لتقرير شعره في مدارسها
مقابل جزاء مالي بينما المستر برنارد شو الذي ليست له ثروة شوقي بل ولا جزء محسوس
منها يرفض جائزة (نوبل) لنفعه الشخصي ويطلب توجيهها إلى نفع أدبي عام . وهكذا
أخلاق كبار الأدباء في الغرب ، وهذا هو مقياس الفرق بين مصر وأوروبا . . .

شاعرنا (١) من ورائه أدنى مغنم لامادياً ولا أدبياً حتى نهيه الملاح

(١) كثيرون يعرفون أن شاعرنا نصف عصامي في نشأته ، فانه لم يعتمد على ثروة والده في تعليمه الا الى حد محدود . فقضى اعتداده بنفسه وعزتها أن يعول على نفسه ، وأن لا يتقدم في مضمار العمل الا بعرق جبينه وجهده الشريف ، حتى أكد لي أحد أدباء مصر المعروفين ان ما أنفقه والده عليه طول حياته لم يتجاوز ايراد مكتبته العظيم عن نصف سنة ، مع انه كان - رحمة الله عليه - سيد كرماء مصر في وقته . . . فاذا كان هذا موقف الدكتور أبي شادي من نفس المرحوم والده المحب له البار به ، وإذا كان المشهور عنه أنه لا يختلط بالناس مهما عظمت طبقاتهم ويؤثر العزلة ، وانه كبير الشم طاهر الامة قوي المبدأ لم يطأطيء رأسه لاحد ، واذا كان مثله لم يتملق حتى دولة سعد زغلول باشا - وان كانت له ولوالده المرحوم منزلة خاصة في « بيت الأمة » - فمن باب أولى هو أرفع من أن يتملق أحمد شوقي بك يكلمه اطراء بوجهها اليه . فما عززه يوماً الا باعتباره استاذاً من أساتذته ، والمتصدر لان يكون شاعر مصر الوطني فكان عليه واجب اكباره ونصرته ، فلما رأى تذبذبه الخبيث نحو النهضة الدستورية والحركة الاستقلالية وجهه اليه في رفق قصيدته « الكوكب الناث » المنشورة في ديوان (أنين ورنين) فسخط شوقي بك سخطاً عظيماً ، ونسي مودة الدكتور أبي شادي له ، وعنايته بالدفاع عنه أثناء نفيه ، في الصحف الانجليزية وفي غيرها ، ومبالغته في رفع منزلته ، معتبراً نفيه سباً لادباء مصر جميعاً حتى قال من قصيدة :

ولو يدي وهبتك نصف عمري فمثلك عيشه نفع محقق
ومثلك أمة في ذات فرد وعنوان لنهضتنا ومرمق
لئن عاداك من عادي وغالي فقد عادى العظام فيك أحقق
ولكن شوقي بك أبى الا أن يكون هو الأحقق الذي يضيغ بفروره صداقة الرجال ، فسلط على شاعرنا أذنايه الشتامين ، وغذل ثقة الدكتور أبي شادي به ، كما غذل فيما مضى جميع أدباء مصر الواحد بعد الآخر بدون استثناء ، حتى أولئك الذين يطاوعون - عن مجاملة أو توريط - شهوة الظهور المتشبع بها . . . وبلغت درجة سخط شوقي بك وحقده انه تجنب واجب الزاء العادي المألوف (ولو ببطاقة صغيرة) لاسرة المرحوم أبي شادي بك . وكما كان يتزلف الى نفوذه الأدبي ثم الى نفوذه « الوفدي » في حياته حتى أواخر أيامه ، وبذلك حكم على نفسه بنفسه حكماً صارماً ، كما حكم على نفسه من من قبل أثر وفاة الأستاذ الشيخ المهدي والأستاذ المكباتي بك لا مثله أخرى من هذه الحقارة النفسية فضلاً عن حكم التاريخ عليه لتصرفه مع المرحوم الكواكبي . . . ومن كان هذا طبعه فالأولى به وبأصحابه أن يتواروا بدل اتهام أسيادهم في الاخلاق والفضائل والدمم بأنهم انما يمدحونه أو يذمونه طمعاً في جاهه أو يأساً منه ! ! وهل يطمع في جاه شوقي - على ما هو عليه من الشح - الا أرباب الصحف الوضيعة التي جعلت نصف بضاعتها التمدح به بمناسبة وبغير مناسبة والاساءة الى بقية أدباء مصر ! !

لحسناته الماثورة في الماضي أو الحاضر مغرضين ، وحتى يدفعنا إلى
نقدته أيّ دافع سوى غيرتنا على حسن سمعة الأدب المصري الذي
ينادي شوقي بك ليل نهار بأنه امامه الوحيد بل امام الأدب العربي
عامه ، ويبدل الغالي والنفيس في سبيل الاعلان الدائم عن ذلك في
الأقطار العربية وفي اجتذاب المشايخين حتى دفعته الغيرة أخيراً إلى
الايغاز بأقامة حفلة تكريمية له على مثال حفلة يوبيل « المتتطف » ولم
يكفه انه قضى طول عمره في شراء حفلات التكريم !!

— ٧ —

ومن عوامل اغتباطي بنشر هذا الديوان وغيره من دواوين
أبي شادي القضاء على عبادة الأصنام وعلى الزعامات المصطنعة في
عصر الفكر هذا . لأنه من السخف أن يشتهر شاعر أو أكثر في
في غفلة الزمان بأبيات معدودة طلية منهوبة المعاني ثم يتف هو وأمثاله
سداً في طريق كلّ تالٍ ولاحقٍ ، وان كان الأخير صاحب كفايةٍ
وفضلٍ ونبلٍ . وهذا هو ديوان (الشفق الباكي) بين يدي القارئ
مزدحمٌ بمبتكر التعابير الجريئة ، وبصنوف المعاني المبتدعة الجميلة
التي تملئها العاطفة والفكر والفلسفة ، وبألطف الأخيصة والتصويرات ،
وبأشرف الميول الانسانية أو القومية ، وبالنزعات السامية إلى « المثل
الاعلى » ، مما تتضاءل بجانبه آثار شوقي بك أو غيره في مقابل سنّ
شاعرنا بل فيما بعد ذلك بسنين . وحسبي هذا منبهاً للأذهان للانصراف
عن عبادة الأشخاص والمراكز والظهور والثروة ، وإلى أنه لا بدّ

من قياس الشعر بمقياس في خالص لاشأن له بالزعامة المتكلفة أو
بالصيت المستمد من عطف حاكم أو من قوة مال أو من نفوذ
اجتماعي أو صحفي أو نحو ذلك ، ولتكن منزلة الأديب وكرامته
مستمدتين من قوته النفسية وحدها (١)

أتاحت الظروف لشوقي باك مثل المرحوم الشيخ عبد الكريم
سلمان ليطنب في غزاه :

خلدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرن الثناء
ما تراها تناسست اسمي لما كثرت في غرامها الاسماء
إن رأني تميل عني كأن لم تك بيني وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

(١) بينما كان شوقي وأمثال شوقي يتزلفون الى الوزراء وكبار الاعيان كان أمثال
المرحومين الشيخ علي الليثي وعبد الله نديم وعبد الله فكري القدوة الحسنة في المحافظة على
الكرامة ورفع منزلة الأدباء عهدهم . يروى عن الشيخ علي الليثي كان واقفاً بباب الخديوي
اسماعيل وخرج نوبار باشا ليوصل بعض السفراء ، فرأى الشيخ فيحاء باحناء رأسه ،
فأشار اليه الشيخ بأصبعه علامة على عدم القبول ، فضحك السفراء وعاد نوبار مغضباً إلى
اسماعيل وقال : « يامولاي لقد اجترأ الشيخ علي الليثي علينا ، فقد حييته فأشار الي
اشارة أتعجلتني بين السفراء . . . » فأمر به ، فلما مثل بين يديه قال : « كيف لم
ترد تحية الباشا » . . . قال : « وحياة رأس أفندينا ما سلم علي ، ولكنني فهمت من هزة
رأسه انه يقول لي : تناطحتني . . . فأشرت بأصبعي : كلا . . . لأنني لست من طبقة
ناظر النظار » . . . ! فضحك الخديوي وأمر له بجائزة ! قارن بين هذه النفس الكبيرة
وبين نفس شوقي الصغيرة التي شرح صفاتها المدهشة من تاريخية وعصرية الأستاذ العقاد
في كتابه (الديوان) وان تغالى في مواقف ، كما تحدث عنها أحد كبار الأدباء المؤرخين
في مجلة (الثواب) والأستاذ السندوبي في جريدته (الثمرات) بعد أن ساقه حسن الظن
بشوقي ثم معاشرته إياه الى استكشاف عيوب وزلات له تكاد لا تصدق لولا تواتر
الدلة على صحتها من كل جانب ، فأيقن حينئذ خطاه وانخداعه بمظاهر رجل كل همه
بنيان مجده الشخصي كما انخدع غيره من قبل .

إلى آخر هذه الأبيات المفككة المسروقة المعاني ، وقال للأدباء
 الشيخ المرحوم (عفا الله عنه) أن بيت « نظرة فابتسامة ... » بيت
 رائع لأنه جمع درجات الحب بين شطريه ، كأنما هذه معجزة من
 المعجزات ، ولا أدري كم يسخر منها أهل الأدب الأوروبي لو أننا
 ترجمنا لهم هذا الكلام التقريري الفارغ المسمّى شعراً ؟ ! وإذا كان
 مثل هذا العبث معجزة أدبية ، فماذا تعد أبيات شاعرنا في قصيدته
 « أمتع الأنس » (ص ١٢٥) التي سبقت اشارتي إليها حيث يقول في
 لذة الحب الممنوي :

تائلني عن أمتع الأنس لذة
 وما الأنس حقاً غير إيناس غايه !
 تنازلت طوعاً عن وعود بجنة
 لساعة صفو منك بالحب غايه !
 جمال ونحان وتيه ورقة
 وعطف وإحياء لأحلى أمانيه
 تفننت فيها عن غرام وسكرة
 وأنعشت روحى من قفاؤك دانيه
 وما الحور والولدان في معرض الهوى
 وأنت منال اللذة المتناهيه !

أو قصيدته الشائقة « اذكريني » ، أو قصيدته « الزهر القليل » ،
 أو قصيدته « النعمتان » ، ومثيلاتها في هذا الديوان وفي غيره من
 دواوينه السابقة ؟ ! وإذا كان من الاعجاز قول شوقي بك (وهو
 الركن الآخر من الشعر الخبري الذي بنى عليه شهرته) :

وانما الأمم الأخلاق ما بتيت
فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وقوله أيضاً :

وليس بعامر بنيان قوم
اذا أحـلـاقهم كانت خرابا
ونحو ذلك من التقرير الخالي من الروح الشعري خلواً تاماً كأنما
هو حديث عابر سبيل لم يعن بالتفكير أو الخيال الشعري قدر ما عني
بالتسلية الكلامية قطعاً للوقت كيفما كان — اذا كان ذلك كذلك ،
فماذا يعد قول الدكتور أبي شادي عن فلسفة الخلق في قصيدته « عماد
الأمم » (ص ١٩١) :

ولم أر كالأخلاق مظهر أمة
وجـوهرها المحيي عزيز رجائها
ولا مبدع (١) الاخلاق كالحررة (٢) التي
تغـلـدي وتنمي من طهور غذائها (٣)
ومما العقل والعرفان في الأسر قوة
اذا كانت الأخلاق صرعى بدائها
وما أحسب فخر الأدب بأمثال هذا الشعر التقريري الصوف ،

(١) مبدع : منجب ومشيه .

(٢) أي كالامة الحررة .

(٣) أي الحرية . ولعل الشاعر يشير الى مثل الأمة الانجليزية الحررة التي نمت دولتها
دولتها العظمى بفضل الحرية الخلقية الناضجة قبل غيرها من القوى الأدبية ، وقد عاش
بين ظهرانها زمناً طويلاً .

وانما أراه ويراه صاحب الديوان أيضاً بالشعر الوصفي الفني وبالشعر التمثيلي الراقي المرجو . ومن العبث ملء اذهان طلبة المدارس بثلث المنظومات الخبرية الشوقية التي لاغذاء فيها للأرواح والألباب ولا تنبيه للأذهان . وانه لمن دواعي الأسف أن يكون خليل بك مطران وحده تقريباً المتفرد بهذا النوع من الشعر الفني بين زملائه الشعراء « الشيوخ » دون أن يناله زهو الغرور ، وقد تساوي مراراً إحدى قصائده الفنية هذه جميع ما نظمته شوقي بك وسالكو نهجه من امداح مكذوبة « وحكم » ملفقة وأوصاف مكررة وأخيلة مبرقشة لا معنى لها ، وإن استغفرنا الأدب لهذه المقارنة وأرجو ان لا يعتبر صديقي الدكتور أو غيره من مريدي شوقي بك هذه الملاحظة غلوا مني ، فقد تبدل الزمن وتغيرت كثيراً مقاييس النقد الأدبي .

ولاني في الواقع لأشفق على شوقي بك وأتألم لاضطراري الى تكرار الاشارة اليه بحكم المنزلة التي وضع نفسه فيها ، والتي لا مفر من التعرض لها في مثل هذا الاستعراض ، حتى وإن شغل تلك المنزلة سواه ، إذ ليس شخصه هو المقصود بالذات كما لا يخفى ، بل لاني أتمنى لشخصه كل سمو يقابل إخلاصه وجهده الأدبي الصادق اذا ما بذله . وما اشفاقي عليه الا لأنه يتأفف من هذه الملاحظات النقدية المعقولة حينما لا يبالي بتسليط نيران حسده أو غضبه بواسطة أعوانه على من لا ينالون عطفه أو يأبون أن يسيروا في ركابه سير الأعمى . فاذا ما دافعوا عدلا عن أنفسهم ولول واتهمهم بالغرور والدجل والسخف وشنع عليهم دفاعهم ! وحسبك أن تذكر إنكاره لفضل خليل بك مطران وتسميته « اخوانيات »

مطران وشعره الودي والعائلي الرشيق شعراً «تجارياً» (١) رغم تجلي الفن في كل منظوم مطران على تنوعه ، وكأنما نسي شوقي بك تعفف مطران ووفاءه وعزة نفسه ، حينما هو كان ولا يزال يدير لكل ربح غالبية شراعه ويتصيد المجاملات والمدائح وفرص الظهور كما فعل أخيراً

(١) على ذكر ما سماه شوقي بك « بالشعر التجاري » (ناسيا قول الشاعر الحكيم : يأبى الرجل المعلم غيره . . .) انقل هذه الكلمة الفكاهية للا ديب « ابن البلد » عن جريدة (السياسة الأسبوعية) المؤرخة ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٦ بعنوان « شاعر أم مشهور أم متشاعر » . قال الكاتب : « لم يترك علماء اللغة عندنا شيئاً عرفوه الا ضربوا فيه بسهم فبورا وفصلوا ونوعوا . ثم بالغوا فخصصوا وجعلوا لكل لفظ مقاما وفرقا . فهم اذا قالوا في الشعر مثلاً جعلوا من لفظه مراتب وطبقات لكل منها مقامه وميزته ، لذلك يقولون في الشاعر المخلوق خذيد ، وفيمن ذوته شاعر ، ثم شاعر ، ثم شعور ، ثم متشاعر . والآن بين يدي ديوان - أعني ديوان شعر - اسمه (ديوان أبي النجاة) ، فبماذا يلقب صاحبه واذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه ، كما يقولون ، فسأقبل اليك أحياناً ثلاثة وضعها صاحب الديوان نفسه - ومن شعره طبعاً - تحت صورته الفوتوغرافية « نفسها » ، وأنا ضمين بعد ذلك انك لا تحتاج الى مجهود لكي تختار له لقباً من الألقاب الثلاثة « رأس هذه الكلمة » . قال حفظه الله :

| | |
|----------------------|--------------------------|
| « طيب » | بلا دي بلا دي أحب بلا دي |
| « جدعنة » | وادفع عنها العدو الألد |
| « فيك الخير » | أنا ابن مصر ، وبر بأمي |
| « أبداً ما فيش حد » | فمن ذا يعنف هذا الولد . |
| « لا تروح ولا تجيء » | فكيف أروح ، وكيف أجيء |
| « أقعد جنيها » | وأمي بأقسي القيود تشد |

هذا ولا أريد أن أبخس حضرة حقه ، فان « لا مير الشعراء أحمد شوقي بك » في أول الديوان اثني عشر بيتاً من الشعر تقريرا للديوان . وأقل ما فيها هذا البيت يخاطب « صاحبنا » .

وديواننا جلوت فكان راحتي
فضضت دنائيه قبل السقا
واذا كانت الأبيات لشوقي بك حقيقة ، حق علينا أن نعرف الشعر بأنه معنى في بطن الشاعر ولا يعرفه الا امرأه الا شعرون . . .

على حساب تاجور . . . ! فأيهما صاحب الشعر « التجاري » ! ؟
وأيهما المتقلب الذي يأسره حطام الدنيا (١) ! ؟

(٨)

ويقيني أنه لولا شغف المصريين المشهور ومن نحنا نحوهم بالحلاوة
اللفظية وبالجرأة في المفاجآت لما استطاع شوقي بك أن يغر هذا الغرور
بنفسه بينهم ، وأن يدعي أنه شاعر المشرقين معتمداً على ثروته غير
المكتسبة ، وعلى خيالاته وإعلانه المتواصل عن نفسه . . . وكان الأولى
به أن يكتفي بما حكمت له به آثاره من منزلة بالنسبة لسابقيه ولكثير من
معاصريه في طريقته التقريرية البسيطة التي لا أعدها من كيان الشعر
الراقي الفذ ولا من روحه وانك لو فتشت مجموع شعره لما وجدت
قصيدة فنية واحدة بالمعنى الكامل مثل قصيدة « مملكة إبليس » أو قصيدة
« ممنون الفيلسوف » أو قصيدة « الربيع » أو قصيدة « الرؤيا » أو قصيدة
« الموسيقى » ونحوها لشاعرنا ، حتى ولا مقطوعة صغيرة مثل أبيات
أبي شادي في « إلهة الجمال » و « مامون » و « أوراق الخريف »
و « الفنان » و « الراقصة » و « عرس الأصيل » ونحو ذلك ، وإنما
تجد أبهى ما عنده من نوع قوله :

إرفعــــي السـتر وحيــــي بالجيين
وأرينــــا فــــلق الصبح المبين !

(١) من أعجب أمثلة الألتائية والمادية سعي شوقي بك لدى وزارة المعارف لتقرر
المختار من شعره على الطلبة بثمن معين تدفعه له ، دون المبالاة بغيره من أكابر شعراء
مصر ، بينما « تاجور » شاعر الهند العظيم ينفق من ماله كثيراً على تهذيب أبناء وطنه
وليس هو بأغنى من شوقي بك ! فتأمل !

مما فيه رنة موسيقية فقط ، أي مجردة من الخيال الفني المصور
 الجسم ومن المعاني العصرية المستحدثة . وبعد هذا ينتقد شوقي بك
 وأنصاره تفنن أبي شادي — عن طبع شعري مقطوع — ويأخذون عليه
 حتى ما يبيته في شعره من ظلال المعاني الجديدة للمفردات القديمة أو
 أو ما يستحدثه من مفردات وتراكيب لها روح هذا العصر ورونقه ،
 ويصفون « بالحشو » هذا الابداع من شاعر فياض مطبوع ينافي طبعه
 الأصل كل تكلف وحشو ، كما يتجاهلون اطلاع الدكتور اللغوي
 بل تعمقه المتواصل بدرجة شاذة في أديب تربى تربية أوربية ، ثم يبنون
 على هذا التجاهل أوهاماً سخيفة من النقد ! !

وقد تفشت نتائج هذه القدوة السيئة حتى بين من ينتسبون للتجديد
 وكنا نكبر آمالنا فيهم ، فاذا بنا الآن في عهد تنافس قبيح على الزعامات
 الفارغة ، وفي زمن تنافس غير شريف مبدؤه ان الغاية تبرر الوسيلة ،
 وإن خسر الأدب ، فصار اللوم غير قاصر على شوقي بك وحده وان
 وان كان هو السبب الأصلي لهذه الفوضى .

ولا أدري ماذا يقول القارئ عند ما يقارن بين النظم الشوقي العذب
 الرنان الذي لا تجسم أوصافه شيئاً ، ولا تظهر لنا بواطنه ودقائقه ،
 وبين هذه الأبيات الوصفية الفنية البديعة لشاعر عربي قديم :

سقى العلم الفرد الذي في ظلاله
 غزالان مكحولان مؤلفان

إذا أمننا التفابججـدي تواصل
وعينناهما للريب مسترقان
أردتهما ختلا فلم استطعهما
ورميأ ففاتاني وقد رمياني
لقد تفنن المتقدمون في أساليب البلاغة والكلام الجامع وفي جعل
اللغة والمفردات طوع ارادتهم في التعبير ، فقال أحدهم راثياً السلطة
والعظمة :

قد خططنا للمعالي مضجعاً
ودفنا الدين والدنيا معاً
فكان بيته هذا بمثابة قصيدة كاملة .

وقال آخر في ذم الشيخوخة ووصف مظهرها :
وأصبحت « كئيباً » وأصبحت عاجناً
وشر حياة المرء « كنت » وعاجناً !

فاستعمل « كئيباً » بمعنى شيخ مسن (نسبة الى « كنت . . . »)
وشبه انحناء ظهره من الشيخوخة بانحناء ظهر العاجن ، وعطف لفظ
« عاجن » في آخر البيت علي « كنت » وهكذا خالف قواعد اللغة ،
ومع ذلك كانت هذه المخالفة من أسباب انشائه هذا البيت التصويري
البديع ، بينما لدينا من المعاصرين من يقيم القيامة على ما دون ذلك
بكثير من إباحات نظمية مجسنة أو تراكييب مبتدعة ، وينسبها الى ضعف

الأدب (١) ويكيل جزافا الاتهام بالركاكة والغثاثة والقبح وافساد اللغة والشعر !

وقال أبو فراس :

ان زرت (خرششة) أسيرا

فلقد أحطت بها مغيـرا !

فجاء بلفظ واحد هو كلمة « أحطت » لتصوير هيئته وجرائه التي كأنما تحاصر تلك المدينة ولو كان أسيراً فيها ! !

(١) لعل بمض سادتنا الجامدين يقتنع بان الابتداع في التركيب وفي استعمال الألفاظ قد يزيد البلاغة نصوعاً وقوة أو ان فيه تنبيهاً خاصاً للاذهان لا غنى عنه اذا جئت لهم ببعض الشواهد من كتاب الله تعالى الذي نسترشد به وحسبي أن أنظر الى « سورة الشعراء » مثلاً ، وهي ما اتفق ظهوره أمامي عند فتح القرآن الشريف ، وأن أنقل منها هذه الآيات الكريمة :

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » - (باخع) هذا بمعنى قاتل ، ولكن في تخارج حروفها قوة ليست في كلمة (قاتل) . فما رأيهم في صيغة هذه الكلمة وفي استعمالها وفيما سيأتي ذكره .

(٢) « قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين » - أرجه بمعنى أرجته أي أخره أو أسجنه ، وحاشرين بمعنى جامعين للناس .

(٣) « قالوا لا ضمير انا الى ربنا منقلبون » - منقلبون هنا بمعنى راجعين .

(٤) « وبرزت الجعيم للغاوين » - برزت أي كشفت .

(٥) « واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين » أي وذوي الجبلة الأولين ، وهي بمعنى الخلقة والطبيعة .

(٦) « فيقولوا هل نحن منظرون » أي مهملون .

فهذا الابتداع والاختيار الخاص للألفاظ واستعمالها بإيجاز واكتفاء ومجاز هو من أسرار القوة في هذه الآيات الحكيمة ومن دواعي الالتفات اليها ، ولوفقه هؤلاء السادة الجامدون شيئاً من فلسفة اللغة لخففوا من غلوائهم كثيراً ، ولما أسرفوا في رمي سهامهم الطائشة . وقد نال هذا البحث اللغوي الانشائي كثيراً من عناية شاعرنا ، ولعله يوفق في المستقبل القريب الى نشر ارائه هذه عن شواهد القرآن الشريف في كتاب مستقل .

فماذا يطمح اليه شوقي بك وأمثاله من المحافظين وأشباههم المتمسحين بالتجديد ، المتقاتلين واياه على الزعامة ، من متابعة هذا إلا سلوب ؟ لأنه في رأيي لم يأت بشيء جديد غالباً ، وما يظن جديداً إن هو إلا سرقات يعرفها المطلعون ، وإن انطلت حيلته على الغافلين من القراء ! وخير له ولنا ألف مرة أن يوجه جهوده بدل ذلك نحو الشعر التصويري والشعر القصصي الفني والشعر التمثيلي ، فضلاً عن الشعر الانساني العام ، كما يفعل شاعرنا وغيره من الشعراء المجددين في عالم الثقافة .

(٩)

نظم حافظ بك ابراهيم للأميرة نازلي بواسطة ابراهيم بك المويلحي
هذا البيت اينسج على ستار خاص بخدرها أو غرفتها الخاصة :

نسجستني يد العفاف ودونسي

عصمة في غنى عن الأستار

فسرت به سروراً عظيماً هذه الأميرة الأدبية ، وأعطت المويلحي بك مائة جنيه جائزة سنية . ولكننا لا نعلم أن حافظ بك استمر على هذا الأسلوب الوصفي المبتكر ، وما ذلك إلا لأنه تأثر برغبات المحافظين كما تأثر شوقي بك وغيرهما ، فكانت النتيجة أننا لا نزال محرومين من أمثلة كثيرة للشعر الفني الذي يقوم فيه الخيال المجسم مقام الحقيقة ويقترون بالوصف التحليلي ، لا أن يكتفي بوصف الحقيقة المجردة المحرومة من نفحة الفن . وشتان ما بين الشعر الشوقي المألوف وبين شعر مطران في قصيدته التي يمثل فيها تمثيلاً فنياً صورة « البراءة » (راجع صحيفة « النواب » المؤرخة ٣١ سبتمبر سنة ١٩٢٦ م) قال حضرة الأديب الفاضل ناشر تلك القصيدة : « . . . وهناك ظاهرات أخرى

في شعر الخليل أحببنا أن تكون على حدة وقريبة من أمثلتها . من هذه
الظواهرات قلة الاستعانة في التشبيه بآلات المعرفة ، وهذا هو المثل :
قال في تخييل ما يحق أن يقام على قبر سري كريم قتل في قصره
وتناولت ألسن السوء سيرته من بعده بالمفتريات الظالمة :

تلك البراءة فلتمثل في حلي
عنداء تزهو بالجمال الخالب

وعلى ضريحك فلتشيد صورة
من مرمر صاف لتلك الكاعب

الصباح طلعتها ، ومعدن حسنها
(معدن) ، وتاج الرأس عقيد كواكب

للروح في قسمااتها لطف يرى
والجسم طهر مفرغ في قالب

قد شارفتك فلطفقت بتبسم
عذب مرارة دمعتك المتسالك

وبأنملات كالأشعة أو مات
تنفسي ظنون السوء نفى غياهب

وبأنمخص متناقل داست على
منساب حيات سعت وعقارب

رمزا الى أهل السعيات الألى
فشلوا وبأؤوا بالرجاء الخائب

فإذا استتمت واستوى تماثلها
 ملء العيون بحسنه المتناسب
 كن ملتقى لأشعة من لحظها
 ترمي بها عن قوس أرأف حاجب
 ولينقشوا لك صورة يبدو بها
 ما كان من عجب بشأنك عجب
 نقشاً يلان له الصفا وبه ترى
 في شكل مظلوم أسيف شاحب
 تحت الجراحات التي في جسمه
 أدمي جراحات الفؤاد الذائب
 جاث على أقدامها ، بلغ الأسى
 منه مبالغه وليس بغاضب
 لا عمره المفقود علة بشه
 كلا ، ولا نغمى الشراء الداهب
 بل جور قوم كان فيهم غرة
 للمستعز وغنيمة للطلاب
 أدروه ما لم يدر قبل مماته
 من صد أحباب وبعد أقارب
 لم يكفهم أن مات حتى عكروا
 بغبارهم جو الشهاب الغارب
 وأشد في التكيل من كأس الأذى
 وضع القذى في كأسه للشارب

يرى القارئ في هذه الأبيات صورة تامة حسية ومعنوية لتمثال تخيلي للبراءة في صورة عذراء طاهرة مبتسمة للمظلوم ، مغرية إياه ، مشيرة بيدها النورية الى نفى الظنون عنه ، دائسة بالأخمص المتناقل — تناقل الاحتقار والازدراء — حيات السعاية وعقارب المتقولين . ويرى القارئ حساً ومعنى عند أقدام هذه العذراء صورة المظلوم المقتول جائية ، فيها جراحات الجسم ومن تحتها جراحات القلب ، وعلى الوجه الأسف والشحوب . فالأسف على جور قوم وغدر أهل كان فيهم عزة المستعز وغنية الطالب والشحوب لون المقتول الذي استنزف دمه وجرع كأس الأذى بل كأس الردى مشوبة بالقذى ، فداق النكالين : الشديد والأشد . ولكن تمثال البراءة يعزیه ويسرى عنه لو أن التماثيل تعزي ، والعبرة تنطق من نواحي الصورتين لو أن الناس اعتبروا بالصور . . . على مركبات نقل الموتى بعض صور ملائكية تستنزل الرحمات ، ولكن الشاعر أبي الـ تمثال البراءة وتمثال المظلوم وصورة أهل السعايات على القبر — والقبر المنزل الخالد ، والعبرة به أديم من العبرة بتمثال (ملك) يبرأ ، أي على مركبة نقل الجثمان ساعته الى مقره الأخير . وصورة البراءة من المرمر الصافي ، ولكن الشاعر أبي إلا أن يكون لها الصبح طلعة ، و (عدن) لها معدن حسن ، والكواكب لها تاج رأس ، ثم أبي إلا أنه يرى الرأي الروح لطيفاً في قسماتها ، وجمع وشمل وضم بعد ذلك فقال : « والجسم طهر مفرغ في قالب » ، وهذا هو الترتيب الطبيعي بعينه ، والواقع في تبين المراثيات يزري بتنبيه المثال في استيفاء الصورتين المادية والمعنوية . ويلحظ معنا القارئ ان المقطوعة — وهي أوصاف وتشابه — لم تتضمن غير كاف تشبيه واحدة ، فالصورة الشعرية من أولها الى آخرها مجملوقة

منظمة إذن في خاطر الشاعر من قبل أن يبرز منها شيئاً في أول بيت » ؟

— ١٠ —

إن الأدب السليم لا يعرف فوارق الجنسية ولا الدين ولا المهنة ولا السن ، ولا أشباهها ، وفي الحق لامفر لنا من أن نعتزف بأن الشعر الذي يمثله أدب شوقي المصري المولد هو دون المرتبة الفنية التي بلغها شعر مطران السوري المتمصر ، وإن بدل شوقي الكثير من جهده لتجسيم مزايا مصريته وتقييح سورية مطران وفي الحق لا بد لنا من أن نعتزف بأن معظم الأدباء المصريين حتى بعض من ينتسبون إلى التجديد مولع بالألفاظ ، وبالرنة الموسيقية الجوفاء ، وبالتقاليذ وإن كانت خطأ في خطأ . ولذلك أكرر في هذا الاستعراض أننا ما لم نفقه تعريف الشعر الفني ، وما لم نطبق ذلك التعريف بأمانة تامة ، وما لم نعط كل ذي فضل حقه من التقدير ، وما لم نتخل عن الفكرة السخيفة من أن المفروض في الأديب أن لا يكون صاحب مهنة ولو كان في زمرة أهل الكوكابين والدعارة ، فسوف نبقي طويلاً في موقف التقهقر أو التردد أو الانحطاط الذي لا يناسب حضارتنا وثقافتنا . والأولى بنا أن نعتزف بأن الملكة الأدبية وراثية (وإن لم تكن مباشرة) قبل أن تكون نتيجة الدرس والاطلاع ، وإن مهنة الطب التي لم تحل دون نبوغ أمثال الدكتور أبي شادي والدكتور فياض والدكتور شدودي والدكتور رفعت والدكتور ناجي والدكتور علي الناصر في الشعر والأدب عامة ، والدكتور شمیل في الفلسفة ، والدكتور سعيد نبیه والدكتور عبد الرحمن عمر في الخطابة ، والدكتور شرف والدكتور أحمد عيسى في الأدب اللغوي ، والدكتور حسين فوزي في التأليف القصصي ، والدكتور

صبري في الموسيقى ، ليست بحال خصماً للنبوغ الفني ، بل هي زميل وفي معين بغض النظر عن الاستعداد الفطري والمواهب الوراثية لأولئك النابغين وها هي أمثلة ذلك في أوروبا وأمريكا تعد بالعشرات .

- ١١ -

وأمل أن يكون القارئ اللبيب قد اقتنع من تصفحه للديوان بأن صاحبه ليس من المتجردين غالباً وإن كان من المجددين تجديد الشاعر الانساني الحرّ المفكر ، فالتجديد غير التجريد ، وإن هو الا سنة كل أمة حبة ، بينما التجريد في الغالب من مظاهر الأمة المقهورة ، أو التي لاتراث لها يعتد به . وما التجديد بالمعنى الصحيح من علامات الضعف كما يحسب بعض النقاد ، بل على العكس أراه من أمارات القوة والغيرة على المنزلة القومية الأدبية ، وقد يكون المجدد محافظاً في مواقف ومناسبات ، بينما المحافظ المتعصب لن يكون مجدداً بل يؤدي به تعصبه لأن يكون رجعيّاً . وعلى كل حال فكما أن المجدد في مجموع صفاته غير المحافظ ، فكذلك المجرّد غير المجدد ، ومن نزعات المجرّد الهدم ، بينما نزعة المجدد التعمير أو البناء بعد الهدم ، وقد يكون من فائدة الأدب تناظر هذه القوى الثلاث أحياناً . وإذا كان القارئ في حاجة إلى برهان إضافي فليقرأ قصة (مها) لشاعرنا وليقارنها بقصته (عبده بك) ، فيراه المحافظ في الأولى نسبة ، المجدد في الثانية ، وبينما هو يلجأ إلى السهل الممتنع في الثانية ترى أسلوبه الجزل ناصعاً في الأولى ، وترى أنه علا بلغتها علواً كبيراً يتناسب مع ما في القصة من عواطف سامية ، ويتفق مع ما فيها من

عظات مؤلمة ، وكيف أنه أخضع نفسه لوزنٍ واحدٍ وقافيةٍ واحدةٍ في كل نشيد من أناشيدها ، فكان في ذلك إفحام لسادتنا الجامدين الذين يحسبون أنهم ألموا كلّ اللام بأطراف الأدب ، ولم يتركوا شاردة ولا واردةً فيه إلاّ وأحصوها ، وما دعاهم لذلك إلاّ "بلادة" وضعف عن التقدم أصيلٌ فيهم ! ولقد أجاد الاستاذ فؤاد الخطيب حين قال :

وفي بلادة بعض الناس فلسفة

فلا تهمهم الدنيا وما فيها !

وهكذا أحسن شاعرنا صنعاً بمجاراة القوم بعض المجاراة ، فأسقط حجتهم ووضع حداً لغطرستهم، وطلع عليهم بدليل جديدٍ من ديباجته النقيّة ومن قوة أسلوبه وتضلعه اللغوي وجدة تشابهه الشائقة وتفكيره الانساني العميق . وهذا ما يحسن به كلّ ذي فطنة وشعور عند تصفح هذا الديوان ، بل كلّ من يشتهي تذوق الأدب الناضج بخواطره وأوصافه وعواطفه وتأملاته وفلسفته التي لن يملها الأديب المطبوع .

ولعل من خير مواقف الشاعر دفاعاً عن أسلوبه ومجهوده وخطته قصائده البديعة « واجب الفن » و « نسب الشعر » و « رسم الطبيعة » و « نقد الشعر » و « جهد الاثقان » و « صداقة الأدب » و « الشعر والطب » و « شعر الثقافة » و « إلهام الشاعر » و « تأملات » و « الدنيا » و « جزائي » و « وفاء الدين » ونحوها ، فليراجعها القارئ ليرى كيف أنّ اعتداد الشاعر بنفسه ودفاعه عن آثاره متفقٌ مع طموحه إلى « المثل الأعلى » ومتفقٌ مع عدم قناعته بخدماته السابقة رغم

قدرها المآثور . وهذا مبدأ من أشرف مبادئ الرفعة والتقدم ، خليق بأن يستوعبه أدباؤنا على تباين طبقاتهم ، وضمين بأن يقضي على عادة الموازنة المكذوبة والتحاسد والتدلبب والتنافر والكبرياء المصطنعة التي لم يربح الأدب من ورائها شيئاً مطلقاً . ومن يتعمى بعد ذلك عن هذه الحقائق الشريفة القمينة بالحمد فانما يحكم على نفسه بالمكابرة وانكار الفضل لغرض في النفس مما لا يليق بالأديب الناقد النزيه .

— ١٢ —

قلت إن شاعرنا رغم اعتداده بنفسه ورغم ثقته بمبادئه ورغم مجهوداته الكثيرة ليس بالقانع المتواني ، فهو يدعو إلى الشعر الفني الصادق وإلى التخلص من الأساليب التقريرية التقليدية التي لا تناسب الروح الفنية العصرية . وله أن يخر من الموازنات السخيفة بين كبار المعاصرين وفحول المتقدمين من الشعراء ، لأن الموازنة يجب أن تكون بين شعرائنا ومعاصريهم من الأوروبيين ، فلكل زمن رجاله ، ومن العبث المقابلة بين شوقي والمتنبي ، أو بين مطران وابن الرومي أو بين حافظ والبحري مثلاً ، وانما الموازنة النافعة الصادقة تكون بينهم وبين نظرائهم الغربيين ، حينئذ يظهر لكل ذي بصيرة مبلغ شغفنا بالقشور قبل اللباب ، وكيف أن الشعر الأوروبي العالي ليس عقوداً من بديع المعاني والألفاظ فقط ، بل أيضاً صوراً فنية مبتدعة تجسماً للحقيقة وإظهاراً لروحها وتقريباً لها نحو أفهامنا وأذواقنا وأخذاً بيد الإنسانية . وقدرة الابتداع الفنية هذه تكاد تكون معدومة في الشعر العصري بين أبناء العربية . فهل يجوز أن نلام بعد ذلك اذا آخذنا مثل شوقي بك — وهو زعيم طائفة كبيرة من الشعراء المحافظين

حتى جرت العادة وقضت الحفلات المصطنعة بتلقيه « بأمر الشعراء »
 — على تشبته (بالنسبة لروح عصرنا) بعتيق التراكيب والمعاني والأخيلة
 في معظم شعره ، وعلى ابتعاده عن الطريقة الأوروبية الفنية التي هي
 أحسن قالب لشعر القرن العشرين ، وربما لما بعده أيضاً ؟ من الوجهة
 اللوقية الروحية .

— ١٣ —

من العبث أن يتوهم اخواننا المحافظون أن الكلام الجامع من
 خصائصهم أو أن فيه الغنية للأدب ، وقد تحدث صديقي العلامة
 الأستاذ عاشور عن ذلك في ذيل قصة (عبده بك) وأتى بشواهد
 كثيرة من هذا الديوان اقتطفها في ساعة اطلاع ، ومع ذلك ففيه أمثلة
 أخرى كثيرة من هذا القبيل أذكر بعضها هنا للتأمل وللفادة الدراسية
 التي يحرص عليها طلاب الأدب .

قال الشاعر :

مثل الغبي إذا غدوت دليله

مثل الضريير اذا استحبال بصيرا

فكلاهما يجد الظلام نصيره

ويعاف من سبل الضياء نصيرا

ولظمت شعري من شعور عبادتي

(للحسن) ، فهو من (الحياة) أجل !

الخير والشر توأمان

من خالد الكون والزمان

تفرّقا ظاهرأ ولكن
تلاقيا عند كل أن
كلاهما هادم لخلق
وهادم الخلق بعد بان
ينقحان ويصلحان
ويفحصان ويهديان !
أجيزوا مرّة لومي
فيوم فخاركم يومي
وأكرم أمة عرفت
جلالة مجدها القومي
باللهو تحفظه
ولا بالتّرك والنوم
ولكن من تشبها
تشبث حافظ الصوم !
هل قيمة الناس في مرأ
وفي مقال وفي رنين .
وقد تخلّوا بلا حياء
عن كل صدق وعن حنين ؟ !
وقد تمادوا بلا انتهاء
تمادي المجرم اللعين ؟ !
جمال الحياة حياة (الجمال)
وفي الكون ما يشبع المنطقا

فودع هموم الغرام الضريير
 وناج (السّنا) الباسم الموقنا
 حياتك أولى بحسن الخلود
 أضواء الوجود ولن يخلقنا
 أقول الحق مغتبطاً
 ولو أدى إلى الغرم
 وقول الحق قد يصمي
 ونشر الحق قد يدمي !
 شيم الخلال وديعة وكريمة
 مثل الجبال اذا انحدرن سهولا !
 مثل (الطبيعة) في تبسّط لطفها
 نشرت على بسط المروج غسولا (١)
 وما دام جرم (الأرض) يحفظ « نوعنا »
 فلسنا وإن متنا بمن صحب الموت !
 تصان بها أشلاؤنا ونفوسنا
 موزعةً فيها ، منوعةً شتى
 وما الموت إلا في الفناء لأرضنا
 فان دامت الدّنيا فما غنى الموتى !
 ليرض الناس ما شاءوا
 من الأديان والعلم

(١) النول نبات مزهر كثير التبسط ، قرمزي الزهر أو بنفسجية .

ولكن في تجردهم
 من الآداب والحزم
 ندير اليتيم يتبعهم
 وأول مظهر الصيـم
 محال أن يساد مآل شعب
 به حكم العقيدة ما يسود
 وما موتى اليقين وإن تولوا
 بموتى ، فالأثر ما تقود
 وإنسي الرّجل الخاني على وطني
 فأنّه صورتي الكبرى ووجدان
 وأفتديه بروحي من محبته
 فانّ قلبي بهذا الحبّ ملآن
 لكنّ غاية أحلامي وإن بعدت
 أن يشمل الأرض باسم (الحب) سلطان
 وأن أغالب ما يوحى الضلال به
 للناس حيث جموع الناس عميان
 عقيدة لست أدري كيف يصغرهما
 من يدعي أنه سامٍ وإنسان !
 فانّ الجسم للعقل المعلى
 كدارٍ لن يصاحبها الخلود
 وأمّا المرء فهو قرين فكرٍ
 يزيد بقاءه الأمد المديد

ونعم الفكر إن ضحى يحسم
 ولم ترهب جلالته اللحد
 إن الممالك تحيا من ثقافتها
 ولا تعيش بحد الصارم القاني
 وللشعوب مقال دون ساستها
 يدعو إلى الحب لا يدعو لعدوان
 العلم يرشدها والفن يسعدها
 ومجدها رفيع عرفان يعرفان
 تبقى المآثر في جلالته
 بينا المثالب حولها صرعى
 ليس التحاسد ما يحقرها
 أقسى التحاسد زادها رفعا !
 ولكم تحكم جاهل أو عايب
 ومن المصائب أن نطيع كليلا
 و (الجهل) في دست الزعامة نكبة
 لا تنجني عدوا ولا تأويلا
 ما أجمل الشورى ، ولكن أهلها
 أهل الرجاجة لاجموع رجال
 ليسوا بعد بل بقيمتهم هدى
 وبما لهم من نبل رأي عال
 والفخر كل الفخر في يوم به
 تغلبو العقول معاقل الآمال

ليس الأديب فتى يراعه
والخالب الألباب والسّما
بل من يخلّد في براعه
مجداً ، ويورث قومه النّفع
ويكون عنوان الحياة كما
ترضى الفضيلة عنه إذ يدعى

وما الحياة سوى حب ندين له
بالسعي والجهد والاسعاد والمنن
فان مضى الحب في تحقيق مطلبه
فما غنى الورى في البعد عنه غني !

إنّ الرجاء لأمة (١) لا ينتهي
جهداً لها إلاّ ويبعث قائد !
لا خير في أدب لمن لم يتخذ
من طبعه طبعاً ومنه أصولاً
وأبلغ الحس في تقدير مفخرة
حس يردّده للدهر شبّان

ليست صروف الرّدى
تكفي لسحق العظيم
لكمّا يأسه
يودي به كالهشيم !

(١) أي وان لامة . . .

ليست الألحان من حنجرة
بل حياةٌ عمرها كالأبد !
تنصت الدنيا لها كاسيةٌ
مثل كسي من معاني الرغد !
وتفني من شفاء قبل ما
أشتفي من فضل طب في يدي !

الشعب في غفلةٍ عن فنه كفتى
كزّ اليدين غريبٌ عنه إحسان
كلاهما في ظلامٍ لا يحس به
لكنّ عقباه إشقاء وحرمان
إن الفنون غداءٌ للنفوس ، وكم
تصحّ بعد نفوس الناس أبدان
والنّابذ الفحل في شعبٍ يضيّعه
مثل اللّواء بعيدٌ عنه شجعان
هذا يضلّل مخدولا بعشوته
وذاك أهون ما يرجوه خذلان !

في خطاب سعد باشا بذكرى ١٣ نوفمبر :

(النيل) عدّاً بالمصرو (سعدة)
عدّ الكفيل لها على الأيام
علم البطولة والجهاد : حياته
أبقى وأثمن من على (الأهرام)

أيها أبا الأحرار يومك فخره
 ما كان مفتقراً إلى الأعلام
 سير البطولة شعرها آثارها
 وهوى النبوة ليس عذب كلام
 إننا بعصر نوره في حكمة
 وله من العقل السليم نجار
 وجميع ما يأبى علم سيد
 زور ، وغاية أمره أوزار
 المرأة عنوان الرجل
 كالزهرة للنبات الحالي
 تبقى امرأة حقيقته
 وضمنا الخلد لأجيال
 وتجدد بشهيد منتهب
 للكون وسحر فعال
 فإذا امتننت وإذا شقيت
 شقياً بذبول الآمال
 فان حياة الوغى في سباق
 إلى الشر موت قبيح لزام
 العلم (للإسلام) من جنباته
 ما فيه منبؤ ولا مختار
 فجميع ما توحى الحضارة باسمه
 ركن من الإسلام لا ينهار

والمسلمون هم الذين تآذروا
 في الصالحات وللمفاخر ساروا
 من يروم الحياة لن يعدم العي
 ش، ومن خاف مات موت المهانة !
 لا يرفع المعتلي
 إلا على نفسه
 فان هوى من عل
 فالموت في يأسه !
 تحيا الشعوب على الكرامة إن غدت
 ترعى كرامة مجدها وتغار
 والجاحدون لعصرهم فمآلهم
 بيد الهوان مصائب ودمار
 ومن المدامع ظاهر "ومحجب"
 ما كل وجه نائح مبدولا
 تجري الدموع الخافيات بخاطري
 وبكل إحساسي هوى مبدولا
 وتفيض من قلبي فأنظم هكذا
 هذا التنظيم عواطفاً متبدولا
 ما الخلق ؟ ما هذه الدنيا ومنشؤها ؟
 ما الفكر ؟ ما الجوهر الباقي ؟ وما العدم ؟
 مسائل هي للأحقاب باقية
 كما سيقى الردى والشك والألم

أجل "فرض لها وهم" ، وأيسرة
 وهم" ، وقد يستوي الدهماء والعلم !
 أرثي (الخلود) وما (الخلود) بدائم
 في صورة بل يتبع التعديلا
 ما بين ايمان به وبضده
 كم نتعب التفسير والتعديلا !
 أرثي وأبكى ، والانام جميعهم
 كالتبت يهضمه الزمان أكلولا
 الفيلسوف كجاهل ، وكلاهما
 يفنى ، وما عرف (المات) . ذهولا !
 هكذا زورة (الربيع) أفاني
 ن حياة ورحمة وابتسامه
 حسنه طعمه السفور ... فهل تغ
 ضي اذا الحسن صار يأبى لثامه ؟ !
 لي الصغير وانما أدبي
 منظوم ما تزهى به رأسي
 من نور انساني ومن تعبني
 بحثاً ، ومن غرسي ومن قبسي
 أرضي (الطبيعة) حاكماً عدلا
 جنب (الحجى) وعلى بني جنسي
 و (عوالم) ناجيتها طرباً
 ونظمت ما أوجته في هسس !

رعددت نفسي بعضها : فأنسا
 حيّ بها في العيش والرمس !
 فأتا بعهد غدا نفع الانام به
 أدنى من الفخر والانساب لآله
 للناس في « الرأي الأصح » خرافة
 محبوكة الأوهام للأوهام
 هو ما يردد ، حينما تردده
 خاوا من الأصدقاء والأحلام
 (عمر) يقول و (بكر) يذكر قوله
 كمنقوله و (بخيت) بوق كلام
 حتى يجيثك (خالد) يهراهم
 لتراه أنت نهاية الأحكام
 ان الشهيد مضرراً بدمائه
 فسوق الأثيم بدا عليه الغار !
 المرأة الحاكم الغلاب في عظم
 فان تهن فمصير الشعب للآخرين
 فما لغير سواها دان غابره
 وإن بنا في غد مجداً لها يمدن
 أجمل بها فتنة غناء سامية
 ترد عنه عوادي الدهر والفتن !

والشعب لن يرقى الى آماله
 إن روعته بطعنها الأقدار
 ومن المصائب قوة وجلادة
 ومن المصائب الأداة فخار
 ومع التماسك في الكوارث رحمة
 كالصلب ردت عن حماه النار!
 غم الحوادث لن تدوم وانما
 يبقى الحجي والعزم والاطر
 ليتني ما خلقت في الناس حتى
 لا أرى غايمة (العظماء) موتا!
 و (الجنان) الذي تألق وحياء
 بين عمر مقيد ليس يحييا!
 و (البنان) الذي ينضد درا
 زينة (الفكر) ليس يشغل فكرا!
 و (الحكيم) الذي يناضل جيلا
 ناصر (العقل) قد تردى قتيلا!
 قتله (الأيام) رغم انتباه
 رغم طنب ورغم مال وجاه
 وتركتنا نرى (الحياة) السخافة
 ونرى (الموت) بعدها كالمخافة!

من عاش عيشة مفتون بقوته
 ينبعث من عصف أحقاد له ضرر
 سيان والقائد الخلداع أمتيه
 كلاهما عابثاً أولى به العدم!
 ومع اليقين رباح كل كرامة
 ومع التشكك والبكاء خسارة
 وذخيرة الأمم المبادئ حينما
 أمم تساء بئسها وتضار (١)
 يا أيها الناس اتقوا ربكم
 يا أيها الناس احفلوا بالحياة
 اصغرتكم العقل بأوهامكم
 واخترتكم الوهم لدين الإله
 والدين ما كان سوى سعيكم
 للخير لا ذلاً لهـذي الجباه
 من عاش في دنياه أعمى الحجى
 لهم يغنى الدنيا ولا منتهاه !
 والعلم ليس له حدود ممالك
 لا يرتجى داراً ولا ديارا
 كالدين حرمة ولكن حظه
 أغنى وأوفر نعمة ويساراً

(١) تخفة من تضار بتشديد الراء .

خضعت له الأمم الكبار وسودت
 أمم به كانت تعد صغارا
 أعود اليك أستشفي مراراً
 وقد يغلو الطبيب اذا استطبنا
 ولكنني العاليم بسر دائمي
 خلقت لكي أحب وكي أحبا
 لكننا العزة السماء باقية
 للعبودية في ذكر ونسيان
 جلالها فوق شارات وأوسمة
 ولا تدين لسلطان بسلطان
 الكون مسرحها ، والفن ينفحها
 برتبة الخلد لا شارات بهتان
 ترعى بحرمة إجلال لنعمتها
 برايفكر وتكويناً لوجدان
 وكم منازل للجهال قد خلقت
 جهلاً لترعى كما ترعى لأوثان
 والحسن ما لم يكن بالحب مجتمعا
 فلن يكون على الوجدان سلطانا
 الشاعر الفني ينه
 ل من حنان لا يغيب
 في روحه وحي الجما
 ل ووحيه روح أذيب

والنجم لو يفقه الراؤون نشأته
 خـروا له سجداً من ثورة العجب !
 وكم أيب جهول سر قوته
 في نظرة منه لم ينصف ولم يصب
 واليأس أقبح من موت النؤوم ، فكـم
 يستعبد اليأس ما قد عز من فطن !
 ليست أنانية الحياة جميلة
 كـلا ولا عجز الضرير الواني
 وإذا تأملت الخلاف وجدته
 يحوي بذور الحق للانسان
 فقد مضى الوهم مقتولاً بلا ندم
 وقد غدا العقل منصوراً على الحسب
 إننا لفي زمن حصن اليقين به
 هو الملاذ لدى الأخطار والنوب
 ولن يدال عظيم في مآثره
 مهما قلب دهر أي منقلب
 لا روح في أدب يعيش بغابر
 ويتيه مزهواً بحس كاذب
 والعلم والأدب الصميم كلاهما
 معني من الكون العظيم الجاذب
 وكم تسمو العروش بلا ملوك
 فتفتني دون ملك لليب

وليس الخلد ما يشرى بمال
ولكن غاية العقل النجيب
تبسم للحياة وكن سبوحاً
على غدرانها مثل (السقي (١)
وكن (كاللوتس) (٢) الضاحي هنيئاً
وإن لم ينم في ماء نقى
تعود حظه وأضاء زهراً
وعاش بنعمة الحر النقي
فتعشقه العيون بلا سكون (٣)
ويقتنع بالحنين المشرقي (٤)
وما سر الحياة سوى احتمال
سواء للهنى وللشقي
لا تحسبن إذا ترددت المنى
لهواً عليك بأنك الفعـال
إن القدير هو المجيد ويكتفي
بالنقد ذاك العاجز المكـال
شتان بين أسير حلم خـاذل
ومحرر أحلامه الأعمال

-
- (١) السقي : هو نبات البردي المعروف (Papyrus). قال امرؤ القيس في معلقته .
وكشف لطيف كالجديل مخمر . وساق كانبوب السقي المـال
(٢) اللوتس : النيلوفر .
(٣) سكون : انقطاع .
(٤) إشارة الى شروق الشمس .

الشعر بالحس السري الثاني

أبدا يفتش عن خفي سعادة
ويطوف في الدنيا طواف ضياء
ويصور الأشياء من أصباغه
تصوير ما تلقاه في الأشياء
ويلقن الإحسان في آياته
وروائع العلماء والحكماء
ويث من أسمى الشعور مسدداً
يرمي جيوش الظلم والجهلاء
فلكم بيان (العرب) ان شئتم ولي
هنا البيان الحسن فهو رجائي
لغني الذي يوحيه ذوقي والذي
لبى به الأدب الحديث ندائي
فيكل لفظ مشرق لعواظي
وبكل معنى لي نجوم سماء
قلبي الخفوق مصاحباً أنفاس
شعري ، وما شعري سوى إحساسي
هو من أنفاسي وفي مجرى دمي
كالحجب ، فاتحداً مع الأنفاس
من عاش في أسر التصنع هازئاً
بالناس لم يغنم أقل جلال

تفنى الصغائر ، والعظام وحدها
تبقى برغم دسائس وضلال
ومآل هذي الأرض حسن دائب
ومآل شر الأرض شر مآل
إذا جاء (باخوس) العظيم مبشراً
بأنسي متى طأطأت في جبل رأسي
فأنسي أرد الكأس غير هنيئة
فما لذتي في الكأس إن صغرت نفسي
يكاد يعد مع الأنبياء
رجال العلوم وأهل الذكاء
ففي كل يوم لهم بدعة
تهز الثرى وتناجي السماء
ولكن أوفى الورى للورى
وأولى الورى بالعلوي والرجاء
عظام يصونون خلق الأنام
ويحيون فيهم معاني الإخاء
إن عدت الحرب جرماً والسجون ردى
فضميمة الفكر أنكى في مبدى التهم
الخلق بنيان مجد
الخلق شيء عظيم

تمضي شعوب ، ويبقى
 بالخلق شعب قويم
 الضعيف ذل ، ولكن
 الحين موت ذميم
 ليس الفخار بفرد
إن الفخار العقيم
 اذا تذكرت نبل جرح
 لفارس الكر والنزال
 قرب فقر حكاة نبالا
لمحسن باذج الفعـال
 خير مثلي أن ينسى اذا اقتربت
 ذكرراه بالحقـد حيث الحقـد ماتمها
 إن لم أعش لجمال الحب في عظمي
 فلا سموت بنفس ضاع أكرمها
 فمظاهر الدنيا اذا هي عولجت
 لم تـلف غير عوارض ومظاهر
 عريت عن الحسن الأجل وإن بدت
حسنا للغر الجهول الخائر
 ما الناس يـين ملوكهم وجموعهم
 الا مثـال تحول لعناصر

دين الفناء من الزمان مصاحب
 لجميعهم ، وجميعهم لتتساحر
 والأسلم الأبقى العقيدة ، إنها
 للنفس أي غنى ومجد وأفر
 والشعر من صور الحياة لمخاطري
 والحب في جسمي كراح الكاس
 فالكاس دون الراح غير عزيزة
 وكذلك خالي الناس بين الناس
 المدفع المرحوب يصدأ للبلى
 والعلم لا يمشي اليه العمار
 وتزول دولات الفتوح وتنقضي
 ظلماً ، ويبقى العلم وهو نهار
 وتردد اللعنات عن حرب مضت
 أمم لمغنمها الجلود أغاروا
 بينا حرب العلم تبقى للوري
 شرفاً تشع (١) حياله الأنوار
 قواده (٢) مل الزمان ، وعمرهم
 أميد يزيد وكوكب دوار
 بيننا جبابرة الحروب حياتهم
 مثل المشيم سطت عليه النار

(١) تشع : تتفرق .

(٢) أي قواد العلم .

فرد من العلماء فوق مقامهم
 جمعاً ، وتعلن حمده الأدهار
 ما العيش الا الهوى
 واللهو جنب العباده
 وأن يجدد الفتى
 فيستطيع اجتهاده
 يصف الطبيب من العلاج أجمله
 خطراً عليه لكي يغيث مريضاً
 والطب تضحية ، فان هو لم يكن
 لم يرتفع شرفاً وكان مهيناً
 مواهب الانسان من ميراثه
 مهمما تبدل حظه الأطوار
 والجاحد الفضل الأصيل مثاله
 واهي البناء منزل لا ينهار
 عصر به الجبار مال سيد
 وتسود أرقام الوغي الأرقام
 لرئيسه صوت المدافع في الوغي
 إن شاء ، أو لحفيته الأنغام
 لا الحرب قائمة بغير قوامه
 والسلام ليس له سواه قوام

والعلم والدينيا بأنفس ما وعلت
 المال سنواس لها وإمام
 أنا من يفتش عن محاسن ناقلدي
 فأذيعها كمحاسن اجناني
 حسب الجمال أراه فوق خصوصية
 وأرى الجمال موزع الاحسان
 وأرى الحقيقة لا تجد فمالنا
 نهوى التعصب في غرور جان ؟
 من عاش في كنف الجمود فعلمه
 جهل ، وليس للذهنه استثمار
 إن (السبرمان) (١) -- الذي حلمت به
 أحلامنا المستبسل المغوار
 المدارس الدينيا دراسة مبدع
 لا الأرض تكفيه ولا الأقممار
 مرت ملايين السنين
 والكيون ما زال الجنين
 فلم التشاؤم (والحياة)
 من أها الصبح المييين ؟ !

(١) هو الانسان الأسمى ، الذي حلم به الفيلسوف الألماني نيتشه وتلاميذه .

لا خبير في أدب يسو
ق الناس سوق اليائسين
سنن (الطبيعة) أن تهيت
ي للصالح وأن تعين

ان الجذور هي الحياة وان تكون
في التربة نامية بغير تسام

ومعاهد البحث الصحيح جلالها
لا الملاح ينصفه ولا الا يشار
هي مهد مرجو الحياة لقابل
فيه يعز جناحها الطيار
هي شعلة مخبوءة من بعضها
تناسخ الآمال والأعمال

أكرم بمن أبقوا كذاك سناءها
وعلى العقول بها كذاك أشاروا!
تناحر الناس حباً في الظهور وما
نالوا سوى جنة قدر شههم دمهها!
قد شوهمها فماتت من أسنتهم
وعانقوها فلم ينيس لهم فمها!
وكلهم بين مطعون ومقتل
كأنما غنمهم هذا ومغنمها!

* * *

فهذا الشعر الخلقى الوجداني ، وهذا الشعر الاجتماعي الأدبي ، وهذا الشعر الفلسفي المطبوع ، مع جودته فناً ومعنىً وخيالاً ولفظاً — وأمثله كثيرة في الديوان — ليس في نظر صاحبه نفسه المثل الأعلى الذي تتفق والروح الفنية التي يتطلع إليها ! واذن فهو يدأب في سبيل تحقيق أمنيته الشريفة ، حينما معظم المشاهير بيننا يتكالبون على الرِّسامة والشهرة الزائلة التي لا فائدة للأدب ذاته من ورأها وينظرون إليها كغاية لا كوسيلة نافعة لخدمة الأدب والمجتمع ، ولا يتعففون عن الاساءة إلى زملائهم وعن انكار فضلهم ، مدفوعين بشهوة هذه الشهرة المردولة التي لا تخدم النبوغ أقل خدمة .

ولابد من الإشارة في ختام هذا الاستعراض إلى تباين الأذواق في الحكم على الشاعرية ، ولكن اذا اتبع حكم الناقد الدليل العلمي الفني من تقدير معين لمبلغ القوة الفنية والخيال والمعاني وقوة السبك أمكن الوصول إلى نتيجة منصفة للحقيقة ، وتمازيت بذلك أحكام الناقدين بدل التضارب العجيب الذي نقرؤه في كثير من الأحوال وأقرب الشواهد على ذلك ما قيل عن الأستاذ عبد القادر المازني ، فقد اتهمه كل من الاستاذين عبد الرحمن شكري وعبد المجيد حلمي بالسرقة وشبه شعره الاستاذ حسين شفيق المصري « بالوحوّل في طريق العميان » وقال إن ديوانه « كآله ركافة » وأغلاط بلا طائل من معنى حسن أو غرض ذي شأن « بينما أطنب فيه أمثال الاساتذة عباس محمود العقاد وعبد الرحمن البرقوقي وأحمد شاعر الكرمي وغيرهم ، كما أنشدنا الاستاذ محمود رمزي نظم :

قد روى (المازني) غلة نفس
ما شفاها مرور عام فعام

(١) يقال : روى القوم أي استقى لهم .

وطوى شعره قريض (ابن هاني)
 وطوى بعده (أبا تمام) !
 واذا بالمازني يعرض أمثلةً من شعره الصنيّ الحقّ (١) ، كما
 يعرض علينا هذا الشعر الوجداني الرقيق في « الوردة الذابّة » :
 أرّج كَأَنفَاسِ الحَبِيبِ
 بة حين تأتي منك فاهها
 وغلائل بات الغمما
 م يجودها حتى رواها
 ذبالت وأخلاق حسنها
 يا ليت شعري ما دهاها ؟
 رويتها بمدا معي
 لو كان يحيها حيها (٢)
 وضممتها ضم الحبي
 ب عسى يعود لها صباها
 وزفرت عل زوافري
 تجلدي فزادت في ذواها (٣)
 فرميتها وبرغم أن
 نفي أنني من قد رماها

(١) راجع القسم الأول من كتاب « مشاهير شعراء العصر » للاستاذ أحمد عبيد .

(٢) حياها : مطرها .

(٣) الزوافر : الضلوع ، يشير الى جهد الضلوع في الوفير وتأثيره الذي يتخيله .
 وذواها : مصدر وضعي لضرورة النظم من ذوي بمنف ذيل .

واور استطعت حنيت أضـ
 الاعي على ذواي سناها
 وجعلت صدري قبرها
 وجعلت أحشائي ثراها !
 وفي رأيي أنه من الضروري - خدمة للادب وانصافاً للنبوغ -
 التباعد عن الاسراف في الاحكام تجنباً لامثال هذه المتناقضات ،
 وتشجيعاً لمن يستحق التشجيع ، وصيانة لحقوق الادباء. وأملني أن تكون
 صفحات هذا الديوان بما جمعت من ذخيرة أدبية فنية خير معوانٍ
 على نشر المبادئ الوطنية والنزعات الانسانية الشريفة ، وتهذيب
 النفوس والأذواق ، والقضاء على التقاليد الرثة ، وترقية المستوى
 الشعري في أدبنا المصري الحديث .

حسن صالح الجداوى

* * *

المصدر : كل الدراسات السابقة هي مقدمات وتعليقات على ديوان :
 الشفق الباكي - أحمد زكي أبو شادي مصر ١٩٢٦ .

مقدمات

- ١ -

المقدمة

بقلم الكاتب الأديب الأستاذ سامي الكيالي

١٨٩٨ - ١٩٧٢

- ١ -

. . كم في هذا العالم من قلوب معذبة أضناها الألم ، ونفوس باكية ارمضها الابتئاس ، تئن وتشكو في عالم الوحدة الفسيح فلا يسمع أنينها أحد ولا ينصت لشكواها انسان ؛ وتظل غارقة في بحار الأسى غير قادرة أن تسمع شكاتها وانينها سائر القلوب ، وما تزال في وحشتها المؤلمة وكربتها المظنية حتى يقبض الله لها نفساً حساسة تسكن في هيكل شاعر يشجيه ما يشجى تلك القلوب فيبكي في هيكل شاعر يشجيه ما يشجى تلك القلوب فيبكي بكاءها وينثر دموعاً مخضلة هي آلام الحب المبددة ودموع الغرام المسفوحة عند البعض وقصائد مرصوفة من الشعر المؤثر المشجي عند الآخرين .

-وكأنني بصديقي علي الناصر ، وقد برأه الله « احساساً والمآ » كأني به وقد استمع في سكون الليل وفي هدائه إلى شكاة العشاق وبكاء المغرمين ، - هذه الانات التي زادت بكاءه بكاءً - أحب أن ينفض عنهم بعض ما هم فيه وان يصعد تلك الزفرات المحرقة من

جوانب القلوب فكتب هذه القصة التي ان دعاها « قصة قلب »
فأحر بها في نظري ان تدعى « قصة قلوب » .

نعم ؛ هي قصة مشجية من تلك القصص التي تمثل لونا من
الوان الابتئاس الذي يخيم على بعض القلوب الشاعرة التي لا تجد هناءها
وبريق سعادتها المبهد الا في شرب الكأس حتى ثمالته وفي امتصاص
الشيء حتى نهايته . ولقد قدر لصديقنا الشاعر ان يحب — ومن يعلم
فقد يكون حبه افلاطونياً ؟ — وان يمر بشبه من تلك الحالات التي
مرت بعمر ابي ربيعة ، وبالفريدي موسى ، وان يخلق صلات
بريئة طاهرة مع سرب من ذوات الخدور اللواتي لم ييخلن عليه
بالنظرات التي كانت تزيد قلبه ضراماً ونفسه اشتعالاً ؛ هذه النظرات
التي ترسل اليأس والأمل خيوطاً تتصل بالقلب فتوقف خفقانه تارة
وتحييه تارة أخرى ؛ هذه النظرات هي التي انضجت شاعرية صديقنا
الشاعر وسكبت على مخيلته فيض الالهام ، وهذا الذي جعله ان لا
يترك هذه العناصر تمر بدون ان يغتنمها فاعتنمها وما زال حتى وقف
قلبه عند هذه الفتاة اللعوب التي لم ترع الدمام — وحسناً ما فعلت —
فجمع دموعه المتناثرة في هذه القصة التي لا اعلم ما سيكون
وقعها عند — ربة هذا الشعر — التي لها دون غيرها فضل صوغه
بهذه اللغة السهلة التي هي لغة القلوب الصامتة وكفى ! . .

— ٢ —

في المقدمة التي كتبها الاستاذ ساروليا استاذ التاريخ الحديث في
كلية الاداب بالجامعة المصرية لمجموعة من الشعر الأفرنسي اسمها

(Petite Anthologie des poetes Francais) نظرات صادقة في
تحديد اتجاه الشعر الحديث أحب أن انقل منها هذه الكلمة :
« نستطيع أن نؤكد كمبدء عام أن الفن الحديث وضع بين الشعر
والنثر فاصلاً أشد تحديداً لم يضع مثله الفن الكلاسيكي .

١ - فلقد افتتح الشعر الحديث . وهذا أول ما نلاحظه - ميداناً
لم يعرفه الشعر من قبل فهو كشقيق لما وراء المادة وللدن ، ينتقل إلى
أقطار الفكرة والخيال والحلم ، يهجر الشواطيء المحدودة التي يسبح
بجوارها وجودنا الضعيف ، ليكشف محيط الاسرار الذي يكتنفنا
في كل مكان ، يأمل أن يفسر غير القابل للتفسير ، وان يعرف غير
القابل للمعرفة ، يرغب ان يشعرنا رعدة الشيء المجهول وان يفهم أو
يحذر ما عساه تكون القوى الخفية الاولى التي توجه الحياة الانسانية ،
أنه يعمل قبل كل شيء ان يجعل من نفسه سيد القوى من عاطفة إلى
غريزة إلى وراثة ، وزيادة على الحياة المحسوسة يسعى ان ينقل إلى
الميدان الغامض الشاسع حيث غير المحسوس ، يتغذى من المشاهد
العظمى للطبيعة تلك التي لا يراها عبثاً بل يراها « الالماتر » صاحب
الوحي والالهام .

فالشعر عند شللي أو ماثرلنك يريد ان يفجأ الوشائج الرقيقة
والصلات المعماة التي تربط الحياة الانسانية بالحياة الكونية ، ويجهد أن
يعرف المعاني المخبأة لآلاف الاصوات التي تنبجس من الهوى .

٢ - وللدخول إلى هذا العالم السحري يستعمل الشاعر الحديث
وسائل وملكات غير العقل الجاف فان الملكة الشعرية تهرب من التحليل
وسواء اسميناها الهاماً أم شيطاناً أم وهماً أم معرفة مباشرة أم حماسة

أم قداسة ، فإن خطواتها لاتشابه في شيء ما خطوات العقل المتعقل
 الخاف . فبالخيال يعطي الشاعر جسماً لأحلامه ويجعل من الفكرة
 المجردة رمزاً محسوساً ، وبالموسيقى اللفظية والوزن ينال غرضين
 لما يحققهما علم الجمال تحقيقاً مرضياً . فمن جهة يوقظ الوزن الشعور
 ومن جهة أخرى يحدد تغير الايقاعات تغيراً على وتيرة واحدة التقدير
 وينومه كما يهزنا المحيط ثم يهدئنا بمدى وجزره ، ويترك العقل
 لخاف ليهدأ ويقاع عن أن يقدم للخيال والشعور مسائل متعبة ليغرق
 هو في مطالعة الجمال (١) الخ . في هذا الاتجاه الذي حدده الاستاذ
 ساروليا لشعر .

- عناصر نريد من جماعة « المحافظين » في الأدب أن تكون
 موضع دراستهم وهم في عزلة من عصبيتهم الحمقاء التي ترجع بهم
 قرونًا إلى الوراء بينما الفكر يسير بسرعة البرق إلى الامام ، نريد لهم
 ان يخرجوا من محيطهم الضيق وأفقهم المحدود وان يهجرُوا تلك الشواطيء
 التي القوا العيش بجوارها ، إلى محيط يكشف لنا مالا يزال مجهولاً عنا ،
 وينزع عن أعيننا الغشاء أو تلك النظارات الملونة التي ترينا كل شيء
 بغير لونه الحقيقي ، إلى محيط يصلنا بالمحيط الانساني العام الذي تتقارب
 الأفكار وتلتقي عند مصبه مختلف الميول .

- ٣ -

وفي هذه المجموعة الشعرية التي تقدم بها صديقنا الطيب علي
 الناصر الذي أراد أن يهجر تلك الطريقة القديمة في وصف الطلول
 والحربات الصم بينما لا طول ولاخربات صم بل عيش في ظلال

(١) ترجمة الصديق عبده الزيات .

المدينة الوارف ، والذي دشّن حبه الحقيقي بهذه « البواكير » التي تصور نزوات نفس كئيبة امضها الالم وقلب مشوق انحاه العذاب صورة من الشعر الحسي الذي يربيا صدق العاطفة ؛ بل الصورة الصادقة لوحده وأله ويأسه وحبه وابتهامه وغضبه والكثير من هذه الحالات النفسية التي كانت تهز منه الفؤاد وتحرك من نفسه الشعور الحساس الذي تترقق خيوطه على هذه الصفحات ..

سامي الكيالي

المصدر : مقدمة : قصة قلب

مقطوعات شعرية بقلم الدكتور علي الناصر .

مطبعة الشهباء . حلب . ١٩٢٨ .

— ٢ —

مقدمة

لديوان الدكتور علي الناصر (*)

أمين الريحاني

١٨٧٦ - ١٩٤٠

هذا ديوان طبيب شاعر ، بل طبيب عاشق لا يطيق الحجب والمستور .
يخلع علماره كما فعل الفارض صوفياً ، وكما فعل أبو النواس خمرياً ،
ويلبس اعتناده الخلاعة . الطبيعة أمه ، والعقل اخوه ، والحس دليله .
طبيب شاعر ، عاشق ، مشرح ، محلل — ولك في التحليل الوجهان —
بعشق ، اذا ما تبل القلب ، نقش عشقه ، ويهيم بعد المعشوق بالشك
والتساؤل .

علي الناصر مدني صحراوي الدم والاديم . بلغ من المدنية ،
بطريق حلب فالاستان فباريس منزلة استقرت بها النفس منه ، وما أمن
لها العقل ولا استكان .

وهو عربي بما تقدم حلب من نزوح ، وبما في العروبة من شمم
زهرتها تميم ، ومن جرية مهدها البادية واخوانها البدو . غريزة بدوية ،
في عقلية علمية ، في روح مدنية — هو ذا علي الناصر الشاعر الطبيب .

(*) ديوان « أنا » .

وان أفق شعره ليحيط بنزعات متعددة ، متباينة وبأساليب هي
عنوان الفتوة متنوعة البأنور ، منها زاهر ، ومنها ما لا يزال في البراعم
والاكمام .

ان الديوان مجموعة نموذجات لا تغرب أسبابها ، ولا تخفى حلقات
اتصالها ، اذا ما ذكرنا المدنية والبادية ، وذكرنا كذلك ان نسمة مسيحية
تغلغت في فؤاد الناصر من سلاف لأمه .

فمن البادية الى الآستانة الى باريس ، ومن دار العيادة الى الدير
الى الكنيسة تخشن الصناعة وتدق ، وتغلظ الألفاظ وتلين ، ويظل هناك
ما يحتاج الى شيء من الصقل أو الابداع .
ولكن الناصر صادق اللهجة في كل حال . وهو في صدقه قاسٍ
لا يرثي حتى لحاله .

« لا استقر على شيء تلامسه
يـادي ، وتجذبني كذابة الشفق ،
وهو فوق ذلك قويم العادة ، حاد المزاج ، سريع المفاجأة ،
مدني الاشارة آنا وآنا بدويها ، يهمس ويصبح ، ويجابه ويشيح ،
ويحنو للحقيقة ويحن اليها قبل كل شيء ، روحه تارة :
« مخفوضة الرأس ايماناً بسؤدها »

وطوراً :

« رقشاء قد زانها جلد يزر كشه
زاهي الضياء وذوب التبر والصدف »

هي ذي الحقيقة من قلمه له وعليه . وهاك الأدلة :

فأن له نهومات فظيمة (١) ونفحات شداؤها من البنفسج والياسمين
(٢) ومن العجيب ان الدثب والغزال يرعيان في قلبه ولا يتعدى الواحد
غابه أو حماه .

ومن نموذجات هذا الديوان ما هو قديم كقصيدتي »

« الربيع » و « الغيرة » . فقد تقدم الناصر فيهما ألف شاعر وشاعر ،
وما علا على المؤلف المبتدل ، وبرز صناعة وفكراً وشعوراً ، غير
افراد منهم في الشرق وفي الغرب ولا اظن الناصر يعيد أو يكسر النسيج
على هذا المنوال . أما قيمة الديوان الحقيقية فهي تنحصر ، على ما ارى ،
في ما يصح ان يدعى شعر الاقتضاب . لا أريد بذلك ما هو متعارف
كالارتجال أو كالهجوم على المديح بعد الغزل بل هو الهجوم على
الموضوع بسهم ينقل الى قلبه ، وبما لا يخلو من شبه الارتجال . هو
الشعر الجديد نظماً وتقطيعاً ولهجة . فيتناسق وروح هذا العصر السريع
التنفس والسير ، القليل الصبر على المسافات الفنية والتمهيدات الشعرية .
قل قولك بكلمة وجيزة ، بليغة وامش مسرعاً إلى غرضك . هي روح هذا
الشعر الجديد . وهو قلما يطرب وقلما في الجيد منه ، يصرد سهمه .
ومن قصائد الديوان البارزة في هذا الفن اخص بالذكر « النتيجة » و
« ميسلون » و « الموت أهون عندي » و « هثنوني » فانك بعد قراءتها ،

(١) « الاحتراص » و « اذا مت »

(٢) « بنفسجتي » و « أمي الطبيعة » و « عواصف قلب »

وان لم تطرب لها ، تعجب بتأثيرها البليغ في النفس وترى انه من الحشو
والفضول ان يزداد اليها كلمة واحدة . أما القوالب ، ومن ضمنها
الألفاظ والصيغ والتقطيع فان فيها مجالاً للتحسين وللزيادة في الابداع
وسيتوفق علي الناصر الى ذلك في مستقبل فنه ان شاء الله .

الفريكة لبنان في ١٥ ايلول سنة ١٩٣١ أمين الريحاني

* * *

- ٣ -

- أنا -

علي الناصر

موت الأيام وأنا أنظم من الاحلام والابتسامات والابخلة والزهور
والأضواء ، تيجاناً مغرية لأقدمها الى انانيتي .

هذا دأبي وهذا ما حبيب لي الحياة .

موت الأيام وأنا أجمع من الشره والطموح والبغض والانتقام
والغيرة والشهوة اشواكاً تصمي قلبي .

هذا دأبي وهذا ما حبيب لي الحياة .

مد وجزر في خضم العمر .

أما الآن فأنا كأرملة غجرية تجر بجانيها مسخين ، شعشاء تعصف
الريح العاتية بأطمارها البالية وتهزها كبقايا علم بعد معركة دامية ،
ولكن عينيها الملهبتين في وكري جبينها العالي ، معلقتان بالأفق البعيد ،
تنظر إلى الامام وإلى الامام .

ع . ن .
(علي الناصر)

حلب في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣١

المصدر : الظأ مقطوعات شعرية
حلب مطبعة المعارف . نجيب كنيدر .
حلب ١٩٣١

- ٣ -

بين يدي الديوان

مقدمة في اللغة العربية والشعر

أمين ناصر الدين

- ١٩٥٣ -

اللغة في هذا العصر

يرى فريق من المتأدين ان اللغة العربية في هذا العصر قد استعادت
المنزلة التي كانت لها في صدر الاسلام او كادت. ويحاول اثبات رأيه
ببراهين لا تلبث أن تنقض عليه وحجج " تثبت على الجدل . وحسبك
اذا اردت تزييف براهينه ودحض حججه أن تورد له ما في معظم الجرائد
والمجلات والمؤلفات العصرية من كلام سخييف فشت فيه المغالط
وتعاوره الضعف . واساليب تنتزه عنها العربية الفصحى .

والذي عليه ذوو النظر أن العربية في هذا العصر آخذة في التأخر
عاماً عاماً . ولولا افراد احاطوا باصولها وفروعها . وانقطعوا للأود عن
حياتها لحطت الى الدرك الأسفل .

الاسلوب العربي

يعلم كل ذي تمييز واطلاع أن لكل لغة اسلوباً تتميز به ومصطلحات
لا تستعمل في غيرها . فاذا لم يراع اسلوبها ومصطلحاتها في كل ما ينشأ

ويؤلف أصبحت لغة فاسدة مختلة الأداء مضطربة المباني . وهذه حال اللغة العربية في هذا العصر . فان معظم المنشئين فيها اهلوا اسلوبها ولم يحدقوا قواعدها . ولا استجلوا غوامضها . ولا وقفوا على دقائقها . ولكنهم اكتفوا بمعرفة ان الكلمة ثلاثة اقسام . وان انواع الأعراب اربعة . ثم عكفوا على اللغات الأعجمية فاستبطنوا دخائلها . واستعاروا اساليبها ومصطلحاتها لما يكتبونه في العربية فاصبحت هذه كما ترى .

الأسلوب من اللغة بمنزلة الركن من البناء ، بل هو بمنزلة الروح من الجسد ، فمهما بتأنق الكاتب فيما يكتب والشاعر فيما ينظم ، ولم يراعيا الأسلوب العربي فكانهما لم يصنعا شيئاً .

ومما يدل على كون الاسلوب في كل لغة أجدر ما فيها بالمراعاة أن فتى كان يتلقى الانكليزية عن استاذ حاذق فعرض عليه يوماً قطعة انشأها ليصلح له ما فيها من خطأ . فلما نظر الأستاذ فيها ضحك وقال للفتى : أما الانشاء فصحيح ولكن اسلوبه عربي . ولن تعد متصلاً من الانكليزية حتى لتخله اسلوبها وتعابيرها فيما تنشئ . والا فلا قيمة لما تكتبه فيها .

فهل يعني كتاب العربية قول ذلك الأستاذ فيراخوا اسلوب لغتهم وتعابيرها ويدعوا الاساليب الأعجمية .

حتى الأزهريون

الازهر المعمور قبلة الطلبة من العرب . يؤمونه من اقاصي البلدان لورود شرعته . وهو حصن اللغة الحصين . فيه تستقري دقائقها . وتمحص حقائقها . ويحيي ذمارها . ويأاد عن حياضها .

وكننت جد معتقد أن ابخل الناس واصلدهم زنداً قد يزدرى الذهب
 الوهاج قبل ان يزدرى العالم الازهرى العربى لصميم اساليب لغته
 وتعابيرها ويستبدل بها اساليب الفرائجة وتعابيرهم . وما زال ذلك معتقدي
 حتى قرأت مقالات البعض الأزهرين . خاضوا فيها مع الخائضين .
 فقالوا فالكتاب المتفرنجين « أسفت وأسفت كثيراً » بدل « اسفت جداً »
 أو « أسفت جداً الأسف » و فلان برح وطنه من أجلك ومن أجلك
 فقط « بزيادة (من أجلك) الثانية بلا فائدة . و « انه رجل بكل معنى
 الكلمة » بدل « انه رجل أي رجل » و « هو شخصية بارزة (بدل هو
 (رجل وجيه أو عين) الى غير ذلك من التعابير الباردة التي لم يأت بها
 عربى يغار على لغة قومه ويضن بها ان تزدرى وان لم يكن من الأزهرين

الفصح والمبتذل

ومن اغرب ما في الأمر انك قد تقرأ مقالة لأحد مشهوري المنشئين
 المتضلعين من اللغة . أو قصيدة لشاعر من رواض القوافي وزعماء
 القول . فيأخذك العجب حين ترى اللفظة الفصيحة بازاء اللفظة المبتذلة
 التي انما تجري على السنة العامة . ومن المعلوم ان شرط الحسن التناسب
 فاذا لم يكن تناسب فلا حسن . الست ترى أن العقد من اللؤلؤ الرطب
 اذا كانت فيه خرزات قللت من قيمته وحسنه .

انظر فيما كتبه المعري وعبد الحميد وابن المقفع وغيرهم من قدماء
 المنشئين وفيما نظمه فحول الشعراء الماضين فلا تقع عينك على لفظة مبتذلة
 تجاور لفظة فصيحة . بل تجد الكلام متناسباً من اوله الى آخره .
 مفرغاً في أحسن قوالب الفصاحة . ولا اثر فيه للابتذال .

المترجمون

الذين حذقوا العربية من العصريين واستطلعوا خفاياها ووقفوا على اغراضها هم من القلة بحيث تعلم . أمما الذين تفضلوا من اللغات الأعجمية كالفرنسية والانكليزية وقيدوا أوابدها واكتفوا من لغتهم العربية بشيء من جزئياتها فحدث عن كثرتهم ولا حرج .

وقد عكف هؤلاء على ترجمة الكتب والأقاصيص الى العربية وأخرجوها للناس في لغة مضحكة وتعابير غريبة واسلوب مستهجن . وأنت تعلم ان الترجمة لا يمكن ان تأتي فصيحة جيدة السبك انيقة العبارة الا اذا كان المترجم متبحراً في اللغة المترجم اليها أكثر من تبخره في اللغة المترجم عنها والا كانت الترجمة رثة الألفاظ سخيصة التراكيب ومما يجب على المترجم أن يتفهم معنى الفصل مما يريد نقلة الى العربية ثم يفرغه في قالب عربي لا أثر فيه للعجمة ولا يستطيع ذلك الا المتضلع من العربية العليم بأساليبها الأنشائية .

عرب ابن المقفع كتاب كليله ودمنة عن اللغة البهلوية فجاءت الترجمة من ابغ ما كتب في العربية وأصبحت مثلاً يجتذبه كل من اراد ان يبلغ من البراعة في الانشاء أمداً قصياً . ولو لم يكن ابن المقفع من جهابذة اللغة واكابر المنشئين لكان كتاب كليله ودمنة شبيهاً بما يعر به المترجمون في هذه الأيام .

وقد رسخت الملكة الأعجمية في اذهان اولئك المترجمين رسوخاً عجيباً حتى ان الواحد منهم لو انشأ مقالة أو وضع رواية من عند نفسه لجاءت اعجمية الأسلوب والتعابير لا تختلف في شيء عما يترجم .

خطباء الحفلات

الخطباء السنة الامم في كل زمن لمصاقعهم منزلة سامية وشهرة مترامية وكان الخطيب من الاولين اذا رقي فوق المنبر يرتجل الخطبة غير متلجلج ولا متلعثم . ولا لاحن ولا متكلف . فيخيل إلى سامعه أنه يقرأ خطبته في كتاب لسلامتها من اللغو واللعن وخلوها من الهفوات .

كذلك كان الخطباء ايام كانت العربية عزيزة الجانب منيعة الحرز لا تشوب اساليبها عجمة . ولا يعتور الفاظها ابتذال . اما الخطباء في يومنا هذا فمعظمهم ليسوا بمتضلعين من اللغة وقواعدها ولا ذوي عناية بمراعاة احكامها ودقائقها . فشأنهم ان يفهموا الناس ما يقولون من غير ان يبالوا باصول اللغة وقواعد الاعراب . فاذا وقف احدهم ليخطب سمعت كلاماً ان كان صحيح المعنى فهو فاسد اللفظ قلق التركيب لا تخلو منه فقرة من لحن ولا تسلم لفظة من ابتذال .

شهدت مرة احدى الحفلات وكان الخطباء فيها بضعة وعشرين خطيباً : وفي جملتهم نفر من الكتاب الذين انصرفوا إلى الانشاء منذ كانوا في ريعان الصبي : وفي يد كل منهم خطابه مكتوباً فلما شرعوا يخطبون متعاقبين على المنبر أخذني العجب الشديد اذ لم يحكم التلاوة منهم الا اثنان . فكانت حركات الاعراب يحل بعضها محل بعض ولو انهم ارتجلوا الكلام ارتجالاً لكان لهم بعض العذر . ولكن بم يعتذرون وخطبهم مكتوبة .

الصحفيون واللغة

بين منشئي الجرائد والمجلات العربية فئة "لم يعورها شيء من الذكاء والألمعية ولم يعد لها التفنن وجودة السليقة يكتب الواحد منها المقال في غرضٍ من الاغراض فيدل على خاطر حافلٍ ومادة غزيرة ، وبراعة في الاداء ، ولكنك اذا انعمت فيه النظر من الجهة اللغوية ، تكشف لك عن مواضع للنقد ، وعن الفاظ مبتذلة قد أخذ بعضها برقاب بعض ، واسلوب غير عربي شأنه اللحن ، فتأسف على سليقة لو ردفناها لغة فصيحة لأزدانت بآياتها المهارق . وعلى ذكاء متوقدٍ وخاطرٍ فياضٍ لو سلما من معرة الخطأ لكان نتاجهما أثمن من القلائد في نحور العواتق .

وأغرب ما في أمر هذه الفئة أنها لا تقرّ بضعفها اللغوي ولا تحاول ان تقيم ما في كلامها من أودٍ بنسجها على منوال قرّح الكتاب . وبانصرافها بعض الشيء إلى استجلاء غوامض اللغة والوقوف على دقائقها . ولكنها بدل ذلك تنعى على المتضلعين من العربية شدة تدقيقهم واختيارهم الاساليب الفخمة والالفاظ الجزلة ، زاعمة أن ذلك منافٍ للذوق العصري السليم غير مألوف في هذه الأيام التي أصبح كل شيء فيها افرنجياً حتى العربية .

الصحفيون من جميع الامم متبحرون في اللغات اللامعكتبون بهن جرائدهم ومجلاتهم ، بالغون من معرفة الاصول والدقائق اللغوية مبالغاً يأمنون به اللحن والخطأ فيما ينشئون ، اما نحن الصحفيين العرب فمعظمنا مكثف من العربية بما في (الاجرومية) و (بحث المطالب) فلا بدع ان يكتب بعضنا (الرجال الثقاة) والصواب (الثقات) و (الفتياة) وصوابها (الفتيات) .

المعلمون واللغة

ليس من المبالغة ان تقول ان معظم المعلمين الذين يتلقى عنهم الطلبة قواعد العربية في هذه الايام لاشد حاجة من اولئك الطلبة إلى معلمين يلقونهم قواعد الصرف والنحو وأصول اللغة ، ففي لبنان لا يستطيع ان تستثني من هذا الحكم الا نفرًا من المعلمين في الكلية الاسلامية ومدرسة الحكمة المارونية وبعض المدارس الوطنية .

واذا كنت ممن حلقوا العربية وباحثت بعض المعلمين في قواعدها واصولها لاتبث ان تقول اذا كان المعلمون في هذه الغاية من الجهل فكيف ينشأ الطلبة الذين يتخرجون عليهم . واذا كان الاستاذ لا يحسن ان يتلو سطرًا من كتاب تلاوة بلا لحن فماذا يستفيد التلميذ من الدرس عليه .

المدارس الأجنبية واللغة

لم ينزل باللغة العربية من ذلك اليفاع إلى هذا الخضيض الا المدارس الاجنبية : فقد كانت وما تزال تعلم الطلبة العرب احتقار لغتهم . وتوهمهم أنها لغة لا تستحق أن يخلى لها الذرع ، ويبدل في سبيل التضلع منها ما في الوسع . وأنها صعبة المنال . مشكلة القواعد . تنبو عنها الافهام وتحار فيها المدارك . فينشأ اولئك الطلبة وقد شربت قلوبهم مقت العربية . وفي اعتقادهم أنها لا تعود على من ينقطع لتحصيلها بفائدة : وأن الخير كله في التضلع من اللغات الاعجمية . فمن استطاع أن يرطن بأحداها كاشفته السعادة بأسرارها . وترادفت عليه النعم في آصال الايام وأسحارها .

ومرّ ردحٌ من الدهر والمدارس الاجنبية في سورية ولبنان تخرج لهما تلاميذ يجهلون العربية جهل الاعاجم اياها . ولولا من تخرجوا في أثناء ذلك على بعض علماء المسلمين . وعلى الشيخ ابراهيم اليازجي في المدرسة البطريركية والشيخ عبد الله البستاني في مدرسة الحكمة المارونية . والشيخ ابراهيم الخوراني في الكلية الاماركية في اوائل عهدها ولولا من حذقوا العربية بالمطالعة والبحث والتنقيب . لما وقعت عينك في سورية على متعلم يستطيع ان يكتب جملة عربية بلا خطأ أو يقرأ سطرأً بلا لحن .

ومن البلية ان الوطنيين على علمهم ان المدارس الاجنبية قد جنت على اللغة العربية تلك الجناية العظمى حتى اوشكت ان تصبح اثرأً بعد عين وانها مع ذلك تفسد على فريق من الطلبة عقائدهم . وتعودهم غير عاداتهم ما يزالون يؤمنونها زرافات ليتعلموا فيها احتقار لغتهم وازدراء عاداتهم وتقاليدهم ولينفقوا اموالهم من غير حساب . ولله في خلقه شؤون .

* * *

لم يبق من شك في أنّ اللغة العربية في هذا العصر جدّ متأخرة . وقد اوردنا من البراهين على تأخرها ما لايجادل فيه الا المكابر في الواقع . فاذا استمرت على حالها هذه يسومها الكثيرون من منشئي الجرائد والمجلات خسفاً ويرأوحها معظم معربي الكتب والروايات ويغادونها بما يبحث أصولها ويهدم مبانيها . وتبالغ المدارس الاجنبية في امتحانها . وتنشئة الطلبة على ازدرائها واهمالها . وتكتفي المدارس الوطنية بعلمين معظمهم في حاجة إلى من يعلمهم قواعدها . فمصيها

بلا ريب مصير اللغات اللاء لم يبق منهن الا الاشارة اليهن في التاريخ القديم .

اما المنشثون الذين يتوهمون انهم يكتبون كلاماً عربياً وما هم بكتاتيه والادباء الذين يحسبون انفسهم بالغين من الادب العربي مبلغاً جليلاً وليسوا في الحقيقة بباليغيه . فاما ان يقفوا على اللغة والادب جهدهم حتى يحذقوها ويمحصوا حقائقهما ويتتبعوا دقائقهما . واما ان يتخذوا بدل هذه اللغة لغات آخر فذلك خير لهم وللعربية .

المجددون والشعر

للشعر العربي على غيره من المزايا الظاهرة ما لا ينكره منصف ولو لم يكن له الا فخامة الاسلوب وعدوبة الرنة فضلاً عن رشاقة المعنى وحسن الديباجة لكفى ، وقد اقر بذلك نفر من علماء الفرنجة الذين درسوا العربية منهم الحكيم الجليل الطيب الذكر كرنيلوس فانديك الذي اولع بالعربية فتعلمها والف فيها مؤلفات ذات قيمة وكان كما اخبرني ثقة من معاصريه يهتز طرباً اذا سمع شعراً عربياً بليغاً ويقول لو استطعت الاجادة في الشعر لنظمته .

يرى الفريق الغيور على اللغة وادبها المتضلع منهما انه لا يصح ان يسمى شعراً الا ما كان صحيح الوزن جزل الالفاظ رائق الاسلوب متين القوافي سالماً من العيوب لا ابتذال فيه ولا تكلف ولا تعمل ولا تعسف لتجلي النكت الرائقة في ابياته وتكاد الطلاوة تندفق من صدورهم واعجازه .

اما الفريق المجدد فخير الشعر عنده ما كان سوقى" الالفاظ
سخييف التراكييب مبتذل الاسلوب ، وحجة هذا الفريق في ذلك ان
الشعر الذي ينسج على هذا المنوال يكون خلواً من الغموض والابهام
فيفهمه كل من يسمعه من غير ان يعنت فكره ويرويه من غير ان
يكدّ ذهنه .

على ان هذه الحجة اوهى من نسيج العناكب والحقيقة ان ضعف
ملكته العربية وعجزه عن استقراء دقائق اللغة والادب واستكمال
ادوات الشعر حالا بينه وبين ان ينظمه جزلاً فصيحاً متيناً فلما قعد به
طبعه عن مجارة فرسانه في الحلبة نظمه رثّ الالفاظ سخييف التعبير
زاعماً ان الشعر العصري كذلك يجب ان يكون ليصبح اعلق بالافهام
وادعى الى استحسان سواد الناس فكان شأن هذا الفريق في الشعر
شأنه في اللغة .

وتجد هؤلاء الاقلهم يحاولون اثبات زعمهم بما ينظمونه ويثرونه
تهجيناً للشعراء الذين يتخيرون لمنظومهم فصيح الالفاظ وجزلها ويأبون
أن يستعملوا سفاسف الكلام ونفايته ويتابعهم على رأيهم كل من لا
يفطن للحن او مغزى ولايفتهم شيئاً من اسرار الفصاحة والبلاغة
قائلاً ان الاسلوب الفخم واللفظ الرصين انما كانا يصلحان لوصف
الناقة والجواد في زمن الجاهلية وصدور الاسلام ولا يصلحان لوصف
القطار والسيارة والكهرباء في القرن العشرين كأن هذه الاشياء لايجوز
ان توصف بكلام فصيح سلم من معرفة الخطأ والابتذال .

ومن دواعي الأسف أن شعر المجددين لا يخلو منه الكثير من
الجرائد والمجلات وان معظم قارئيه يستحسنونه ويترنخون لدى

سماعه طرباً ولا يبالون ان يفضلوه على شعر البحري واني تمام
وابن هانيء والمنيبي ومن استن بسنة هؤلاء من شعراء العصر . فهم
اعداء كل فصاحة وجزالة واسلوب متين .

قد أنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

يقول الذين يسمون انفسهم ويسميهم مريدوهم (شعراء عصرين
ان الشعر بمعناه لا يلفظه فاذا تضمن سفساف اللفظ معنى جميلاً
فذلك هو الشعر المرقص المطرب وان الشاعر النابغة المنقطع النظير
هو من يأتيك بالمعنى الحسن في لفظ لا أثر فيه للجزالة والفصاحة
وبلغ ببعضهم الغلو في مذهبهم إلى أن يقولوا أن الشعر المتين الرصين
المحكم القوافي هو شعر "مستهجن وان كان بليغ المعنى لطيف الاغراض
لعمري ان الحلية المصنوعة من الذهب الابريز المرصعة بأغن
اللاؤلء لا يستحسنها ذو الذوق السليم الا اذا كان صوغها محكماً ولا
يشفع فيها جودة ذهبها ونفاسة لآلئها اذا لم يكن صائغها ماهراً متقناً
ومهما تكن الفتاة بارعة الشكل رائحة المحاسن وليست ثوباً خلقاً مرقعاً
فان لبسها هذا الثوب ماح آية جمالها مشوه محاسنها فتنبو عنها العيون
ولا تصبو اليها القلوب .

ومن مبتكرات المجددين ضروب من النظم يقسمون فيها القطعة
الواحدة إلى عدة اوزان كل وزن له روي "خاص" تشبهاً بشعراء
الفرنجة وهذه الطريقة تذهب بطلاوة الشعر الجيد السبك فكيف اذا

كان رديته وأيّ صادق الحس سليم الذوق تأخذه هزة طرب اذا
سمع شعراً هذا تفعيله :

مستفعّلن فاعلاتن مفاعّلن او : فعّلن فعّلن فعّلن فعّلن فعّلن
فعّلن فعّلن فعّ فعّ فعّ فعّ

الم يكن لهم وقد ارادوا التفتن غنىً بالنظم على طريقة الموشحات
الاندلسية عن هذه الاوزان المضحكة .

وهناك فريق جاء يدعو الشعراء إلى اهمال الوزن والرويّ وسمى
طريقته هذه (الشعر المنثور) فكان ذلك احدى المضحكات ولست
ادري ولا المنجم يدري كيف يمكن ان يكون النثر شعراً ما دام
الشعر هو الكلام الموزون المقفى فاذا فقد هذا الشرط بطل ان يكون
شعراً .

واذا كان اصحاب الشعر المنثور لا يتقيدون بوزن ولا تقفيه وما
دام كل شيء في الكون لا يخلو من معنى شعريّ فمن الواجب ان
يعدوا صدادح الطائر ومواء الهر ونبيب التيس من باب الغزل والتشبيب
وصهيل الجواد وصي الفيل من باب الفخر وزئير الاسد من باب
الحماسة واطيط الحمل وخوار الثور وازير القدر من باب الشكوى
والعتاب وهزيم الرعد وفحيح الافعى من باب الوعيد ودوي النحل
وخرير الماء من باب الحكم ونعاب الغراب من باب الرثاء وضحك
القرد وثقيق الضفدع من باب المجون إلى غير ذلك .

ضعف ملكة النقد

لما قلّت العناية باللغة والأدب ، ضعفت ملكة النقد في المتأدبين
العصريين فاذا قرأوا قصيدةً تجدهم ينظرون إليها من وجه واحد فاما

ان يحكموا بأنها من عيون الشعر ومحكمه وإما بأنها من سفسافه وهذا حكم فاسد لان من الواجب على الناقد الخبير أن ينظر إلى القصيدة من جميع الوجوه فلا يجوز أن يكتفي بجودة المعنى اذا كان اللفظ مبتدلاً واللغة فاسدة ضعيفة ولا بجزالة اللفظ اذا كان الاسلوب غير رائع ولا بروعة الاسلوب اذا كان المعنى غامضاً واللفظ سمجاً ولا بصحة الوزن اذا كانت القوافي قلقة والابيات غير متناسبة ومن الجهل الفاضح ان يحكمم لقصيدة او عليها من غير مراعاة هذه الشروط :

* * *

هذا ما أقدمه بين يدي الديوان آملاً من الجهابذة المنصفين ان يرأبوا في هذه المقدمة وما يليها من صدوع ويغضوا عما هناك من هفوات فإنّ العصمة لله وحده وهو يؤتي فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

أمين ناصر الدين

المصدر :

الالهام : ديوان فيه المختار من شعر العاجز .

أمين ناصر الدين . صاحب جريدة الصفاء .

طبع بمطبعة الصفاء . لبنان سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م

- ٥ -

تصدير

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي
امين عام جمعية أبولو

لم اتناول هذا الديوان بفرحة المؤمن بمواهب صديقي الشاعر المبدع صالح جودت بقدر فرحي بالظاهرة الحية الجديدة لشعر الجيل الحاضر . ان لصالح جودت من الطاقة الشعرية ما يبشر بفتوح رائعة في مستقبله الادبي ، خلنا ان نؤجل تهنئه وهو بعد في نهاية العقد الثاني من عمره فسوف يستأهل تقديراً أجلاً كلما أمعن في فتوحاته الشعرية يزجيه نبوغه وجرأته واستلهامه للحياة . ولكن لنا ان نهنيء انفسنا وجيلنا الحاضر بالظاهرة الجديدة التي تتمثل في صالح جودت وأقرانه من شعراء الاستقلال والحرية والاندماج في الحياة .

وان أنس لأنس مظاهر الشعر الجديد منذ ربع قرن مضى . فقد كان الشباب من الشعراء لايعنيهم وقتئذ غير المحاكاة ، وكانت غايتهم المباهاة بمجاراة اعلام الشعراء حينئذ ، وبخاصة الاعلام المحافظين . ولما صدر « ديوان الخليل » لاستاذنا مطران كنت احذر من قراءته . وكان شغف مثلي بما فيه من الطريف الشائق دليلاً على شنوذي السقيم في نظر زملائي المتأدين . . . وبهذه الروح استمر

الشعر العصري زمنا عبدا للتقليد والصناعة . وقلما تجاوز ميدان المناسبات الاجتماعية والسياسية والشخصية . . اما الآن فماذا نرى ؟ نرى الشعراء الشباب الناهين يبدأون حيث انتهى غيرهم . مقدمين بشجاعة على ميادين جديدة فسيحة . فتتألفهم تعين شاعريتهم المطبوعة على تجنب المحاكاة المألوفة وروحهم الشعرية الاصلية تأبى القيود وتثور أية ثورة .

ليس حتماً ان الشاعر النابغ في شبابه يطرد نبوغه في كهولته وشيخوخته فبعض الشعراء العالميين كالمتنبي وأبي العلاء ومilton وبردجز جاء آثارهم القوية فيما بعد شبابهم ولكن مما يسترعي الإنتباه أن وثبة شعراء في هذا الجيل بل ثورتهم لا تشعر بها حالة وقتية بل تبشر بنهضة مطردة ، وهي الآن بصورة قوية أخذت ولنضرب مثلاً بالمتنبي العبقرى الخالد القائل في صباه :

بأبي من وددته فافتـرقنا
وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
افترقنا حولا فلما التقينا
كان تسليمه علي وداعا
والقائل :

فقا قليلا بها علي فلا
أقول من نظرة ازودها
ففي فؤاد المحب نار جوى
أحر نار الحميم أبردها
ليس يحبك الملام في همم
أقربها منك عنك أبدها
بئس الليالي سهلت من طرب
شوقاً إلى من يبيت يرقدها

أحيينها والدموع تنجدني
شؤونها والظلام ينجدها

والقائل

شمس إذا الشمس لاقته على فرس
تردد النور فيها من تروده
أن يقبح الحسن إلا عند طلعه
والعبد يقبح إلا عند سيده
نفس تصغر نفس الدهر من كبر
لها نهى كهله في سن أمره

فهو في هذا الطور من حياته لم يكن أقوى شاعرية ولا أبعد
مرمى ولا اسمى بياناً من شعراء جيلنا المتوثب وفي طليعتهم صالح
جودت الذي ينفخ الشعر العربي بالراهب المتمرد والهيكلم المستباح
والمهزلة الكبرى وبغيرها من شعر الفلسفة والوجدان والتصوف في
قلب فني جميل يشعرا بالحياة الفنية المتجددة على أيدي الرائد من
شعراء هذا الجيل .

ان صالح جودت بفطرته شاعر غنائي حساس حلو العبارة
فياض العاطفة جياش بالمعاني العذبة الرقيقة ولكنه إلى جانب ذلك
الشاعر الوطني والشاعر الفلسفي حينما تثيره ظروف خاصة ، فترى في
الشعر الحيرة والاضطراب والآمال والآلام المتغلغلة في مشاعر هذا
الجيل . ولو لم يكن لصالح جودت غير شعره العاطفي الخالص
لكفانا ذلك داعياً للحفاوة بشعره ، فلا يجوز أن يطالب أي شاعر
بلون خاص من الشعر مطالبة الارغام . ان الشعر الحي الصادق
الشعور يعبر عن خواجه بلغته الخاصة متجاوباً مع الحياة الشاملة قبل
ان يتجاوب مع بيئته ويجب ان يكون الشاعر — ككل فنان — مالكا

تمام حريته ، فاذا كانت شاعريته راضخة لمؤثرات وطنية قوية فأهلاً
 بشعره الوطني المشتعل ، واذا جاءت سمحة هادئة ودیعة تتسم بروح
 الاخاء الانساني فأهلاً بهذا الشعر الانساني الصافي ، وكيفما كانت
 المؤثرات التي توجيها فعلينا ان نرحب بها كألوان من الفن اذا كنا
 كنا نعرف معنى الفن وحرمة .

يقول صالح جودت الشاعر الغنائي الرقيق في مقطوعته البديعة
 « العيون الزرق » :

عين من يهواك تشتاق الكرى
 قلب من يهواك يشدو بالخنين
 هل رأيت الدمع من عيني جرى ؟
 هل سمعت القلب موصول الانين ؟

إلى أن يقول :
 أيها المهاجر من غير سبب
 لو تجافى . . . انا راض يحفـاك
 العيون الزرق والشعر الذهب
 ألتآني يا حبيبي لهواك !

فيعلن لنا الروح المصرية الرشيقة الساحرة التي تذكرنا بروح
 البها زهير ، ويبرهن لنا ان اللغة الفصحى السلسة جدیرة بأن تؤمن
 على الروح الغنائية ، وان من يلجأون إلى العامية تملقا للجماهير أو
 بدعوى صلاحيتها للفن الغنائي دون سواها انما يشطون ويسفون
 ويسئون إلى أدب لغتهم بالهبوط إلى مستوى الدھماء بدل الارتفاع

يهم ، ويخلق صبغة فنية للغة العامية تهدد بها الفصحى لغة الثقافة والفنون
الادبية من قرون .

ويبدو صالح جودت في مسوح المصلح الاجتماعي في « الهيكل
المستباح » وهي قصيدة رائعة يفسدها الاقتباس منها ، وهو حين يبدو
في هذه المسوح لانراه يعتمد ذلك ، بل هذه النزعة النبيلة الفطرية
تصعبه عفوا فنتسبغ شعره ونستملحه ، سواء أشاركنا في نظراته
أم لم تشاركه . فهو شاعر أولاً ومصلح ثانياً ، وشاعريته تستوعب
النظريات الاصلاحية وتطبيقها ثم تفيض بوحها ، وشتان بين ذلك
وبين النظم الكلامي المجرد ، كلام الخطب المنيرية الشائع في أساليب
الناظمين الذين يحاولون تسخير الشعر لغايات واهواء خاصة ثم يسخرون
من الشعراء المطبوعين !

ومن العجيب ، أو ليس من العجيب ان شاعرنا الذي يتسم
شعره كشخصه بسمات الاناقة والرفقة لم يسهم من شكوى البيئة تلك
الشكوى التي تكاد تكون متفشية بين جميع الشعراء المعاصرين لقاء ما
يعانونه من غمط الفضل أو قلة الوفاء أو الصدوف عن مآثرهم .
وصيحاتهم ، وحسبك من بثه هذه المقطوعة اللاذعة :

قد سئمت الغباء في مصر حتى
لاأطبق الحديث الا لنفســي
جهل الناس ما أقول ... وقالوا
ما اراه مضيعاً طيب غرســي
هكذا العبقري بين الجهالى
زعموا انه مصاب بمس

ولشاعرنا أسلوب سهل سائغ مستقيم البيان ، ولكنه يلجأ أحياناً
إلى الرمز كما ترى في ذكرى شوقي وفي مقطوعته « البعث » التي
يقول فيها :

سائلوا العشب الذي نمنا به
كيف ماتت فوقه طير الاماني
كلما ارسلتها . . . قاصدة
هيكـل الهاجر تشكو ما اعاني
أوصد الباب ولم يخفل نها
وجفاها مثلما كان جفاني
فهوت من جوها واضطجعت
في سرير العشب خرساء اللسان
هاجركم صد عنه طائرا
تاه حتى جاءه طير تعاني
فتناسى التيه وارتد إلى
هيكلي . . . فارتد روجي وجناني
وتعانقنا واحيينا الهوى
وبعثنا في الهوى طير الاماني

وقد ألبأ الشاعر حنين العروبة إلى رثاء عاهل العرب العظيم
فيصل الاول ، ودفعته الروح الوطنية إلى نظم قصيدته الممتازة في
« مهرجان القرش » ، كما حدث به التأولات الفلسفية إلى نظم
قصيدته الرائعة « السفينة الحائرة » ، ولكن الروح الغالبة عليه هي
روح الفرح ونشوة الجمال وعبادته التي لا يعرف لها حداً ، وهذه
يعبر عنها ألطف تعبير في أغانيه البديعة المتكررة .

وسيتخاصم كثيرون حول هذا الشعر كما يتخاصمون حول
غيره من الشعر العصري ، فليس لشاعرنا إلا ان يذكر بيت أبي الطيب :
أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراحها ويختصم !

* * *

ان الروح الشعرية جوهر ، كما ان الموسيقى جوهر آخر وقد
جمع صاحب هذا الديوان بينهما . واذا عاب بعض الجامدين عليه
طائفة من الفاظه وتعابيرها ، كما يعيبون على جميع الشعراء المجددين ،
فعلى هؤلاء أن يذكروا ان اعلام الشعر العربي كالمثني وأبي العلاء
وابن الرومي كانوا أبعد الشعراء عن التقليد ، وقد طبع شعرهم
بطابع شخصيتهم وقد أكسبته الاجيال حرمة بعد ما كان منتقداً
في أزمته .

وهذا هو البحري برغم اشتهاره بتنميق الألفاظ لا يرضى عن
جميع تعابير جيلنا الحاضر بسبب تطور الاذواق تطوراً عظيماً في
الصياغة اللفظية والموسيقى بلغ المعاني والمؤثرات .

وما أغناني بكلمة « إمرسن » عن كل تفسير : « إن تجربة كل
جيل تحتاج إلى اعتراف جديد ، وتلوح الدنيا دائماً في انتظار شاعرها » .

The experience of each age requires a new
Confession, and the world seems always waiting for its poet.

وهي خير تحية أرفها إلى صديقي الشاعر صاحب هذا الديوان ،
أحمد زكي أبو شادي

المصدر : صالح جودت الأعمال الكاملة دار العودة ج ١ ١٩٨٢ .

تصدير

احمد زكي أبو شادي

. . . وأخيراً يظفر عشاق الشعر العالمي بهذه « الألحان الضائعة »
 لشاعر من أنيق شعراء الشباب ومن أظهر روادهم : حسن كامل
 الصيرفي الذي يهتف في إيمان عميق :
 وما العطر إلا أنة وتوجع
 كأصداء أنغامها ورجع شكاتي
 يغني شجي القلب والناس حوله
 طروبين بالانشاد والنغمات
 وما كان لي أن أجراً على كتابة هذا التصدير إلا بعد أن خبرت
 الصيرفي خبرة الأديب للأديب والصديق للصديق ، وبعد أن شعرت
 أنه من أجدر الشعراء بأن يردّد :
 وما كان شعري في نظمي أصوغه
 ولكن شعري أن أكون أنا الشعرا !
 ومن كانت هذه نفسيته فلن تضيع ألحانه ما بلغت بيئته من العزوف
 والجحود ، وشقيت ما شقيت نفسه من هواها وهمومها .

حسن كامل الصيرفي شاعر "أصيل" فياض" الشاعرية المستوحاة من أغاني الربيع ومن الصدى الخافت ومن جفاء الطبيعة ومن البسمات الساخرة ومن موت الليل ، وحتى من المنديل وعقب الليفة ، ومن كل ما توحى الحياة والموت للشاعر الحساس النبيل . وهو شاعر في حياته ، شاعر" في خلقه ، وهذه صفات قلما تجتمع حتى تبهجك وتشعرك بالاحترام والمحبة البالغة نحو صاحبها . وكم وكم من فنان من فنان لم يتعدّ فنه صناعته وتعبيره ، فتحبه عن بعد وتأيي إباءً أن تكون لك صحبته ، كأنما هو ينتسب إلى السماوات العلى ، بفنه المقروء والمسموع ، وبمتّ بوشائج قوية إلى أعماق الجحيم في خلقه وطباعه الشاذة ! . . .

ولكن الصيرفي غير هذا : فهو الفنان الناضج في تعبيره الوجداني المنغوم ، وفي صور حياته العامة ، وفي مظاهر النفس الخلقية ، فهو ذاتية من الشعر الحيّ الثمين . . . وأين هذا المثال الرائع من أمثلة المبدعين لمنظومات خلابة لانشعر مع ذلك أن وراءها شيئاً مذكوراً من العاطفة ولأصالة في الشاعرية ولا تعمقاً في الحياة ولا فلسفة قيمة ولا مطابقة بين حياة الشاعر وبين ما يدعيه من مثله عليا ؟ فالصيرفي" الشاعر وشعر الصيرفي وحدة" منسجمة لا تجزأ ، وأنّ الاعزاز الذي نوجهه إلى شعره نستمدّه كذلك من شخصيته الشاعرة المتسامية المحبوبة — تلك الشخصية الحساسة الناضجة التي تأسرنابتعاليها في صمتها البليغ حينما تدوى الدنيا حولنا بسفاسف الأمور !

* * *

لقد انتظمت مدرسة أبولو شعراء ممتازين وها أن تفتخر كل الافتخار بالصيرفي وشعره ، فهو ثروة جديدة للشعر المصري الحديث

وللشعر العربي عامةً ، وكيف لا يكون ذلك وهو الجامع ما جمع من
الطلاقة البديعة والخيال الرائع والموسيقى المستحدثة في نظام هو نظامه
لا يقلد فيه أحداً ، وإن تجاوب مع أقرانه من أعلام النهضة الشعرية
في العالم العربي . وهذا التجاوب الشامل علامةً من علامات الشاعرية
القوية ، كما أن احتفاظه بشخصيته علامةً أخرى من علاماتها القوية .
وحسبك أن تفترض حمراننا نماذج هذا الشعر الحديث فتشعر بالفراغ
الذي تشغله شخصية الصيرفي الشاعر وإن أبي عليها إلا التواضع أو
التوازي كأنما ذلك من أصول فنه العميق .

وفي « الصورة السريعة » التي يعرضها الصيرفي ترجمة له نلمح
الروح الثائرة في صميمها الوديع في مظهرها ، وقد أبت إلا أن
تكون سيدة نفسها ومبعث فنّها ، لامرأى لغيرها . فكل ناقد يحترم
مداركه لا يسعه إلا احترام هذه الشخصية الفنية العزيزة .

يقول الصيرفي :

عصرت روحي خمراً للورى وهوىً
وما تلوّقت منها بعض ما شربوا
ضاعت أمانى في الدنيا وأي منى
تعيش فيها وتحيا وهي تلتهب ؟ !

فنشيد الألم مستهل ديوانه . ونشيد الألم ختامه ، ولكنه الألم الذي
لا يصحبه الندم ، ألم التضحية النبيلة :

هنا في هيكـل الحب
أحقر مبدأ الفرد

وأسرق عنده قلبي
بجوراً طيب الند
ولست بنادم يرمأ
على قرباني الضائع
أجل الناس من يظما
ليرضى الظامىء الجائع

وكيف يندم وهو صاحب ملاحمة « الشاعر » الذي يقول :
عجبت لسكان هذا الوجود
ضحايًا ولكنهم يعيشون
تبددهم سخریات الحياة
وتجمعهم سخریات المنون
تصوفهم من جمود الصخور
وشهوتهم من ضرام الجنون
بنيت لهم من جنان الخيال
فراديس ترقص فيها الفنون
فراحوا يجتثهم يهزأون
ومالوا على سورها يهدمون !

* * *

إذا غبت عن أرضهم برهةً
فلى رجعة لهم بعد حين

تترهت عن عاديات الفناء

وإن كنت في الأرض كالمهاكين !

ليكن الشاعر من يكون ، فاذا عدم رسالة مثالية في شعره فما هو
أهل " لأن يعد في مرتبة من مراتب الإكبار الانساني . فأية رسالة
للشاعر الصيرفي في شعره ، وإن نظم شعره أصلاً لنفسه (اقرأ «
الصدى الخافت ») ؟ وما هي مميزاته الفنية التي تقترن بهذه الرسالة ؟

الصيرفي شاعر مبتدع ، بعيد الخيال ، رومانطيقيّ التزعة
غالباً ، رمزيّ أحياناً ، بعيد في طوره الحاضر عن المثل القديمة ،
لغته لغة الشعر الجريء ، فكل ألفاظه أشعة وظلال وأنغام وأصداء
وعطر وشذى وأشباح وأطياف ونحوها ، وليست لغة التنسيق الصناعي
الذي لا يخرج عن حدود الموسيقى اللفظية التي لاتمت بصلة إلى المعاني ،
وشأن بين موسيقى المعاني التي تأسر الألفاظ وبين الموسيقى اللفظية
التي تكاد لاتعرفها المعاني ! فليذهب عشاق التشريح والتنقيب اللفظي
إلى غير هذا الشعر . ليذهبوا إلى شعراء الرنين وليتناظروا معهم في
استبدال لفظة بأخرى وفي أصوب المذاهب النحوية ، وأما ازاء هذا
الشعر الوجداني الرائع فليعتبروا أن وراء ألفاظه دوافع نفسية في الاختيار
والتنسيق والموسيقى ، لادوافع صناعية تدعو إلى تبديل بعد تبديل
وتحوير وتقديم وتأخير . ثم ما هي رسالة الصيرفي في شعره ؟ هي
رسالة بسيطة ولكنها جدّ متسامية : هي رسالة الحياة الفنية الخالصة ،
التي يبكيها في « موت البلبل » ويبعثها في « الشاعر » ، وهي رسالة
تشوبها الحيرة والابهام في مواضع ولكن يجلوها إيمان الشاعر دائماً .
وإذا تتبعناها في مجالها واستمعنا إلى الشاعر التائه ينادي :

يا ظلمة الليل ردي نجمك الزاهر
 كفاني اليوم إني تائه حائر
 أطوف من عالم تطغى موانجيه
 إلى سواه فألقى موجة ثائر
 سفيتني حطمتها الريح فاقتنعت
 نفسي ببعض شراعٍ سابح خائر
 يلقي به الموج نحو الشطّ ينقاني
 والشطّ كالبحر يطوى الباس العائر
 خلصت من غمرة الدنيا لخيرتها
 ومبدأ العمر في الآلام كالأحر
 يا ظلمة الليل واسيني بأجمه
 كفاني اليوم إني تائه حائر !

لم نلبث أن نجد هذا « التائه » نفسه هادينا بروحانيته القوية فلناجح
 « السحابة المغترّة » ونتمين « جفاء الطبيعة » كما نفقه « الرغبات
 المقيدة » ونتعرف « حياة الفنان » ونهتدى بخواطر الشاعر وتصويره
 إلى أن الفن وحده هو خلاص الانسانية وسعادتها ، والفن ينتظم
 الجمال بما يعنيه الجمال من حب ورحمة وتجاوبٍ شاملٍ للوجود .
 هذه هي رسالة الصيرفي في شعره الجميل الذي نشر كثير منه
 قبلاً فانتهت في الأدب العصري وتجلت آثاره في أشعار كثيرة لمشهورين
 ومغمورين على السواء ، أحبيها تحية الاعجاب والمحبة الخالصة في
 « ألحانه الضائعة » التي لن تزول ، وانما تغيب في الخواطر والنفوس
 ثم تعود تجديده على ألسنة مريديته وخبيبه وفي دقات قلوبهم .

أحمد زكي أبو شادي

المصدر : الألحان الضائعة . ضاحية المطربة ٦ يونيو سنة ١٩٣٤
 ديوان شعر . حسن كامل الصيرفي ١٩٣٤ .

الياس أبو شبكه مقدمة

١٩٠٣ - ١٩٤٧

لأكتب هذه المقدمة لاحدّ الشعر ، أو لأعلم الشاعر كيف ينبغي له أن يشعر ، وأي طريق يجب عليه أن يسلك ليصل إلى هيكل النور الأسمى ، أو لأجيء بنظرية أتعصّب لها وأعان لأجلها حرباً ، فالشعر كائن حي تحتشد فيه الطبيعة والحياة ، فلا يقاس ولا يوزن ، والنظريات مذاهب وأغراض لاتعيش إلاّ على هامش الادب كما يعيش العرض على هامش الجوهر أو كما يعيش الديكتاتور الزائل على هامش الأمة الأزلية .

وقد تصبح النظريات أو المذاهب في كتاب سياسي أو وصية سياسية موجهة إلى شعب له أوضاعه الخاصة ، وحدوده المقررة ، وثقافته ، وجنسيته ، ولاتصبح في شعر يعبر عن الحياة ، فالحياة لاجنسية لها ولا أوضاع ولا حدود ، وهي أوسع من أن نضع لها حدوداً ومقاييس ، والدائرة غير المحدودة لاتنحصر في الخدقة الضيقة .

ليس للفكر حدّ ولا تخوم ، فكيف نضع للحياة حدّاً وهي هدف الفكر ؟ كيف نحدد هذه القرّة المتحوّلة في اللانهاية ، هذه القوة المجهولة ؟

وربّ قائل ان الانسان دائم الشوق إلى معرفة المجهول . وهذا صحيح . على أن الشوق إلى معرفة المجهول لا يلزم العقل البشري إلاّ عندما يقتنع الانسان بأن ادراكه الحسي للعالم الخارجي لا يكشف له حقايق الاشياء التي يراها ويلمسها ، ويضطر إلى الاعتراف بأن ادراكاته الذاتية ليست سوى تأثيرات لسبب خارجي يجهل حقيقة . ولكن الجاهل لا تتمرّ في خاطره أية شبهة بشهادة حواسه الذاتية ، ويعتقد كل الاعتقاد أن الاشياء التي يراها ويلمسها هي الحقايق بعينها ولا يمكن تحويله عن هذا الاعتقاد لان نظريته في مبحث المعرفة تمثل أحط دركة من المادية التافهة ، ولانه يصرّ على ادراكه ما لا يدرك - بل يحس ، يصرّ على ادراكه الحقيقة المطلقة ورؤيته اياها من وراء المظهر المتحول في الحياة .

كيف نستطيع ادراك ما لا يدرك بل يحس لنقيّده في دائرة ضيقة من اصطلاحاتنا البينانية ، ثم نوزعه مذاهب وطبقات هي سياسة الشعر لطبيعته ؟ أليس من الخرق أن نحاول باغة وضعية تحديد لغة المجاز والكنائية ، لغة الروح ، لغة الحس الوجداني العميق ؟

وقد يعدد بعض هواة النظريات إلى تحديد الشعر بالطريقة الفلسفية ، وفي هذا دليل على شك هذا البعض في الشعر نفسه : في جوهر الحياة . فالمرء لا يلزم جانب التفاسف إلا عندما يخالجه الشك ، مزعزع الاعتقاد بمطابقة المدارك الحسية لحقيقة الاشياء المدركة . وهذا الشك الفلسفي ينم في حد ذاته عن الاعتراف بعجز الوسائل العامية وقصورها . وهذا الاعتراف يرغمنا في نهاية الامر على التسليم باننا ان نتمكن من معرفة حقايق الاشياء بوسائلنا المحدودة ، وان ضعف وسائلنا ناجم

عن طبيعة تكويننا الناقص . . . وعندئذ يصبح المجهول في نظرنا السر الغامض ، أي الحد الاخير الذي يقف عنده الذكاء البشري . هذا هو الشوط الذي تجتازه الفكرة الفلسفية عندما تصدر عن الشاك لتخلص إلى الشوق لمعرفة المجهول ، وإذا أضفنا إلى هذه البيئات التأثير المخيب لتقلب الحياة في هذا العالم ، ندرك في الحال أن من العبث والجهد الضائع التشبث في البحث عن الحقيقة المطلقة الثابتة وراء مظهر الوجود المتقلب ، وعندئذ يغمرنا هذا الادراك بكآبة عميقة ، فتفهم السبب الحقيقي لذلك التشاؤم العميق الذي يستولي عادةً على الشعراء .

اذن ، ثمة حقيقة غامضة من العبث والبحث عنها لتحديدها ، وقد قال الاب بريمون : « ان كل قصيدة مدينة بطابعها الشعري لتأني هذه الحقيقة الغامضة . » وربما اراد الاب بريمون ان يعني بهذه « الحقيقة الغامضة » الوحي . وهو في ذلك لم ييئس بنظرية ، بل عبر عن شيء يجهله لكنه يشعر به ، خلافاً لبول فاليري الذي تعتمد الاثيان بنظرية عندما قال : « اذا آمن الشاعر بالوحي قتل الابداع . » فاذا كان الوحي حالة من حالات النفس عند تأثرها المباشر بقدرة خارقة وشئنا ان ننكر هذه الحالة أنكرنا جوهر النفس ذاته — أنكرنا مبدأ الحياة . وأية غضاضة على الشاعر ان يكون وسيطاً لهذه القدرة الخارقة ؟ فالانبياء كانوا يتسقطون كلام الله . والقدرة الخارقة ليست منفصلة عن الانسان ، فهي جرحه نفسه . فاذا أرسل الشاعر نظره في معرض الطبيعة واجترت عيناه مشهداً من مشاهد هذا العرض ، ثم خبزه على نار هذا الجوهر فيكون قد اعطاك من نفسه . والنفس هي المصهر

الداخلي الخفي لكل ما يحيط بالانسان . فاذا كانت النفس مفلترة
على الصفاء وتبّأت، لها العوامل الثقافية المكّمة ، فانها تنقّي الشعور
من ادراكه ، وتقوم بهذا العمل من تلقائها فلا تكلفك اجهاداً ولا
تعملاً . . . شأن المعدة الصحيحة تهضم الطعام وتتولى توزيع الدم
النقي في الجسد واخراج الفاسد منه .

قلت ان القدرة الخارقة ليست منفصاة عن الانسان فهي جوهر
نفسه . فعلى هذا الجوهر تنصهر المراثيات وتشارك في هذا العمل
جميع الحواس . اذن ، فالقدرة الخارقة التي يتأثر بها الشاعر هي
نفسه . والنفس قوة لم يدرك كمها لتحدّ ، فكيف ننفي الوحي
الشعري ما دامت النفس مصبّر الشعور ؟

ويقول فاليري ايضاً ان الشاعر من يستطيع النظم ساعة يشاء ،
وليس الشاعر وقفاً للمصادفة ، وانه لمن الخطأ القول بان الشاعر
منفعل لافعل ، ومتسقط ما يلقى عليه .

كأني ببول فاليري يريد ان ينزل الشاعر منزلة النجار أو الحداد يقبل على
عمله ساعة يحين موعد العمل أو ساعة يريد العمل ، فيكون فاعلاً لا منفعلاً .
وهذا أبعد حدود الخطأ وامتهان فاضح لجوهر الشعر . وايمان هو هذا
الشاعر الذي يصطنع العاطفة اصطناعاً ليعطيك كل ساعة انتاجاً
كالنجار يعطيك الخزانة في الوقت المتفق عليه ؟

ايمان هو هذا الشاعر الذي لا يتأثر بما حوله ومن حوله فلا هجر
حبيب يؤثر فيه فيحرك شعره ، ولامرت صديق أو صديقة ولا نكبة
عزيز ، ولا كارثة أمة ولا فرح شعب ، لا الظفر ولا الانكسار ، لا
الذل ولا الكرامة ، لا ربيع الطبيعة ولا شتاؤها ، لا صيفها ولا خريفها ؟

وأية غضاضة على قريحة الشاعر اذا هي مرت بساعات خدر ؟
أفيكون الشاعر ملتزم اشغال في يده مقياس الزمن لانجاز عمله ؟ أفلا
يتفق للقريحة ان تمرّ في ساعات خدر فلا ترى ما تراه في ساعات
اليقظة الروحية ، ولا تحس ما تحسه في ساعات التأثر والانفعال ؟ وإلا
فقيم لا يترك الشعراء من الروائع الا ثلاثاً او اربعاً لاتسلخ من العمر
اكثّر من سنة ؟ قال احد الشعراء الخالدين : اذا أحصي الوقت الذي
وقفته على نظم قصائدي فلا يعدو تسعة أشهر . وقال فاليري ايضاً
ان الشاعر الموهوب من يختار اللفظة الصالحة لاحداث الرعدة النفسية
واحياء العاطفة الشعرية .

على ان الشاعر الحقيقي لاطاقة له على اختيار اللفظة ، فله من
شعوره الزاخر ما يصرفه عن هذه الأهمية . وعندني ان الشعر ينزل
مرتديداً ثوبه الكامل . وهذا الثوب جزء من الشعور لا يتجزأ . وقدر
ما تكون ثقافة الشاعر من الرقي والدوق الموسيقي في روجه يكون
البيان راقياً في شعره . وهذه اللفظة التي يريدنا بول فاليري على ان
نختارها تتكاثفت العناصر الروحية فينا على اختيارها ، فلا تكلفنا هذا
العناء او تصرفنا عما تراه بصائرنا خلال الاحلام والرؤى . فكل ما
يكتسبه المرء يصهره جوهر نفسه ، القدرة الخارقة ، فيصير عضواً
فيه .

سوى ان فاليري ما لبث ان نقض نظريته في الوحي الشعري
في محاضرة له عن « الهامات البحر المتوسط » . وفي هذا دليل على
فساد النظريات في الأدب . فقد وصف الشاعر الفرنسي الزوارق
الماخرة عباب بحر الروم ، والحيث الحمراء تركها الاسماك المبقورة ،

واهرام البرتقال المصدر من اسبانيا ، ودلى على اقطاعات الروح البشرية والاساليب التي تتكوّن منها هذه الاقطاعات ، وعلى تطور النور الناشيء والسما والشفاطىء ، وائر هذه المشاهد في روجه .

وشاء ان يحدثنا عن جميع العوامل والمؤثرات التي كان لها الفضل الاكبر في تكوين غييلته واحساسه ، فأخبرنا ان جمال البحر يجذبه في صباح يوم . وفيما هو يغتسل ويمتّع الطرف والروح بتموجّ النور على سطح الماء اذا بمشهد تقزّ له النفس يعترض نظره ، فقد رأى على مقربة منه ، في قعر الماء الصافي الشفاف ، أشياء حمراء بلون الورد الخفيف أو الارجوان العميق ، وعالم بكثير من المقت انها كتل فظيعة من احشاء الاسماك التي طرحها الصيادون في البحر . ولم يقو على الهرب مما رأى ولاعلى تحمّله لان عاملين في نفسه كانا يتنازعا في الشعور بالجمال الحقيقي الغريب في فوضى هذه الالوان الاصليه . وفيما هو مستسلم إلى المقت والرغبة في الاستفادة ، يتقاسمه عامل الحرب وعامل التحليل ، كان يفكر في ما يستطيع استنتاجه من هذا المشهد . ثم انتقل بالفكر إلى ما في شعر القدماء من الوحشة والدم ، وتذكر ان الاغريق ما تورعوا عن وصف انقطع ما تقع عليه العين . . . وان الاساطير الاغريقية وشعر الملاحم والمآبي طافحة بالدم ، واكن الفن اشبه ما يكون بسطح الماء الصافي الذي رأى خلاله تلك الاشياء الفاحشة .

وانتقل بول فاليري إلى الدور الذي مثله البحر المتوسط بما اتصف به من الخصائص المدية في تكوين الفكر الاوروي الذي حرر العالم البشري بأسره . ومما قاله ان طبيعة البحر المتوسط والعلاقات التي

قررها أو فرضها كانت أساس التكوين النفساني والفني ، هذا التكوين المدهش الذي استطاع ببضعة قرون ان يميز الاوروبيين من سائر الخلق ، والزمن الحاضر من الازمان الغابرة ، فأقوام البحر المتوسط هي التي خطت الخطوات الاولى الواثقة لإيضاح الاساليب والبحث عن الظواهر الطبيعية باستخدام قوى الفكر .

وبعد ان وصف الشاعر مواقع البحر المتوسط ومزاياه الطبيعية انتهى إلى القول بأن ابداع الشخصية البشرية ورفعها إلى مستوى من الرقي والتطور الاكمل كانا من مہتدعات هذه الشواطىء . ويتضح لنا من هذا أن فاليري أصبح مؤمناً كل الايمان بـ « الوحي الشعري » بدليل ان البحر والشمس والسماء هي مصدر تكوينه وثيقفه ، وان طبيعة البحر المتوسط كانت اساس التكوين النفساني والفني الذي ميّز الاوروبيين من سائر الخلق . . .

ولن اعمد هنا إلى مجادلة هذا الرأي في تمييز الاوروبيين من سائر الخلق ، فلكل في تمييز عنصره مدلول يخالف به الآخر ، بل أقصر الكلام على الوحي الشعري من غير ان اذهب مذهب العرب القدماء في ان الوحي يلقن من فم شيطان ، وان الشياطين تسرق السمع وتلقيه على الالسة .

فالوحي يتولد على صفاء المزاج الطبيعي وقوة مادة النور في النفس « — على حد قول المسعودي . وأضرب مثلاً على ذلك هذا الغدير الصافي: لاتشقى العين في رؤية السماء وغيومها وسحبها ونجومها ماثلة في قعره ، كأن هذه السماء وما عليها هاتف في أعماق نفس الغدير . وللطبيعة الحكم المطاق في تصريف النفس البشرية واثرها

الكامل في الحس ، وليس في المبروعات النفسية والجسدية ما لاتحكمه الطبيعة .

وفي الطبيعة اسرار لطيفة لا يدركها الحس مهما دق ، بل يشعر بها اذا قويت النفس . والنفس مهما قويت لاتستطيع قهر الطبيعة لأقتناص سرها اللطيف إلاّ اذا تجردت من ادراك هذا العالم . وهذا مستحيل .

إذا تجردت النفس من هذه الادراك بلغت النسبة النورانية الكاملة ، بلغت مستوى الطبيعة ، بلغت ذات الله . والنفس النقية هي الله .

على ان للنفس هذيهات تصفو فيها ، فينعكس عليها من الطبيعة جمال محجوب . وهذا الجمال يهتف في النفس اسراراً تنطق لسان الشاعر الثقيف يعانٍ شريفة . وعبثاً نحاول معرفة هذه الاسرار ، فهي من الغموض والطف بحيث تدق على ادق حس ، ويكفي ان نسمع من هذه الاسرار ما ينطق الستتتا ويفتح اذهاننا لمشاهد نراها بأب العين .

وربما أراد الاب برعون بقوله : « انه لاحاجة لفهم معنى الشعر ، فالسحر المنبعث عن موسيقاه يؤثر في النفس تأثيراً مباشراً » ، — ربما اراد بقوله هذا ان يعبر عن تأثير النفس بانعكاس الجمال المحجوب في الطبيعة عليها ، ويظهر ان هذا الجمال الغامض انما هو موسيقى الطبيعة تعزف على اوتار النفس معزوفات غامضة من نوع ذلك الجمال .

على ان هذا ، وان يكن حقيقياً ، لا ينبغي جعله اساساً للشعر .
فالموسيقى هي عنصر من الشعر لأكمله . وهذا العنصر غامض ككل
شيء يسمع ولا يرى . ومن الخرق الفاضح ان نكتفي من الشعر بموسيقاه
ونقدم فيه وصف ما لا يوصف على سائر عناصره . فللشعر عناصر
متساوية يجب أن تجري كلها في حلبة واحدة ، فلا تنحط الفكرة عن
الموسيقى أو الصورة عن الفكرة .

ومن الخرق ايضاً ان نتخذ الشذوذ قاعدة للشعر ، فنذهب مثلاً
مذهب الاب بريمون القائل بان الشعر الجميل يخلو احياناً من المعنى ،
او اذا انطوت اجزائه على معنى فلا ينطوي عليه في مجموعه . فالشعر
اذا اقتصر على الموسيقى لا يلبث ان يشيع الملل حتى في الاذن . ولا بد
هنا من القول ان الشعر يرافق جميع وجوه التفكير . فالشاعر قد يطرق
باب الفلسفة ولا ينحط عن الشعر . على ان هذا الشاعر ليس بأبي
العلاء المعري مثلاً ، فأبو العلاء يقحم الفلسفة في شعره فيناقش فيها
كالمعلم العالم ، ولا يلزم المزاج الفني فيلمع إلى الفكرة التي تبدو له
بتعبير يستخدم فيه جميع انواع المجازات والاستعارة والرموز بحيث
يحدث التأثير النفساني المنشود .

وقد يطرق الشاعر ايضاً باب الزراعة ولا ينحط عن الشعر كما
فعل فرجيل في « الجيورجيات » . فقد نظم هذا الشاعر قصيدته هذه
ليحمل الرومانيين على تعشق الارض نزولاً على رغبة اوغسطس .
على انه سير معارفه الزراعية في موكب من الالفاظ الموسيقية حمّله
من عذوبة الحنان ورائع الوصف ما ادرج قصيدته في عدد الروائع
الشعرية الخالدة .

وما اقله عن فرجيل اقله عن جميع الشعراء الأقدمين والمتأخرين الذين استخدموا مواهبهم لاكتشاف كنوز الطبيعة والحياة . فالتبيعة هي قيثارة الشاعر ، وعبثاً يحاول الشاعر البحث عن اوتاره في غير هذه القيثارة . والشاعر الحقيقي هو تاريخ عصره ملحنًا ، فلولا الشعر ما عرف تاريخ العرب في الجاهلية ، ولولا ما عرف تاريخ الفروسية والكرامات عند الرومان ، ولولا ما عرف تاريخ الاغريق . ولما اراد الكاتب الفرنسي اتيان باسكيه وضع كتاب عن الحياة الوطنية في القرون الوسطى اضطر إلى قراءة الملاحم الشعرية

Les chansons de geste

قرأت اخيراً مقالاً للكاتب الفرنسي ادمون جالو عن شاعر عظيم من شعراء القرن الثاني عشر يدعى شوتا روستافيلي ، عاش تحت السماء التي أظلت الفردوس الارضي وجبل ارارات الذي وقف عليه فلك نوح . يقول ادمون جالو ان لهذا الشاعر الذي اكتشف اخيراً قصيد او ملحمة رائعة هي امدوحة للانسان كما كيفته اواخر القرون الوسطى ، في قوته ، وشعوره بالشمس والعدل ، وسداجته على عتبه الانبيات . قال : « حالما نقرأ هذه القصيدة (انسان في جلد نمر) تقع في ذهول حيال هذه السكرة الشرقية ، ذلك باننا نحن الغربيين المساكين فقدنا عادة التشنج الكلامي ، ونكاد نحتق في هذا الجح من البخور والالوان . » ونحن الشرقيين فقدنا بدورنا ذلك التشنج الكلامي ونكاد نلذوب في هذا الجح من البخور والالوان الغربية . . . هذا الجح الذي اجتاحت غيومه السامة بلدان الشرق مندفعة بقوة الاجتياح السياسي .

واني لأتساءل ماذا ترانا نستطيع بهذا القاموس الضيق ، هذا القاموس المستورد نتشبت فيه للتعبير عن اعمق حقايق النفس ، فرفع الكلفة بيننا وبين اللغة ، ولانتورع عن سلوك مهامه غائمة كأننا في حلم ؟ وقد يخيّل الينا ، ونحن نسلّك هذه المهامه ، اننا نسير في الطريق الشعري السوي ، بينا نحن في الحقيقة لانحاول الا الخروج من انفسنا مستبعدين لنظريات خاطئة بل مضرة تحرر منها حتى ومبدعوها انفسهم . فبول فاليري الذي جاءنا بمشاريع نظريات خلقت في الأدب العربي جيلاً مضعضعاً لم يجد عن صراط ما يرب ، ولم يتمرد على القاعدة الكلاسيكية في النظم . واني لأجد في شعر فاليري أبياتاً كثيرة يستطيع دسها في شعر لامارتين ، كما أتي أجد في شعر البرناسيين أمثال غوته وبودلير ما يستطيع نسبته إلى شعر اعدائهم الرومانطيين كلامارتين وهوغو وفيني ، وشعر الرمزيين كفيرلين ومالارمي .

قلت في مستهل هذا الحديث اني لا اكتب هذه المقدمة لأحدد الشعر او لأجىء بنظرية أعصب لها واعلن لاجلها حرباً ، بل اكتبها لأرد صادراً إلى مصدره ، لأرد الشعر إلى الطبيعة امته . فمنذ اليوم الذي تأزمت فيه المشادة بين ادباء الغرب وطلعت وحوش النظريات من اوجارها يكشف بعضها في وجه البعض الآخر ، ألتوى الشعر عن قصده واصبح زياً يتلون بتلون الالهواء . ولكن النفس لاتخطيء لانها معكس ومصهر لحقايق ابدية هي الطبيعة والحياة . ففيما المدارس الشعرية منصرفة إلى التطاحن اذا بطائفة من مبدعي هذه المدارس ترتفع عن الفرضيات الزائلة إلى المصدر الأبدي . فرأينا بودلير البرناسي يصدر عن نفسه ويلتقي فريلين الرمزي على صعيد واحد ، ورأينا

جميع الشعراء الحقيقيين من زعماء المدارس يتفلّون في الاودية
المظلمة ويجمعون انقياء على قمة واحدة هي الشعر .

فالمدارس الشعرية سجون ونظرياتها قيود ، والشاعر لا يعيش

في جوّ العبودية هذا . فالطبيعة هي جوه الفسيح تتكيّف احساساته

بتكيّف المظاهر المتقلبة فيه ، واذا خرج الشاعر من هذا الجوّ خرج
من نفسه وكذب على نفسه .

الياس ابو شبكه

المصدر :

الياس أبو شبكة .

أفاعي الفردوس .

صدرت الطبعة الاولى عام ١٩٣٧ .

سعيد عقل مقدمة

أيّنا (١) ، في حبّه الأوّل - ما اتفق له أن ردّد بين يدي
حسنائه : « هل عند الوردة ، يا حبيبي ، خبرٌ عن عطرها ؟ هل
تعي الوردة أنّها الطريفة ذات الشّذا المسكر ؟ »
المرأة من جمالها كالوردة من أريجها ؟ لربّما بتقريب كهذا
نكون قلنا ما ماهيّة وعيٍ من ماهية لاوعي .
الوردة لا تدرك أنّها الوردة . وهو ، على ما يقول العاشق ،
موقف الحسناء من حسنّها .
روح مناجاته اذن أنّ فتاته لو درت ما جمالها لشاركت الناس
عبادة نفسها ؟ . .
بيد أنّ الوردة هي ، على الحقيقة ، غير واعية . أمّا المرأة
فشأنها آخر : جمالها ، بعض صفاتها ، سرّ وجودها ، كلّ ذلك
قد يفوت منها قوى الوعي ، ولكن يستحيل أن يفوت قوى اللاوعي .
اللاوعي في الإنسان طاقةٌ ولا كأحدّ الوعي .

(١) الشعراء والعلماء ، الذين استلهمت وإليهم استندت في دعم هذه الخواطر ، أكثر
من أن يذكرّوا .

لايستغرب هذا سوى اللامتمرس بأشياء العقل . أمّا من كتب
أو خطب أو تحدّث ، ولو مرّة ، حديثاً أخذاً فلا يجهلها حقيقة
راهنّة . لأننا ، على قول شارل بالي ، إذ نتكلم فإنما نتكلم بشكل
لاواعٍ ، لانفكر بألوف التصوّرات يسلسلها فكرنا في كل جملة
نباشر : بشكل لاواعٍ ننتقي الألفاظ التي هي أقرب إلى الفهم أو
أفعل في الدهن ، بشكل لاواعٍ ننحت لنا أحياناً صيغاً جديدة ما
كانت يوماً في اللغة وما ندرى أي أصول مكتشفة بالسرّ راحت
توحيا إلينا في تلك الهنيهة ، بل بشكل لاواعٍ يتمّ أخيراً عمل الفاهم .
وبقدر ما تكون فكرتنا لاواعية تكون أسرع إلى فقهه وتكون أدقّ
وأعمق . وعلى العكس ، بقدر ما تغدو فكرتنا مدروسة تحليليّة
تغدو متعثّرة دون فهم الفاهمين . وشدّ ما نرى لفظة أفلتت منّا
إفلاتاً ، أو كان تلفظنا بها سبب دهشتنا نحن ، تلج أفهام السّوى
بسهولة لاتعرفها جملة منطقية واضحة . ويخيّل إليّ أنّ الفكرة
اللاواعية وحدها تستهوي الناس . وما من شكّ في أنّ اللاوعي
أفعل وسائل التّفاهم .

وفي تحرّيات جول كومباريو أنّ الموسيقى ، عند الموسيقيّ
الحقّ ، أوضح من الكلام . وما كان الكلام إلّاّ ليزيدها إيهاماً .
وهو يزعم أنّا إذ « نفكّر دونما مفهوم » فإنّما نفعل لالتخلّي عن
الأشياء التي يمثّلها مفهومها بل ، بالعكس ، لنستولي عليها بأقوى .
عجيبة قوّة اللاوعي ، سواءً في الكلام أو في الفهم .
ولأنها لكلّ ذلك حتّى في الأغراض التي تبدو أدعى إلى استخدام العقل .
أرى أنّ اللاوعي هو رأس حالات الشعر . ورأس حالات
النثر الوعي .

قبل إبداع الشعر ، بل في ذروة إبداعه ، لا أكون واعياً في ذاتي ولا واحداً من الأشياء الواضحة . والثابت (ويمكن الاستناد في ذلك إلى العالم هنري بوانكاريه) أنّ لأثر فكرياً ذا قيمة ، رياضياً كان أم سياسياً . موسيقياً أم شعرياً ، تحقّق في الضمّ . أمّا كتابتي النثر فتكون نتيجة لما عقلته سابقاً ، نتيجة لما استنجدته من فكر وتصوّر وعاطفة ، ثمّ بتمام وعي أظهرته للناس متوسلاً اللغة .

النثر فكر ، والفكرة نعيمها ، وهو صور والصورة نعيمها ، وهو عواطف والعاطفة نعيمها . عناصر النثر جميعاً عناصر وعي . النثر في طبيعته وعي بوعي ، أمّا الشعر فلا .

الشاعر في ذروة إبداعه لاتخامره أفكار ، صور أو عواطف ، وهو إن خامره شيء منها أفسد عليه العمل . عناصر الوعي (ولم أسسّن العاطفة ، صنم النظامين الأفذاذ . . .) لاتلعب في الشعر أي دور .

لأواجه ، ولو لمأماً ، منشأ النثر .

* * *

لأمنّاص من الإقرار بأنّ الوعي هو نثر اللاوعي . فالفكرة إذن ، شأن الصورة والعاطفة ، نثر الحالة الشعريّة ، تعبّر عنها ، باهت مخفف ، يذنيها من أذهان الذواقة المحدود .

نتناول مجلة ونقرأ :

. . . أحبك منكسر الطرف ، خوف

انفلاتك من نظر طامع ،
وأمنسح من عبرتي في الخفاء .
فلا تقعين على دامع .
وثغرك لي فلة الفلّ باتت
يتيمة ذاك الشّذا المائع ،
فذكر الربيع على سمعها
حرامٌ وذكر الهوى الرّاجع ؟

* * *

ونقلب الصفحة فإذا الشرح . . .
وما الفرق ؟ الأبيات غمرتنا بحالة سريرة الماهية ، لكنّها
تركنتنا غير ما كنّا وفوق ما كنّا ، ردّتنا أكثر تألفاً مع حقائق في
الكون ثبّته ، أمّا شرحها فلم يزدنا إلّا معرفة بها ، أعطانا علماً
بحالة الشاعر ، لم يعطنا الحالة .
الشعر ؟ إنّه لسراة العقل ، لطبقة مصطفاة ، باستطاعتها التذوق .
أمّا النثر فللتلامذة — وقد يكونون خارج المدارس . . .
الفرق بين الشعر والنثر ؟ إنّه لكالفرق بين سماع المعزوفة
وقراءتها .

* * *

ما ترى ، يحدوني حيناً إلى كتابة النثر وآخر إلى إطلاع الشّعـر ؟
إن أنا باشرت العمل وكانت تهدير فيّ أشياء بوسع قوى النفس
أن تصل إليها ، إن كانت لي أفكار وصور وعواطف ، وجدّتي
تلقائياً أملاً الصفحة تلو الصفحة نثراً . أمّا إن كان في داخلي ما هو
فوق طاقة تلك القوى إن كانت نفسي ذاتها في حالة فوق الوصف ،

خالصة ، لاثشويها فكرة أو صورة أو عاطفة ، حالة تمكن ذاتها من وعي ذاتها أعمق وأغنى ، فأروح تلقائياً أكوكب بياض أوراقى بالشعر .

الشعر من لاوعي والنثر من وعي .

* * *

سؤال : ما يفرق الشعر عن سائر الفنون ؟

قبل التعبير عنه ، أي عندما يكون لايزال في ذات الخلاّق لم يمتزج بعد بوسائل التعبير ، يمكن الشعر وحده ، أن يشمل الموسيقى ، التصوير ، الرقص ، العمارة ، وما إليها من جمال وراءه يد إنسان . قبل التعبير : حالة من اللاوعي واحدة ، لا تبدّل إلاّ إذا اتخذت شكلاً . تكون الموسيقى إذ نستخدم في إظهار الشعر نغماً ، والعمارة إذ نستعمل رصف حجارة ، والرقص إذ نتوسّل إعماراً بجسم بشري هذه المرّة :

الفنون ؟ لافنون قبل التعبير .

* * *

أحاول التغلغل إلى جوهر الشعر ، إلى مادّته إن استجزت الكلمة . فيما أنا أبداع أكون لا واعياً ، فما أقدر إذن أن أعترف بما جرى لي . سوى أنّ نظرة على حالتي قبل الإبداع وبعده قد ترسل ضوءاً على السرّ .

« قبل » الإبداع و « بعده » ؟ ولكن متى تكون فترة الإبداع ، وإلى كم تطول ؟ هل تبدأ من أوّل كلمة من مطلع القصيدة ولا تنتهي

إلاّ بروي الختام ؟ لا ، وفترة العطاء الجلال ، فترة اللاوعي هذه ، نادرًا ما تطول إلى أكثر من أبيات . سريعة العطب هي ، تعمّر ، في غالب ما تعمّر ، مدى بيت أو فلذة من بيت .

إنها كالحالات النفسية الخالصة تكاد لا تكون حتى تقطّعها فكرة ، صورة ، عاطفة . فإذا الشاعر (ومن هنا عناصر النثر في القصيدة ، كلّ قصيدة) وجهًا لوجه أمام الوعي . الملهم يواصل تحويراً وتبديلاً ، ولربّما يستأنف استئنافاً ، حتى يجد اللقيّة ، أي حتى يعود إلى فترة من اللاوعي جديدة ، أمّا النظام فيمضي في عمله غير آبه . فإذا هو ينظم النثر .

« قبل » الإبداع و « بعده » يعنيان إذن شاطئي تلك الفترة السعيدة من لاوعي النفس ، التي لاتعمّر سوى هنيهات .

قبل الإبداع يسيطر عليّ ما أسميه نغم القصيدة . وبقدر ما يكون عليّ عظيمًا أطلع ما هو أكثر خلوصاً . ولم يتفق لي أن انثنت عن العمل البهيّ إلاّ أوان أفقد النغم ، أي أوان تأخذ تطغى عليّ أفكار وصور وعواطف . وبعد الإبداع (وكذلك شأني بعد التدوق) أحسّ الكون أكثر تألفاً معي منه في المعتاد . فأرجّح أنّي كنت ، في أثناء الحالة الشعريّة ، على تأخٍ مع الكون ، على مواجهة للأزليّ من الحقائق التي كنت أجهل .

قبل الإبداع سلطنة نغم وبعده أثر تأخٍ مع الكون ؟ هل يعني هذا أنّ الشعر مادّة الموسيقى ؟ لربّما . وسلطنة النغم قاعدة لا تخطيء . والعلم يعلم أنّ الاتحاد بالكون لا يتمّ إلاّ بالتموّج . ونحن نعرف أنّ أوثق ما يرتبط بالنفس أشياء موسيقية ومظهرها الطبيعي

الغناء . وقد ثبت أنه من الرملة إلى الكوكب ، من أدقّ الخلايا إلى أبعد جنبات الكون ، إنما يقوم ارتجاف دائم ، تموجات دائمة . وباكراً ، منذ القرن الخامس عشر ، قال العلامة ده كوزا : « ان النفس لحن » .

أتكون ، يا ترى ، مادة الشعر تموجاً ؟ أأتكون موسيقى ؟ وبعد ، لعلّي لا أبعد عن الحقيقة كثيراً إن قلت : الشعر حالة من لاوعي فوق الوصف لا تشرح ، جوهرها أشبه بموسيقى ، بها يتحد الشاعر حميماً مع الأرنى من حقائق هذا الكون المهيب .

* * *

الحالة الشعرية ، كيف أنقلها منّي إلى المتدوّق ؟ قلت أنقل ولم أقل أعبر أو أترجم أو أصوّر أو أمثل أو أدني أو أعكس أو أنبيء أو أنشر ، إذ الشيء لا يمكن غيره أن يكونه . من التّحديد أذكر بأمرين : الشعر من لاوعي ، وجوهره أشبه بموسيقى . نقل الشعر إذن يقتضي تعطيل الوعي في القارئ وأن أخلق فيه جوهرأ أشبه بالموسيقى وأخلقه على شاكلته بالذات . أوّلاً : كيف أعطل الوعي ؟

أقول : غداً ، لمحض ما أن يواجه القارئ قصيدتي ، سيكون قد هيأ لها وعيه ، عاد بأجمعه وعياً بوعي : عقلاً ، تخيلاً ، حساً . سيكون على تمام أهبة إذن لأن يأخذ من الحالة الشعرية ما يقع على السطحي من قوى النفس ، لأن يأخذ منها مظهرها الأخط ، نثرتها بالذات ، لأن يحول لاوعيتها إلى وعي ، لأن يخرجها عن طبيعتها ،

لأن يقتلها . إذن فلا عطل فيه الوعي : كيف ؟ بأن أشغل منه الوعي ، ظاهرة الفضولية فيه . الوعي يطلب أبداً أن ينشط ، أن يعي ؟ فلا أعطه حقلاً يعمل فيه نشاطه ، ولكن حقلاً مركباً (ويقول اليرانيون : صعباً) بحيث يجهد ، ويجهد حتى يتعب ، وأخيراً يكل .

هذا الحقل عرفه النظريون المحدثون باسم « الإيحاء » . أما بحثهم الإيحاء فلم يخل من سداجة . قالوا مع ملرمة : الأشياء قيلت ألف مرّة : يكفي أن نوميء إليها إيماء ، نتمم بعض الكلمات ليروح السامع يكتشفها من ذاته ونكون لم نصيغ عليه لذّة الاكتشاف وقالوا مع غير واحد : إن القارئ إذ يكتشف يحسّ أنه شارك الشاعر في خلق الحالة الشعريّة ، يحسّ أنه هو أيضاً مبدع .

على أن الإيحاء ، حقلنا المركب العجيب ، ينفذ سرّه إن هو درس في مظهره « التعددية » .

« التعددية » في الموسيقى مثلاً ، (وهي ذروة أنواع الموسيقى) هي أن تضرب في الوقت الواحد أصواتاً مختلفة . فإذا الوعي ، ولا صوت واحداً يرتاح إليه ، أي يعيه ، يحاول أن يقبض على الأصوات المتعددة مجتمعة ، فيجهد نفسه ، لكنّه (وهو الضعيف الضعيف ولسطحيّته ذو خاصّة تتطلب الواضح والمفرد) عبثاً يجهد ، فإذا به يتعب ولا يلبث أن يقع دون المحجّة ، وهكذا يترك الأصوات المتعددة تخاطب اللاوعي ، وهي التي لأنما وجدت له ولها وجد .

ألجأ إلى الإيحاء ؟ أو ، بلغة الموسيقى ، إلى « التعددية » ؟ أوليس إلى هنا مردّ أقوال برغسون : « غرض الفن أن ينوّم القوى

العاملة ، أو بالأحرى الصامدة ، من شخصيتنا ، ويذهب بنا هكذا إلى حالة انقياد تام . . . » ؟

هو العمل السليبي « التعددية » . أمّا عملها الإيجابي فلعليّ أثبتته عندما أفاجتني أخلق جوهر الحالة الشعرية .

ثانياً : كيف أخلق في القارئ جوهر الحالة الشعرية وأطلقه على شاكلته بالذات ؟

الألفاظ ، عناصر الشعر المادية ، ليست علاماتٍ محض اصطلاحية . اللغة لم يوجدها فرد ولا مجلس أفراد فيصطلحها اصطلاحاً . اللغة بنت التفاهم البدائي . هذا كان بين الناس ، شأنه اليوم بين البكم غير الصم ، أصواتاً ، لأنّها جوهر المعبر عنه . فإذا يكون طور الكلام تعود اللفظة مجموعة أصوات أكثر تساوياً في الجوهر وشكل الجوهر مع الشيء المقصود لإظهاره .

هو سرّ تكوين اللغة لا أزيد . وهو المبدأ الذي ينبغي أن يظلّ عليه الكلام .

ولكن إذا تكون الكتابة ، وتغرق اللغة في الاصطلاح ، (وهو إذّما يستدعي التدخّل العقليّ ، الذاكرة على الأخص) وتخرج الألفاظ عن هذا التساوي في الجوهر وشكل الجوهر مع المقصود لإظهاره ، تعود مهمة الفنّ أن ينتقي ويرتّب بحيث يوجد تركيباً كلامياً ، وقل موسيقياً ، فيه من الأصوات ، تمازجها أو التنادي ، جهيرها أو الخفيت مقتضبها أو المنبسط ، إلى لعبٍ ولفّ ، ممّا يؤلّف صيغاً صوتية تعيد بين الكلام والمقصود لإظهاره رابطة

فيزيولوجية سبق للتدخل العقلي أن فصمها . وبقدر ما يوفق الفن إلى ذلك تكون درجة الخلوص في الشعر .

تساوي الصيغ الكلامية والحالة الشعرية جوهرًا يقتضي أن تكون الصيغ الكلامية من تموجات هي نفسها مكونة الحالة الشعرية . والتساوي شكل جوهر يقتضي أن تكون الصيغ الكلامية من تموجات هي نفسها تكون الحالة الشعرية . والتساوي شكل جوهر يقتضي بأنه إن كانت التموجات التي تكون الحالة الشعرية على شكل لولبيّ مثلاً أو خط مستقيم أو ما إليه وجب أن تكون كذلك التموجات التي تتألف منها الصيغ الكلامية .

يطيب لي أحياناً أن أتناول الأصل والترجمة لقصيدة ذات ترجمة عبقرية . (أقول الترجمة غير ناسٍ ما يزعمون من أن الشعر لا يترجم . وإنه كذلك إن كان المقصود أن تحصل على مساواة في المعاني بين أصل وترجمة . ولكن الشعر أكيداً يترجم إن كان المقصود مساواة الحالة الشعرية يطلعها الأصل بالحالة نفسها تطلعها الترجمة) . وأختبر وقع الصيغتين على من يجهل لغتي الأصل والترجمة فألاحظه يستشعر ، دوماً على وجه التقريب ، الحالة الواحدة : ففي اللغتين يسمع الحلق يعمل إن كانت الحالة الشعرية متمظهرة الجوهر بأصوات مختنقة ، وفي اللغتين يتحسس الأبيات عصبية أو متطائرة إن كانت الحالة متجلية الجوهر بأنفاس مقتضبة أو وثابة . فأوقن أن أبيات الترجمة لم تتمكن من نقل الحالة الشعرية بالذات إلاّ بعد أن ساوت أبيات الأصل جوهرًا وشكل جوهر ، وأبيات الترجمة يستحيل أن تكون قد نقلت حالة الشاعر لو لم تساوها جوهرًا

وشكل جوهر . وبديهي أن شيئاً يساويه أحد شيئين متساويين هو مساوٍ ثانيهما .

وبعد فالقصيدة ، أداة نقل الحالة الشعرية ، أحدها هكذا :
مأثورة كلامية توصلت بتجارب موصولة - وقل بلقيّات - إلى
فلذ ، إلى أبيات ، إلى مجموع إيحائي يعطّل بتعددية الأصوات
وعمي المتذوق ويتكوّن في لاوعيه بأكثر ما يمكن من مساواة لحالة
الشاعر جوهرًا وشكل جوهر .

* * *

هذا عن الشعر كفن . أي كواحد من مظاهر الجمال . أما
الشعر في أغراضه والتفصيل فيها فمسألة أخرى . ولربما أمكنت
إزاحة طرف من ستارها بالقول : إن الجمال الذي يخلعه الشعر ،
سواءً على الشاعر أو على المتذوق ، إنما قوامه هدوء خالص
لاتتلاطم فيه فكر وصور وعواطف ، هدوء يجعل النفس ، ولا
شيء يفجأها أو يعكّر صفاءها ، منظويةً على ذاتها ، أعماقها على
أعماقها ، حتى لتغدو أكثر تألفاً مع حقائق الكون ، بل تغدو وحقائق
الكون شيئاً واحداً ، فإذا هي فوق هذا العالم بالآله ونقائضه ، لا
تصطدم عمياء بأيّ نظام تجهل .

سعيد عقل

المصدر :

مقدمة سعيد عقل : ديوان المجلية .
صدر الديوان للمرة الأولى عام ١٩٣٧ .

مَقْدَمُ التَّجْوِيزِ

قسطنطين الحمصي

١٨٥٨ - ١٩٤١

اخلع نعالك يا كليسم فانت في
ارض مقدسة بنفس والهه
واذا سمعت الشعر فانزع ستر رأ
سك خاشعاً فالشعر نطق الآلهه

الشعر هو مرآة نفوس الشعراء ، ومتجلى تخيلاتهم بما على وجه
الغبراء وما في الفضاء ، ومسرح افكارهم وسرائرهم ، ومعرض
تصوراتهم وضمائرهم .

وهو سمير الاديب والخلي ، ومؤنس وحشة الغريب والشجي ،
ونديم العظماء ، وخاليل الحكماء ، وغبطة العشاق ، وعلالة المشتاق ،
والمؤرخ والراوي ، والناشر والطاوي ، وأبهى حلي الحسان ، واشرف
مزايا اللسان .

وهو مرّ العداوة ان يعادى ، شديد النكاية ان يبادى ، ما عاداه
وزير أو سلطان ، الا وناله من سخطه ويل وهوان .

وهو الرسول الامين ، الذي يعرب ويبين ، والحدين الذي لايمين ، وواسطة عقد الشمل بين المحبين ، والمغرّد الذي يقيم المسرات ويقعد الاحزان ، والاغنية التي لاتماتها الاذان .

بل هو رائد القطيعة والعداوة بين القلوب ، ومثير زعازع الفن والحروب بين الشعوب ، ببیت منه تهتك استار وتهدم بيوت وقصور ، وتهدر دماء وتطيش حلوم وتوغر صدور ، يصرم في النفوس نار حب الوطن وما ادراك ماهية ، فاذا هي في سبيله متعادية متفانية ، يتسابق شجاعها والجهان إلى مصارع الهاوية .

لابل هو المزهري الذي تختلج لنغماته حبات القلوب ، والنديم الساحر الذي يلهمي المحب عن المحبوب ، والمرقص المطرب ، والواصف المعجب المغرب ، يحلو تكراره في الافواه ، وان مل تكرار سواه .

وهو الضيف قراه الاسماع ، ومنزلة الضمائر والقلوب ، خفيف الظل خفيف المتاع ، لايعتره هرم أو لغوب ، ولاينال عيونه كلال او نضوب ، ان أنشد توّد المقل لو انها مسامع ، وتتمنى القلوب لو انها لاسراب ظبياته مراتع ، ولنجومه وبدوره مواقع ومطالع .

وهو المؤبّن الذي ينفطر له الفؤاد جزعاً وتفجعاً ، وتكاد تسيل لديه عيون الجحاد رحمة وتوجعا .

بل هو سرّ من اسرار الالفاظ لايلج في الاسماع الا ويملك من الافئدة العنان ، فيصرفها كيف شاء هدى او ضلّالاً فهو لاريب

ربُّ البيان ، او هو طائسم سحريّ ينثث فيه العبقريّ فيدفع به
الوفاء نحو موارد الختوف ، يحسبون انفسهم في جنة موعودة وهم بين
طعن القنا ووقع السيوف .

بل هو مظهر من مظاهر الجاذبية ، يتجلى في بعض النفوس
البشرية لقابلية فيها او خاصية ، ويؤثر في نفوس سامعيه ويلدّ لهم
كما يلدّ الماء للعطاش ، فيهلكون بتأثيره عن رضى كما يهلك بالنور
الفراش ، وهذا من اغرب آياته واسراره ، واعجب افعاله واطواره ،
وهو ذاك في سائر اطراف البسيطة ، وحالة تلك في الامم البالغة
ارقى درجات الحضارة والبسيطة ، لا يختص ساطانه بلغة دون اخرى
من اللغات ، ولا بوزنٍ من الاوزان او نغمةٍ من النغمات ، اعيا
المدارك سرّ فعله في النفوس فلا تستطيع له وصفاً وافياً او تعريفاً ،
واستعصى فاعل تأثيره على البصائر فلا تطيق له تحديداً او تكييفاً ،
وهو جوادٌ جمح بكثير من فرسان الفضل وملوك العرفان ، وساست
مقاداته على بعض غلمان الوراقين والخبازين والرعيان .

وهو غذاء العاشق وترتيله في صبحه ومساءه ويقظته ومجوده ،
وقربان الهائم على مذبح تقدسيه وسجوده ، وضحية المتيسم لدى
محراب فاتته ومعبوده .

والخطيب الذي تلعب بالعقول كلماته ، والوحي الذي هبطت
من اسمى عروش البلاغة آياته .

بل الجراح الجرح لا يلتئم ، والصبارم الذي لا يكل ولا ينثلم .
بل هو الشفيح المشفّع اذا قامت حجة الخصوم ، والناصر الذي
لا يجزع اذا عزّ انصار المظلوم ، لم ينطق بشير السلام بلسان اعذب

من لسانه ولا توسّل إلى الصلح والموادعة متوسّل الا وكان من اعوانه .
 وهو رافح اقدار العظماء ومخلد مفاخرهم ، ورواية احساب
 الكرماء وراية مآثرهم ، وهو افخر عقد يصاغ لتنزيل جواهر المحاسن
 والمكارم ، وابهى تاج تتزين به رؤوس الماوك والاعاظم ، واجلّ
 تحفة تهدي في التهاني والمواسم ، وأنفس ما احتفظ به الاحباب
 من الرثائم والعزائم .

بل هو رسم ادق العواطف واخفى حركات النفوس ، والصهباء
 التي تسكر بها الاذواق صافية من اكدار الكؤوس .

بل هو الحكمة توحىها الفطنة إلى ملك البلاغة والبيان ، فبرزها
 لعالم السمع في ابداع مطارف النهى وابرع حليّ اللسان .

وهو السجلّ مجدّد مآثر الذاهبين الاولين بصورة عديمة المثال ،
 معدّد مفاخر المتفردين المتقدمين بطريقة منقطعة المنوال ، ممثّل
 المحاسن للعيون بعد ان لبثت قروناً في الارماس ، معرّف كلّ
 نكرة مدفون بعد ان تراخت العصور وتداخلت الاجناس ، مقيم
 القسطاس المستقيم فلا يبعسون ولا يغبنون ، يوفى كلاًّ حقّه فيستعاد
 المسلوب وان تقادمت القرون ، بل هو ناشر الاموات ، ومحيي
 الرفات ، وقد تخلّصت من عوائق الاجساد ، وتملّصت من بوائق
 الحساد .

بل هو روح يمازج النفوس فيصعد بها في عوالم الغيب ، فتتخطى
 مناطق القياس والتقدير إلى عوالم الشك والريب ، وتجاوز افلاك
 الخلدس والظنون ، وتخرق الحجب فتترك خافئها ابعث مرثيات العيون ،

وتجرت من عناصر الوهم والتخييلات ، احوالاً ومخارقات تحسبها
لديها من المشهودات .

بل هو بخار الرياض والانهار . ونفحات الربيع والازهار ،
وصدى البلبل والاطيار ، وألحان نسيمات الأشجار .

بل جوهر قد تجرد عن الهوى . وترفع عن المادة الاولى ، فلا
يتوصل اليه بغير السمع من أدوات الحس ، ولا يعلق به شيء من
النظر او الشم او اللمس ، وقد يتمثل لدى عين الدهن ملياً ، كما
لو كان مخلوقاً سوياً ، ويقبل مالموظاً ، ويتصور ملمحوظاً .

بل هو افصح ترجمان لاعجم مخلوق في عالم الوهم ، وابلغ
مغرب لاغلق مكتوب في غياهب الحلم .

بل اوضح مصوّر لاسرع سائح في فضاء الخيال ، واجلى
مفصل لمعترك التصورات في غيابات المحال .

بل هو المعبود الذي حارت في وصفه الفلاسفة والحكماء من
اليونان والرومان ، وهامت في حبه قلوب العارفين والفضلاء في
مشاهير الامصار والازمان ، ونطقت به الاولياء والانبياء وحامت
حواله قرائع العظماء والامراء ، وباهت باربابه السلاطين ، والخبابة
من الفاتحين المتغلبين ، في كل قطر وفي كل حين .

فبينما تحسب نفسك جائلة في مصارع عشاق ، ومفازة اشواق ،
اذ تراها في جوب آفاق ، ومشاهدة عجائب اتفاق ، وبينما تظنها
سارحة بين اسراب غزلان ، في رياض وفلوات وجنان ، اذ تراها
بين خلان وندمان ونقل وريحان ، عاكفة على اباريق الدنان ، كأنها

نشوى سرور وامان ، بين نقر الاوتار على العيدان ، ورقص البلايل
على الاغصان .

وبينما يخيل اليك انك في ميدان قتال ، بين سيوف ورماح
ونبال ، وكبر وفر ، وبتر وهبر ، وصراع وجلاد ، في هضبة
او واد ، بين بروق المدافع ورعودها ، ونحوس المعامع وسعودها ،
اذ تظن انك نقلت الى مجالس انس عقد لها السرور ابهى الرايات ،
او الى مجمع علماء يديرون بارع الاداب في روائع الكاسات ، او
انك تنوح وراء الجنائز ، او تروح بمأثور الجوائز ، او تمدح الخلالن
والاعيان ، او تشب وتغزل بالحسان ، او تتشوق الى الاوطان ،
او تذم الغربة والرقيب ، او تقدح في العشرة والمشيب ، او تطري
الوفاء والعدل ، او تثني على ذوي الفضل ، او ترى نفسك في هياكل
الفلاسفة وحلقات الحكماء ، لدرس مكارم الاخلاق ومستصوب
الآراء ، وتنشر من مطاوي الفضائل وخزائن المحاسن انور الاضواء ،
كأنك قائم . بين اقوام قد اكل الدهر عليهم وشرب ، وأنت الان
تفرح لفرحهم ولما يحزنهم تحزن وتضطرب ، بيد انك لم يتغير بك
مكانك ، ولا تقادم عهدك ولا تحول زمانك ، وانما هو الشعر اراك
الحياة شباباً ومشيباً ، والمستحيل ممكناً والبعيد قريباً ، واذقك العيش
حاراً وضريباً ، وصور لك ما تنوهم حقيقة في مراتب الاوهام ،
وجسم لك الوهم فرحت تحسبه في عداد الاجسام .

اما بعد فهذا تعريف الشعر بالاجمال وبقدر ما امتثلته القريحة
الضعيفة وفي ديواني هذا شيء او اشياء مما وصفته آنفاً فان لم يجمع
محاسن الشعر او شيئاً منها ، فهو لا ريب مرآة ايامي ، وتأريخ ظعني

ومقامي ، وحربي وسلامي ، وراوية اخباري ، وكاشف عواري ،
وقد رتبته بحسب ازمان نظمه ، وهذه الطريقة — اي الترتيب بحسب
تواريخ النظم — ادلّ عندي على اغراض الناظم وحالة الزمن وما
يتعاق بالبيئة والدواعي التي دعت إلى النظم ولاسيما سنّ الناظم
وخفيات نفسه وضميره ، وقد عاينت ان الشعر ليس كفنّ الغناء
او التصوير او النقش او الموسيقى بحيث يراد منه تعام الفن او مسرة
النفس من النظر إلى محاسن المنظورات ، واستماع المطربات ، بل
هو بحسب ما اجماعته لك فنّ جليل وعلم واسع يحيط بتفصيل المراثيات
والمسموعات ووصفها بحسب تأثيرها في نفوس معانيها وسامعها ،
بل وصف سائر المحسوسات والمعلومات على هذا النحو ، بل بابرار
الموهومات في صور المشهودات ، فيرى فيه الناقد البصير غير ما
يرى القارئ البسيط ، اذ هذا لا ينظر غير الحروف ولا يستدل بها
على غير الالفاظ بمعانيها الظاهرة ، واما ذلك فلا يرضيه الاّ أن
يتطلّع إلى ما وراء ذلك وان ينظر بعين الشاعر نفسه ويتامس الوقوف
على احداثه النفسانية ويتجسس عواطفه ساعة تأليفه تلك القصيدة او
ذلك البيت ، بل يطمع ان يحسّ بيده صدر الشاعر فيعدّ عليه دقات
قلبه ، وان يمتد بصره فيطالع على اخفى حركات نفسه وادق شعوره
واهوائه كما و كان شعره مرآة ذلك كله .

وهذا ولا ريب مطلب لا يستهل مناله لجميع طلابه ، ومطمع
لا يتيسر لعامة الطامعين من رغبته ، وهو فرع من السيکولوجي
المعرب بعلم قوى النفس او بعلم النفس .

على أن من رزق حظاً من الذوق العالي . ونصيباً من النباهة
وحصة صالحة من عاوم الادب ، وقاباً عليماً بأسرار الالفاظ ، وبصراً
صادقاً بمواقعها ، كان حرّياً ان ينكشف له حجاب اللفظ عن صور
المعاني . وان يتوصل إلى متطاعه ، ويفوز عند الاستبصار بمطعمه .
ولا سيما وان جيد الشعر " وكلامنا عنه - ليس من الطاسمات او
الاحاجي التي يتعمّد اغلاقها وتغميضها ، بل الالفاظ نفسها بمعانيها
الحقيقية ، دالة على ما تعمد الشاعر تصويره ، بل دالة على ما صورتها
مخيلة الشاعر ساعة تأليفه وعلى عواطفه وشعوره .

ولهذا كان الشعر عند هذه الطبقة من حذاق النقادين ، تأريخاً
صادقاً بل لساناً ناطقاً ، فهو مخلص قائله يجمع اخلاقهم وعواطفهم
ومن صاحب قائله من المشار اليهم في شعره على كؤوس الشراب
او عند المداعبة والعتاب ، ولا سيما من مدحوه او هجوه او راساوه
إلى كثير مما يتعلّق بعادات عصرهم وآداب قهرم واحوال تتمعهم .

فعمى ان يكون في ديواني هذا ما يخاد لي حسن الذكر . ولدي
رحمي ما لا يخفض القدر ، وسلام على من كشف الحسنات ، وستر
الزلات ، وتبارك من تفرد بالكمال . وجل عن النقص في كل حال .

وكتب في ١٥ تموز سنة ١٩١٧

في حلب سنة ١٩٣٩

قسطنطين الحمصي

المصدر :

مقدمة مختارات من نظم الأديب الكبير الأستاذ قسطنطين بك الحمصي الحلبي - حلب ١٩٣٩

مقدمة

علي محمود طه

١٩٠٢ - ١٩٤٩

هذه الأرواح ، تهيم أشباحها ويدور حوارها في صفحات هذا الكتاب ، يعيش بعضها في عالم الحقيقة ، ويضطرب البعض الآخر بين عالمي الأساطير والخرافات ؛ لم أسع إليها عن عمد ، ولم ألقها مصادفة ، ولكنني تبينتها صوراً يتمثلها خيالي ، وحديثاً يتزدد في خطرات نفسي ؛ فوجدت مطابقة بينها وبين أشخاص قرأت لهم وسمعت عنهم ، ورأيت اتفاقاً ومواءمة بين ما نزعوا إليه في عالم الروح وما صنعوه في عالم المادة ، فعرضت للطبائع والغرائز والأهواء ، واستعرضت الوقائع والآثار والأسماء فأيقنت أن كلاً يكاد أن يكون المعنى بهذا الحوار ، المتسقة طبائعه وغرائزه على هذا الغرار .

وحبّب لي هذا الجو الأغريقي الساحر ، وأساطيره الغادية الشادية ، أني وأنا أتمثل هذه الأرواح صوراً ، وأستلهمها إحساساً وفكراً ، خيل لي أن روحي قد انسرقت من طيفها فيما يشبه أحلام اليقظة ، أو لحظات الشرود الإلهي ، مأخوذة بما ترى ، مشفقة مما تسمع ، وكأني بها وراء سحابة في عالمها الذي سبق لها أن عاشت فيه عند بعثها الأول ، ووجدت نفسي ، في طريق أذلاطون ومثاله العليا ، فتنفست في هذا الجو طليقاً حراً لانقيدي بيئة أو عقيدة ، ولايحد من

حريتي حذر أو اتهم ، وأرسلت بصري في هذا الطريق الصاعد
البعيد فلم يصل إلى مداه ، وبدأت البصيرة عماها من حيث انتهت البصر ،
فإذا أبواب سحرية موصدة ، وراءها خفايا وأسرار ، وقضايا وأقدار
وإذا بي عند ختام قصيدي لا أزال في ذات الطريق لم أصل إلى غاية :
ولم أوف على نهاية .

وفي عالم الأسرار والأقدار سمعت حواراً يجري بين حوريات ،
من صواحب الفن ورباته ، هن : سافو ، وبليتييس ، وتاييس ،
ورأيت بينهن إلهاً عجيباً فذاً يحكم بينهن ويقضي فيهن ؛ وجدت
« هرميس » الذي لامشبه له بين آلهة الأغريق ، في تعدد صوره ،
وتنوع ملامحه ، وتنافر طبائعه ، وتناقض وظائفه ؛ إلهٌ عجيب شاذ ،
لائق حقاً بالمهمة الموكّلة بها في هذه القضية ، ومن غيره إلهٌ له
في الروحيات والماديات ؟ له في التجارة والكسب ، وله في الخداع
والدهاء ، له في الجد والعبث ، وله في الشعر والغناء ؛ يجمع بين
التزعات العليا ، والرغبات السفلى ، يلهم الشعراء ، ويرعى القطعان ؛
ثم هو بعد ذلك وقبائه ، لصٌ أو إلهٌ للصوص ؟

من غيره إلهٌ متناقضات حقاً ، يحكم بين صاحبات الفن ورباته ؟
والحياة لا تلد لهن إلا بهذا التناقض ، ولا يزين لها جمالاً إلا من
من خلال أمزجتهن الرقيقة المتقلبة .

لم يكن غير « هرميس » ليحكم بين هذه الأرواح العابثة ، اللاهية
المرحة الغاوية ، المتألّمة المعذبة ، اللطيفة المتكيرة ؛ ولم يكن لهن
غير هذا الإله القوي العجيب ؛ الخبير بالمرأة حقاً ، الذي يعرف
جمالها ودلالها . ويدرك سرها الذي رآه ووعاه في « أفروديت »

ربة العشق وإلهة الصباية . ولم يكن لهن غير إلهٍ مرح ، قادر ، ماهر ، يتعقب الحوريات ويلعب معهن ، وتتحدى قوته العمالقة ويعبث مكره بالآلهة . وما رأيك في إله سرق ليلة مولده خمسين ثوراً من قطع الأوليمب السماوي ، وجد بينها في كهف « بيلوس » متابساً بإثمه ؟ ثم هو بعد ذلك قاتل العمالق « أرجوس » وقائد « هيراكليس » إلى عالم الظلمات .

وهذه « سافو » ربة الشعر الغنائي والأماديج والأناشيد التي يراها « سوينبرن » أعظم شاعرة عرفها التاريخ ، والتي اضطربت حياتها في محيط من اللذات والآلام ، أحبت الرجال ثم اجتوتهم ، ووصمت بهذا اللون المريض من العشق حتى قيل إنها كانت تنهد في « لسيوس » كاهنة الرذيلة ؛ ثم هي هذه المحبة الواقعة ، التي انتحرت من أجل معشوقها الملاح الميتيليني « فاون » الذي كان يعطر « فينوس » أجمل الرجال ؟ ! .

هذه المرأة الواقعية ، ما سرّ شذوذها المزعوم ؟ وما سرّ صاحبيتها « بليتميس » الخرافية ؟ السرّ هو ما يعال به العلماء هذا الانحراف الجنسي ، هو الشعور العميق بالازدراء والامتهان من الجنس الآخر ، هو الخيبة الشديدة في الحب ، والانخفاق الأليم فيه ، يصدم العصب الانساني فيزهز هزاً عميقاً عنيفاً يختل له نظامه ، وهذا ما يتجلى في حوار الشاعرتين ، وما يعبران عنه بالذات في مقطع « دنيا النساء » .

أما « تاينيس » تلك الراقصة الفاتنة اللعوب ، التي لاتستقيم حياتها الخاصة بغير الرجال وغير موداتهم ، والتي لاينمو فنّها ولايتفتح ولا يزدهر ، إلا في أجواء محبتهم وإعجابهم وتحت أشعات أبصارهم وبين رفيف شفاههم وقلوبهم ، هذه المرأة الذكية القلب لم يكن لها

غير أن تدافع عن الرجال لأن الحياة كما تعرفها وكما خبرتها لأمعنى لها بدونهم ، ولا بهجة فيها إلا بهم ؛ وإن عطف على بنات جنسها في بعض أقوالها فذلك من البدهيات التي لا خلاف عليها .

فإن كان ثمة فرق محسوس بين نزوع هذه الأرواح في السماء ، وبين صنع أصحاحها في الأرض ، فهو الذي تقضي به طبائع الأشياء ، ويستقيم به المنطق ؛ فكل روح قد سمعت بحديث الخير والشر ، وتأثرت به ، وطبعت على ما هيئت له وهي في صحبة الآلهة قبل حلولها في أطياها الأرضية ، وهيهات أن ندرك في أقوالها مدى عنفها ولينها ؛ وحبها وبغضها ؛ وسخطها ورضاها ؛ وسلامها وخصامها ، وهي روح مجرد في العالم المعقول ؛ كما نرى ذلك ونلمسه في أفعالها وهي مزاج من روح وجسد في العالم المنظور ؛ وهذه الأطياف الأرضية ، سجون أرواحنا ، مثار الأهواء الآثمة ، ومستقر الغرائز الدنيا .

هرميس — ابن الإله جوبيتر ، وزوج أفروديت إلهة الصبابة ، ووالد هرما أفروديت الفتاة العجيبة الشاذة المعروض تمثالها في متحف اللوفر بباريس ، وهو رسول آلهة الإغريق ، إله اللصوص والمنافسات ، والقطعان ، والبلاغة ، والموسيقى ، والوحي ، ومبتكر جميع الفنون ، ومخترع القيثارة في طفولته ، وتروي الأساطير حوادث كثيرة عن رجولته ومغامراته الغرامية ، وقد أقام له الإغريق شتى المعابد في كثير من أنحاء اليونان وجزائرها كما نصب له الرومان أجمل التماثيل وقيل إنه المكاف قيادة الأرواح الآثمة إلى الجحيم .

تايس — راقصة أثينية ، غير القديسة التي وضع فيها أناطول فرانس قصته المشهورة ، ولدت قبل الميلاد بأربعة قرون . وكانت فائنة مريحة أكثر ما تكون المرأة فتنة ومرحاً ، حتى أسكرت بأنوثتها شبان أثينا ، وكانت صاحبة فن في حياتها ، وغواية الكثير من أرباب الخيال وأفلاذ الرجال ، ومن عشاقها الشاعر الأثيني « مناندر » وقد تسلطت على الاسكندر الأكبر ، وصحبته في فتوحاته الآسيوية ، وقيل إنها التي قدمت المشعل الذي أحرق مدينة « برسوبوليس » وفي رواية أنها هبطت مصر وأغوت بطليموس بجمالها حتى تزوج منها .

سافو — شاعرة اغريقية ، ولدت في القرن السادس قبل الميلاد وأنشأت مدرسة لها في جزيرة « لسبوس » لتعليم الفتيات الشعر والموسيقى وكانت لسبوس في ذلك العهد أشد جاذبية من أثينا لرجال الأدب والفن وأحبل منها بمباهج الحياة ، ومراداً فاتناً للهو والقصف ؛ وقد تغنت سافو في شعرها بالحب والجمال والأهواء العتيقة المضطربة بين الفتون والمرح واشتهرت بين بنات جنسها بالمذهب السافي في ملذات العشق .

بليتيس — هي الشاعرة الخرافية التي خلقها إبداع الشاعر الفرنسي « بيير لويس » وأفرد كتاباً لأشعارها المزعومة باسم « أغاني بليتيس » وهي مجموعة من الشعر الغنائي الذي يتحدث بالغزل المكشوف ، والحب الملهب ، ويرمز إلى رغبات الجنس المكبوتة ؛ وهي صورة محرفة من الشاعرة سافو ، وقد ولدت في القرن السادس قبل الميلاد على شاطئ « الملاس » بالقرب من « بانفلي » ثم انتقلت في

صباها إلى « لسبوس » حيث قضت حياتها في الحب والبؤس : والتهتك ، وكانت معاصرة لسافو ومن صواحبها الحبيبات .

الأرفسي — نسبة إلى شاعر إغريقي كان يحرك الجماد والنبات بقوة شعره وسحر غنائه ، ويروى أنه أبرع من عزف على القيثارة وكانت لألحانه خوارق المعجزات حتى قيل إن مدينة « سيبا » بنيت بسحر إيقاعه وقيل إنه أنخضع الوحوش الضارية لنغماته . فكانت تقبل من كهوفها على أصدائها وترقد تحت قدميه مصغية إليه ، وفي الأساطير أنه أحب « يوريدس » وكانت فتاة بارعة الجمال فتزوجها ، وفي ليلة العرس لدغتها أفعى أثناء رقصها فماتت لساعتها ، وجن « أرفيوس » حزناً عليها ، فاقتحم أرض الفناء ، وأخذ يوقع على قيثاره أمام « بلوتو » ملك الموت ، أشجى أنغامه المتفجرة لوعةً وحزناً ، فتأثرت زوجته « برسيفون » من أنغامه وعطفت زوجها عليه ، فوعدها بإعادة « يوريدس » إليه ، على أن يخرج من أرض الموت دون أن يلتفت وراءه ، وخرج « أرفيوس » وقلبه يتنصت بين جنبه لوقع أقدام حبيبته فلما لم يسمعها نظر خلفه فرآها ، ولكنها لم تلبث أن تلاشت من عينيه وتبددت بين ذراعيه الممتدتين للقاءها .

الأليمب — مقر آلهة الإغريق وسماء وحي شعرائهم .

السامري — بعد خروج موسى ببني إسرائيل من مصر ، واجتيازهم البحر في طريق الأرض المقدسة ، واعد موسى ربه في طور سيناء ، فلذهب إلى مواعده وسبق قومه الذين تخلفوا عنه في البرية زهاء ثلاثين يوماً ، ولما طالت غيبته دبّت الحيرة فيهم وتراهم القلق ، فانبرى منهم السامري فصنع لهم عجلاً من الذهب يسمع له خوار

عجب ؛ قد فتن بنو اسرائيل بهذا المعبود الجديد . فباتوا يغنون
ويطربون ، وقامت أجمل فتياتهم ترقص حوله على ضوء النيران ؛
ونسي القوم مقالة موسى لهم عند وداعه .

مانا - أعظم آلهة الطابو وأشدّهم انتقاماً والطابو معناها المقدس ،
وهي عقيدة بعض قبائل السود المنتشرين في شاطئ العاج الأفريقي
وبعض جزر الشرق النائية ، ومن الايمان بها حلول روح القدس في
جسد فتاة بارعة الجمال ، يسمونها « عذراء الطابو » إذا مسها أحد
بشرّ غضبت أرواح آلهتهم فثارت البراكين وطغت البحار وعصفت
الرياح ولعلعت البروق انتقاماً لهذه العذراء المقدسة .

هواي - من جزائر المحيط الهادىء ، اشتهرت بجوها الشرقي
الساحر وطبيعتها البدائية الفاتنة وموسيقاها المترجمة عن أرق العواطف
وألذّ خلجات الحياة .

موسوي - إشارة إلى قصة النبي موسى في أرض مدين ، وقد
مرّ بمورد للماء مغطى بحجر ثقيل ، تقف دونه فتاتان بأغنامهما على
استحياء دون أن تستطيعا الورود من زخام الرجال ، فخفّ موسى
لنجدتهما وتقدم فرفع غطاء البئر بيديه وقرّب الماء لهما وسقى
الغنم ، وأعجبت به إحدى الفتاتين واسمها صفّورة ، فدعته لمرافقتها
إلى والدها الشيخ ، وكان ذلك وتزوج موسى منها .

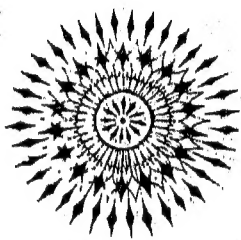
علي محمود طه

المصدر : ديوان علي محمود طه
دار العودة - بيروت
مقدمة ديوان : أرواح وأشباح
صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٤٢ .

فهرس مرحلة مجلة أبولو القسم الأول

| مقدمات | | | |
|---------------------------------|-------------------|---------|--------|
| تقديم | محمد كامل الخطيب | ١٩٩٥ | ٥ |
| المقال | الكاتب | التاريخ | الصفحة |
| حول ديوان الشفق الباكي | مقدمات وتعليقات | | ٧ |
| مقدمة الناشر | حسن صالح الجداوي | | ٩ |
| الشعر والشاعر | أحمد زكي أبو شادي | | ٣٧ |
| هدم الأدب وبنائه | حسن صالح الجداوي | ١٩٩٣ | ٤٦ |
| درس وتحليل | أحمد الشايب | | ٧٤ |
| السقراطية: هل هي جائزة في الشعر | محمد سعيد إبراهيم | | ١٠٢ |
| شعر التسامي | سلامة موسى | | ١١٢ |
| النقد والشعر | أحمد زكي أبو شادي | | ١١٦ |
| بين اليوم والغد | حسن صالح الجداوي | | ١٦٩ |
| مقدمات | | | |
| ١- مقدمة قصة قلب لعلي الناصر | سامي الكيالي | ١٩٩٨ | ٢٢٧ |
| ٢- مقدمة قصة قلب لعلي الناصر | أمين الريحاني | ١٩٩١ | ٢٣٢ |
| ٣- مقدمة المظلم | علي الناصر | ١٩٩١ | ٢٣٦ |
| ٤- مقدمة: في اللغة والشعر | أمين ناصر الدين | ١٩٩١ | ٢٣٧ |
| ٥- مقدمة: رسالة حب لمصالح جودت | أحمد زكي أبو شادي | ١٩٩٣ | ٢٥٠ |
| ٦- تصدير: ديوان الألمان الضائعة | أحمد زكي أبو شادي | ١٩٩٤ | ٢٥٧ |
| حسن كمال الصبرفي | | | |
| ٧- مقدمة: أفاعي الفردوس | الibas أبو شبكة | ١٩٩٧ | ٢٦٣ |
| ٨- مقدمة: ديوان المجدلية | سعيد عقل | ١٩٩٧ | ٢٧٥ |
| ٩- مقدمة: الديوان | قسطنطي الحمصي | ١٩٩٩ | ٢٨٦ |
| ١٠- مقدمة: ديوان أرواح وأشباح | علي محمود طه | ١٩٩٢ | ٢٩٤ |

1997/ V/ 163...



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

في الاقطار العربية ما ينادل
٤٥٠ ل.س

سعر النسخة داخل القطر
٢٢٥ ل.س